اليمين و اليسار في الفكر الديني



حسن حنفي

الدين والثورة في مصر

١٩٨١-١٩٩٥

٧- اليمين واليسار في الفكر الديني

دكتور حسن حنفي

لنفس المؤلف

أولا – تحقيق وتقديم وتعليق:

١– أبو الحسين البصري: المعتمد في أصول الفقه، جزءان، المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٦٣–١٩٦٥.

٢– الحكومة الإسلامية للإمام الخميني، القاهرة ١٩٧٩.

٣– جهاد النفس أو الجهاد الأكبر للإمام الخميني، القاهرة ١٩٨٠.

ثانيا- إعداد وإشراف ونشر:

١– اليسار الإسلامي، كتابات في النهضة الإسلامية، العدد الأول، المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨١.

ثالثا- ترجمة وتقديم وتعليق:

١– نماذج من الفلسفة المسيحية (المعلم لأوغسطين، الإيمان باحثا عن العقل لانسليم، الوجود والماهية لتوما الاكويني)، الطبعة الأولى، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية ١٩٦٨، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨، الطبعة الثالثة، دار التنوير، بيروت ١٩٨١.

٢- اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، الطبعة الأولى، الهيئة العامة للكتـاب، القـاهرة، ١٩٧٣، الطبعـة الثانية، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٣، الطبعة الثالثـة، دار الطليعة، بيروت ١٩٨١.

٣- لسنج: تربية الجنس البشري وأعمال أخـرى، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعـة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١.

٤- جان بول سارتر: تعالى الأنا موجود، الطبعـة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانيـة، دار التنوير بيروت، ١٩٨٢.

رابعا- مؤلفات بالعربية:

١- قضايا معاصرة، الجـزء الأول، فـي فكرنـا المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٦، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت، ١٩٨١، الطبعة الثالثـة، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٧.

٢- قضايا معاصرة، الجزء الثـاني، فـي الفكـر الغربي المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة

١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٨.

٣- التراث والتجديد، موقفنا من التـراث القـديم، الطبعة الأولى، المركز العربي للبحـث والنشـر، القـاهرة ١٩٨٠، الطبعة الثانية دار التنوير، بيروت ١٩٨١، الطبعـة الثالثة، الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٧.

٤- دراسات إسلامية، الطبعـة الأولـى، الأنجلـو المصرية، القاهرة، ١٩٨١، الطبعـة الثانيـة، دار التنـوير، بيروت، ١٩٨٢.

٥- من العقيدة إلى الثورة، محاولة لإعادة بناء علم أصول الدين (خمسة مجلدات) الطبعـة الأولـى، مـدبولي، القاهرة ١٩٨٨.

٦- دراسات فلسفية، الأنجلو المصـرية، القـاهرة ١٩٨٨.

خامسا: مؤلفات بالفرنسية والإنجليزية:

١-Les Methodes d' Exegese essdj sur la science des fondements de ta Comprehension, ilm usul al-Fiqh, Le Cairre, ١٩٦٥.

٢- Lèxègèse de la phenomenology, LEtat actuel de la mèthode phenomènologique, et son opplication au phènomène religieux (paris,١٩٦٥). Le Caire, ١٩٨٠.

٣- La Phènomènologiqeu, de l'Exègèse essai d'une hermèneutique existentielle a partir du Nouveau Testament, (Paris ١٩٦٦),Le Caire, ١٩٨ ٨(sous-press).

٤- Religious Dialogue and Revolution, essays on Judaism, Christianity an dlslam, Anglo- Egyption Bookshop, Cairo, ١٩٧٧.

٥- Dialogue Religieux et Revolution Vol. ll, Anglo- Egyption Book-shop, Le Caire ١٩٨٨ (sous-press).

٦- Religion,Ideology and development, Angli-egyption Bookshop, Cairo, ١٩٨٩ (ln print).

فهرس الموضوعات

اليمين واليسار في الفكر الديني

ز- الكراهية.

ح- الصلاة والنفاق.

ط- أحكام السوق.

١٠- معارك اليمين واليسار في الفكر الديني.

أ- عندما يزايد اليمين في الوطنية والدين.

ب- لسنا ملحدين... ولا منافقين.

جـ- تشويه الماركسية من العقليـة اليمينيـة فـي الصحافة المصرية.

د- تشويه الحقائق، واتهام الزور، فأين المصلحة؟

هـ- المعارك الأخلاقية والصراع الاجتماعي.

و- افتراءات ضد اليسار.

ز- بريق اليسار.

ح- الشعارات الدينية ومضامينها السياسية.

ط- كلمة حق يراد بها باطل.

ى- الوثنية الجديدة.

ك- للمخطئ أجر... وللمصيب أجران.

ل- الإسلام والمعارضة.

م- ذهب المقصورة... وجوع الفقراء.

ن- هل تجوز الصلاة في الدار المغصوبة؟.

١١- أحاديث في اليمين واليسار في الفكر الديني.

أ- من الأخوان المسلمين مع اليسار... ومن اليسار مع الدين.

ب- اليسار الإسلامي مشروع حضاري.

جـ- العلمانية والفكر الانقلابي وتحديات العصر.

د- الفراغ السياسي والثقافي للشباب.

و- الشورى عقيدة وممارسة.

ز- كبوة الإصلاح.

اليمين واليسار في الفكر الديني *

ليس اليمين واليسار مقولتين في السياسة وحدها بـل هما موقفان في المعرفة الإنسانية والعلوم الاجتماعية بوجـه عام، وفي المواقف العملية والحياة اليومية بوجـه خـاص. ومهمتنا هنا بيان اليمين واليسار في الفكر الديني في تراثنـا القديم وفي وجداننا المعاصر، كما ورثناه في علـم أصـول الدين أو في علم التوحيد أو في علم الكـلام أي التسـميات نشاء.

---

* الطليعة ، أكتوبر ١٩٧٦. وقد صدرت الطبعة بالمقال الآتي:–

في هذا المقال يقدم الدكتور حسن حنفي دراسة عن اليمين واليسار في الفكر الدينى، في التراث القديم وفي الوجدان المعاصر، وهو في دراسته هذه يعتمد على واقع حياتنا المباشر وتراثنا الحي، ويستوحى تجاربنا الشعورية المشتركة ونظمنـا الاجتماعيـة القائمة.

والدكتور حسن حنفي، هو أستاذ الفلسفة المساعد بآداب القاهرة وحصل على دكتواره الدولة في الفلسفة من السربون عام ١٩٦٦ وله مؤلفات عديدة بالفرنسية والعربية من بينها "تفسير الفيومينولوجيا" وهو محاولة لدراسة المنهج الفينومينولجي وتطبيقاته في ظاهرة التفسير، "نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط". كمـا قـام بنشـر وتحقيق كتب "المعتمد في أصول الفقه لأبى الحسن البصري" وله تحت الطبع "التراث والتجديد"، محاوله لإعادة بناء علم أصول الدين.

ويهتم الدكتور حسن حنفي في كتاباته المعاصرة بإعادة تفسير التراث القديم من أجل حل القضايا الأساسية المعاصرة وفي مقدمتها قضايا الاختلال والتخاف وإعادة تفسير الدين بما يحقق مطالب العصر من ثورة وتحديث وتنمية.

ولن نعتمد فـي هـذه الدراسـة علـى التحلـيلات الإحصائية، فهذا مجال الدراسات الاجتماعيـة المتخصصـة والرسائل الجامعية، ولكننا سنعتمد علـى تحليـل التجـارب الحية، ووصف الخبرات الشعورية المشتركة التـي يشـعر الجميع بها، والتي تحتاج فقط إلى نـوع مـن الاسـتبطان والاستبصار.

ونحن لن ندخل هنا في معركة البناء الفوقي والبنـاء التحتي، أيهما علة وأيهما معلولا، فهذه معركة بالية أكاديمية صرفة، ولكننا سنحاول وصف الظواهر الفكرية كما هي التي تحتوى على علاقة جدلية، فبقدر ما تكون الأفكار تعبيرا عن واقع بقدر ما يكون الواقع أيضا موجهـا بالأفكـار. ولكـن التجربة الحية هي مادة التحليل، إذ لا يوجد البنـاء الفـوقي والبناء التحتي وحدهما في علاقة آلية صاعدة أم هابطة بـل هناك البناء الشعورى الذي تقوم فيه هذه العلاقـة الجدليـة، وحيث تلتقي الحركتان الصاعدة والهابطة في بؤرة الشـعور حيث يتحدد بناء الظاهرة الإنسـانية. ولمـا كانـت الأبنيـة الشعورية باصطلاح تقليدي أبنية فوقية فـنحن أقـرب إلـى النظرة المثالية التي تفسر الظواهر الإنسانية بالأبنية الفوقية،

وفي حالتنا هذه هو الفكر الديني، دون الوقوع في علاقة علية حتمية آلية بل عن طريق وصف التجارب الحية التي تمحى فيها التفرقة التقليدية بين العلـة والمعلـول، وبـين السـبب والمسبب، والتي تمحى فيها أيضا التفرقة الشائعة بين الـذات والموضوع. فالتحليل الوصفي هو ما نقوم به وليس التحليـل العلي، وكلاهما عام على حد سواء.

ولن نشير في وصفنا هذا إلى واقـع مختلـف عـن واقعنا مثل الواقع الأوربي الذي تسـتقى منـه عـادة مـادة لتحليلات بل أبدأ من واقعنا المباشر، ومن تراثنا الحي، ومن تجاربنا الشعورية المشتركة، ومن نظمنا الاجتماعية القائمة.

وكلها محاولات قد تخطئ وتصيب، بل قـد تخطـئ أكثر مما تصيب، ولكننا نعرضها قضية للمناقشة حتى نفسح المجال لمفكرينا ومثقفينا للتساؤلات حول ارتباط الفكر الديني بالواقع الاجتماعي والأثر المتبادل بينهما حتـى لا نظـن أن الفكر الديني شيء مقـدس بـل هـو نتـاج إنسـانى مثـل الأيديولوجيات التي تنبع من واقع اجتماعي ثم تعود لتؤثر فيه من جديد.

واليمين واليسار ليسا موقفين فكريين متمايزين بل هما أيضا اتجاهان في التفسير، فاليسار في الفكر قد يستغله اليمين لمصالحه واليمين في الفكر قد يعيد تفسيره اليسار لصالحه أيضا. فاليمين واليسار موقفان فكريان متمايزان من الأساس، وأيضا منهجان في التفسير.

وفي نهاية الأمر، أن اليمين واليسار في الفكر الديني أساسا هما وضعان اجتماعيان يدلان على وجود طبقتين اجتماعيتين، تحاول كل طبقة أن تدافع عن حقوقها بالأبنية النظرية المتاحة في المجتمعات التقليدية وهي العقائد الدينية، فهي قضية عملية وليست قضية نظرية، وبناء اجتماعي أكثر منها حقيقة فكرية. تحاول إحدى الطبقتين، وهي الأقلية المسيطرة التي تملك وسائل الإنتاج والسيطرة على الحكم، استغلال الطبقة الأخرى، وهي الأغلبية، لصالحها، عن طريق الفكر الديني أي تفسيرها للدين لصالحها. كما تحاول الطبقة الأخرى، وهي الأغلبية المستغلة، إعادة تفسير الدين لصالحها للقضاء على الأقلية المسيطرة بنفس السلاح. فالدين سلاح ذو حدين طبقا لاستعماله. وهذا هو معنى العبارة المشهورة "الدين أفيون الشعب وصرخة المضطهدين".

يدور علم أصول الدين الذي يحتوى علـى نمـوذج للفكر الديني حول مقدمتين وموضوعات ثمان يضاف إليهـا موضوع أو موضوعان كخاتمة، ومن ثم تكون الموضوعات اثنتي عشرة يتجاذبها اليمين واليسار على النحو الآتي:

١- تبدأ المقدمة الأولى بعرض نظرية العلم أو كمـا يقال نظرية المعرفة إجابة على سؤال: ماذا أعرف؟ ويتضح موقفان: الأول يجعل الإيمان وسيلة للمعرفة، والإيمان فعـل أولي لا يسبقه فعل آخـر، يقبـل ولا يـرفض، يسـلم ولا يعترض، يأخذ ولا يعطي. ثم يأتي دور النظر فـي تبريـر الإيمان وفهمه دون نقده أو تمحيصه.

وهذا هو موقف اليمين، فالتسليم يؤدي إلى الطاعـة والرضا بما يعطى للشعب من حقائق عليه قبولهـا. فـالفرد الذي يبدأ بالإيمان كنظرية للمعرفة يكون أقرب إلى الطاعة للأمراء، وإلي الانقياد للحكام. والشعب الذي يبـدأ بالتسـليم بالحقائق دون مناقشتها يكون أقرب إلى الاستكانة. ومن ثم، تعمل النظم اليمينية على نشر الإيمان بهذا الهدف؛ لأنه يؤدى لها ما تبغي من الإبقاء على الوضع القـائم، والتسـليم بـه، والاستكانة تحته، والرضوخ له. ولذلك لا تعتني هذه الـنظم

بمحو الأمية أو بنشر التعليم بل يكون همها بنـاء المسـاجد، والإكثار من الموالد، وتدعيم الطرق الصوفية، والإكثار مـن الدعوات والابتهالات، وترديد التواشيح، وانتشـار المـدائح، وتعميم البرامج الدينية في أجهزة الإعلام لا عن إيمان بالدين ولكن عن نفاق وتغطية وتعمية وتستر على النظم الاجتماعية القائمة.

وفي مقابل ذلك، هناك اتجاه آخر يجعل نظرية العلم تبدأ لا بفعل الإيمان بل بفعـل النظـر، فـالنظر هـو أول الواجبات الدينية قبل الإيمان من حيث هـو تسـليم، وقبـل الإيمان من حيث هو مضمون: الله، الملائكة، الكتب، الرسل، اليوم الآخر .. إلخ، وقبل الإيمان من حيث هـو ممارسـة للشعائر والطقوس. فالنظر سابق على الإيمان، والفكر سابق على التسليم. فبالنظر يستطيع الإنسان أن يميز بين الحسـن والقبيح، وبالفكر يستطيع الناس معرفة من يعمل لمصـلحتهم ومن يعمل لاستغلالهم. فلا يمكن قبول شيء على أنه حق ما لم يثبت بالنظر أنه كذلك، ولا يمكن التسليم بشيء إن لم نجد البرهان عليه، وما لا دليل عليه يجب نفيه كما قال المناطقـة الأقدمون. بل إن البعض جعل الشك في الموروث سابقا على

النظر، وأول الواجبات لتأكيد الجانب الرافض فـي الفكـر، وهو الشك، حتى تنكسر حدة الموروث، وتذهب سلطة التقليد. ومن ثم يتم رفض كل وسائل المعرفة ومصـادرها الظنيـة وهي مضادات المعرفة مثل الجهل، والتقليد، والظن والإلهام، ولا يقبل إلا النظر بجميع طرقه مثـل القيـاس والاسـتدلال والبرهان.

وهذا هو موقف اليسار الديني، فالنظم التقدمية هـي التي تعمل على محو الأمية، وعلى نشر التعليم، وعلى إقامة الحوار المفتوح بين الاتجاهات الفكرية المختلفة في الـبلاد. ولا تتدخل في حرية الرأي، فحريـة التعبيـر حـق يكفلـه الدستور، وتمارسه المؤسسات الديمقراطية بالفعل.

وقد يستغل اليمين هذا الموقف اليسـاري لصـالحه الخاص وذلك بإقامة نظم سياسية على النظر، وهـي الـنظم الليبرالية. ولكن النظر لا يكون إلا أساس الترشيد، والترشيد أساس التصنيع ولا يخرج كي يصبح دعامة الحيـاة كلهـا، فليس من مصلحة هذه النظم إشاعة النظـر عنـد الطبقـات الكادحة كي لا تعرف حقوقها، بل يظل قاصرا علـى طبقـة واحدة هي الأقلية المستغلة صاحبة رأس المـال، وصـاحبة

إصدار القرارات السياسية أو المؤثرة عليها. وقـد يسـتعمل النظر لصالح شعب دون شعب، ففي الوقت الذي يقـيم فيـه الغرب دعائم نهضته الفكرية والعلمية فإنه يقضي على روح الشعوب غير الأوروبية، ويقضي على مدارسها ونظم تعليمها وتراثها الفكري، ويشيع فيها الجهل أو التبعية لثقافة الغـرب فيما يسمى بالاستعمار الثقافي. في حين أن اليسار يجعل من النظر أمرا عاما وشاملا، لا يخص فردا دون فرد، أو طبقـة دون طبقة، أو شعبا دون شعب، فلا يوجـد عـالم والبـاقي جاهلون، ولا يوجد شعب متحضر وباقي الشعوب همجية.

ويمكن لليسار إعادة تفسير دجماطيقية اليمين لصالحه خاصة في مجتمع تقليدي مازال يفكر بعقائده، وذلك بتوجيـه العقائدية لصالح الفقراء والمعدمين، وتجنيد الطبقات الكادحة وتخريبها حتى إذا ما تحولت إلى قـوة سياسـية ضـاغطة، وطاقة ثورية مغيرة، أمكن بعد ذلك تحويلها من الدجماطيقية إلى الاستنارة، ونقلها من الإيمان إلى النظر.

٢- وتحتوي المقدمة الثانية على نظريـة الوجـود إجابة على سؤال: ماذا أعرف؟ وهنا يتضح أيضا موقفـان: الأول يريد جعل موضوع المعرفة هو الحـادث، المتغيـر،

الممكن، ويقصد بذلك العالم الذي نعيش فيـه حتـى يمكـن الانتقال بعد ذلك من الحادث إلى القديم. ومن المتغيـر إلـى الثابت ومن الممكن إلى الواجب. فالعالم هنا محكوم عليـه بالفناء من أجل إثبات موجود وراء العالم يكون هو البقـاء، والحكم على العالم بالفناء حكم قاس مدمر لإحسـاس النـاس بالعالم. إذ كيف يعمل الناس في عالم فان وكيف ينتجون في واقع لا ثبات له ولا كيان؟ العالم هنا ليس إلا وسيلة لإثبـات شيء آخر، هو الله. فالله هو الباقي، والعالم هو الفـاني، الله هو الغني والعالم هو الفقير المحتاج. ويستطيع الغني أن يفعل بالفقير ما يشاء، فلا قانون يحفظ للفقير حقوقـه إلا رحمـة الغني به، ولا إرادة تقف فـي مواجهـة الغنـي إلا فضـله وإرادته. ومن ثم فلا توجد قوانين ثابتة للطبيعة، بـل يمكـن للحجر أن ينقلب ذهبا، والعصى ثعبانا، ويعيش الإنسان فـي عالم يحكمه السحر، ويدركه بالخرافة، لا يؤمن به ولا يعيشه بل يجد الإنسان نفسه فوقه على نحو عـارض، مصـادفة، وليس له غاية إلا البحث عن الباقي وراء العالم.

وهذا هو اليمين في الفكر الديني الذي تبشر به النظم اليمينية الرجعية التي يهمها سـلب العـالم مـن الجمـاهير

المستغلة، والإيحاء إليها بأنه عالم فان لا قيمة له، وبأن القيمة كل القيمة فيما وراء هذا العالم، وبالتالي تتخلى الجماهير عن حقوقها، ولا تلتفت إلى ما هو زائل، وتعكف على ما هو باق وأبدي تحت سمع وبصر النظم الرجعية التي تستحوذ علـى العالم ولا تعطي الجماهير إلا الظلال.

وفي مقابل ذلك، هناك اتجاه آخر يجعل هذا العـالم باقيا مستقرا، ويجعل جهد الإنسان فيه منتجا ومؤثرا. فالعالم ليس ممكنا بل واجبا، وليس حادثا بل قديما يخضع لقـوانين طبيعية مطردة، يمكن للإنسان معرفتهـا والسـيطرة علـى الطبيعة من خلالها، واستغلالها لصالحه، وتستعصي على كل محاولة للقضاء عليها أو التدخل في سيرها، وعليها تـتحطم كل الإرادات المسيطرة، وكل القوى القاهرة، فلا صوت يعلو على صوت الطبيعة، ولا قانون يطغى على قانونها، فالعـالم ليس وسيلة لشيء آخر بل هو غاية في ذاته، وهو ليس فانيا بل باق، ووجود الإنسان فيه ليس عارضا بل جوهري.

وذلك هو اليسار في الفكر الديني، وذلك لأنـه فـي النظم السياسية القائمة على هذه النظرة يكون العمل منتجا في العالم، ويكون لدى الجماهير وعي بالعالم، وثقـة بقوانينـه

المطردة، وتحافظ على حقوقها وتدافع عن مصالحها ضد كل محاولات السيطرة من الخارج، وضد كـل صـور القهـر الاجتماعي والسياسي من الداخل، فللجماهير الكلمـة العليـا، ولديها ثقة في العمل وفيما تخلفه وراءها من آثار، ويكـون الحكم لها. ومن ثم تفرض النظام الديمقراطي الـذي يعمـل لصالحها وتثور ضد أية محاولة لتركيز السلطة التي يدين لها الجميع بالطاعة والولاء.

وقد يستغل اليمين هذا الموقف اليسـاري لصـالحه عندما يفسر حتمية قوانين الطبيعة واطرادها لصـالح الـنظم التسلطية والرأسمالية فتجعل قانون العرض والطلب أو الصلة بين صاحب رأس المال والعمال صلة الرئيس بالمرءوس، أو قوانين الربح والاحتكار قوانين طبيعية عليها تقـوم الحيـاة الاقتصادية، وبالتالي تكون هذه النظم هي النظم الطبيعية التي تفرضها طبيعة الأمر. كما قد تستغل بقاء العالم واسـتمراره وصلابته وتخصصه كميدان لنشاط صاحب رأس المال فقـط دون العمال، ولصالح الطبقة المسيطرة دون الطبقات الكادحة التي يظل العالم بالنسبة لها هشا لا قوام لـه، حتـى ينشـط صاحب رأس المال، ويستكين العمال، وحتى ينشـط مـلاك

الأرض وينام الفلاحون والأجراء الزراعيون. ولكن القضاء على خصوصية النظرة، وتأكيد ثبوت العالم للجميع من شأنه القضاء على استغلال اليمين لموقف اليسار.

كما يمكن لليسار إعادة تفسير موقف اليمين لصالحه وذلك بالاعتماد على لا حتمية قوانين الطبيعة لصالح التوعية الجماهيرية، فالنظام الرأسمالى ليس نظاما أبديا بـل يمكـن تغييره، ونظام الأجور الذي يفرضه صاحب رأس المال ليس نظاما ثابتا بل يمكن تعديله، وهذا النظام الذي ترى فيه الأقلية المسيطرة أبدع ما أنتجه العقل البشري يمكن السيطرة عليـه وقلبه رأسا على عقب، وبالتالي تتحـرك الجمـاهير بـنفس السلاح الذي أرادت الأقلية المسيطرة على المـال والحكـم استعماله لتسكين الجماهير وفرض إرادتها عليها كما تشاء.

٣- وبعد المقدمتين السابقتين يظهر الموضوع الأول، موضوع الذات الإلهية وهو حجر الزاوية في علـم العقائـد وأساسه الأول. ويظهر اتجاهان: الأول: يثبت هـذه الـذات بأوصاف ست: الوجود، والقدم، والبقاء، والمخالفة للحوادث، وعدم وجودها في محل، والوحدانية أي أن الـذات الإلهيـة موجودة بالفعل وجودا حقيقيا، وقديمة لا أول لها، وباقيـة لا

نهاية لها، ومخالفة للحوادث لا يشبهها شيء، ولا تشبه شيئا، وليست في محل وتوجد في مكان، ووحدانية تنفـى الشـرك والتعدد ومن ثم يتم تأليه الذات وإعطاؤها كل مـا يسـتطيع الإنسان إعطاءه من أوصاف للوجود المطلق خارج الوجـود الإنساني ومستقلا عنه.

وهذا هو موقف اليمين لأننا إذا انتقلنا إلـى الـنظم السياسية التي تحقق هذا التصور لوجدنا أنها تعتمد على هذا الإثبات للذات المطلقة من أجل إثبات النظم الاجتماعية التـي تتركز كلها في سلطة واحدة في القمة، تتصف بكل صـفات الموجود المطلق سواء كان ذلك في السلطة السياسية المطلقة للزعيم أو في السيطرة الاقتصادية المطلقة لـرأس المـال. وبالتالي تكون لدينا نظم تسلطية تقوم على القهر والطغيـان وعلى حق الفرد المطلق علـى حسـاب الشـعب، أو نظـم رأسمالية تقوم على إعطاء حرية الحركة المطلقة لرأس المال على حساب المسـتهلكين أو علـى حسـاب الاسـتثمارات الصغيرة أو على حساب العمال.. وهي النظم التـي تجعـل القمة في السياسة أو في الاقتصاد مصدر النشاط والحركـة والقيمة على حساب القاعدة المتلقية السالبة المـأمورة. هـذا

بالإضافة إلى أن هذا النوع من الإيمـان بـالوجود المطلـق الشامل يعطى الجماهير نوعا من الاستكانة بالارتكان عليـه والاعتماد على سلطانه. فإذا ضاع كل شيء فعلى الأقل يبقى شيء هو البقاء ذاته، وإذا ضاع الإحساس بالزمان وبالتاريخ، ولم يدر الإنسان متى أتى، وإلى أين ينتهي وفي أي مرحلـة من التاريخ هو يعيش فعلى الأقل هناك الدائم الذي لا أول له ولا نهاية والذي يضم الماضي والحاضـر والمسـتقبل، وإذا استعصى على الإنسان أن يجد له مكانا في العـالم ومحـلا يحط فيه فعلى الأقل هناك من لا يحتاج إلى محل أو مكـان، وإذا عجز الإنسان عن أن يدرك الأمور العينية نظرا للأقنعة التي فوق عينيه فعلى الأقل هناك الإدراك الغـامض لمـا لا شبيه له، وأن عدم الإدراك خير مـن الإدراك! فالموضـوع الذي لا يرى خير من الموضوع الـذي يـرى، والخـالص أشرف من الشائب. وإذا فقد الإنسان كل شيء فعلى الأقـل هناك شيء واحد لم يفقده هو الوحدانية ذاتها. ومن ثم يكـون الإنسان مفقودا وهو يظن أنه واجد نفسه، ويكون ضائعا وهو يظن أنه قد وصل إلى بر الأمان، كمن يفقد الحبيب فيحـب

الحب ذاته حتى يعوض فقده، ويحول خسارته إلى مكسـب، ويحيل ضعفه قوة.

وفي مقابل ذلك، هناك اتجاه آخر يجعل الإنسان هـو الموجود الذي لا يشك في وجوده أحد، ولا يقدر على إعدامه شيء، هو القديم بمعنى أنه حقيقة أزلية لا يمكن الشك فيهـا، وهو باق بمعنى أنه يستحيل عليه الفناء، وهو لا يحتاج إلـى محل لأن الإنسان موجود في كل مكان، والإنسانية لا يحدها زمان أو مكان، وهو لا يشبه شيئا ولا يشبهه شـيء؛ لأنـه يتجاوز الأشياء ويفارقها، ومن ثم، يقضى هذا الاتجاه علـى تشخيص أو تسكين أو تثبيت للذات، ويعيد للإنسـان أخـص خصائصه وهو الذاتية، وتتحول حياة الإنسان إلـى حركـة ونشاط وجهد ونضال بحياة الذاتية فيه وليس بمفارقتها.

وهذا هو موقف اليسار. فالنظم السياسية التي تتبنـى هذه النظرة تكون نظما إنسانية تقوم على الاعتراف بالإنسان كقيمة، لا فرق في ذلك بـين حـاكم ومحكـوم، أو رئـيس ومرءوس، أو غني وفقير، أو رجل وامرأة، فكل إنسان لـه ذاتية وليس فقط الحاكم أو الـرئيس أو المـدير، وغيـرهم الدهماء والغوغاء التي يكون لها الخبـز الأسـود ولغيرهـا

الأبيض، أو التي تحشر فـي المركبـات العامـة ولغيرهـا العربات الخاصة، أو التي تقطن في المساكن الشعبية ولغيرها الفيلات الخاصة.

وقد يحاول اليمين تفسير هـذه النزعـة الإنسـانية لصالحه فتنشأ النظم الليبرالية اليمينية التي تؤكد على إنسانية فرد واحد دون غيره، وتظهر الـنظم الرأسـمالية كوريـث شرعي لليمين الليبرالي، كما تنشأ النظم الغربية العنصـرية التي تؤكد على إنسانية الغرب دون غيره من الشعوب. ولكن اليسار الديني يكشف عن هذا التفسير اليميني لموقفه ويجعل الإنسانية عامة لا تخص فردا دون فرد، أو طبقة دون طبقة، أو شعبا دون شعب. ويمكن لليسار أن يعيد تفسير ما اعتمـد عليه اليمين لإقامة نظم القهر والتسلط خاصة لدى شعب يمر بمرحلة إيمان تقليدي لا يمكنه التخلـي عـن فكـرة الـذات الموجودة الأزلية الباقية وذلك بتفسير هذا المطلـق لصـالح الضعفاء، وتوجيه هذه القوة ضد الأقوياء، فالله موجود فـوق كل الوجود، بدل أن يستعملها الأقوياء ضد الضعفاء يستعملها الضعفاء ضد الأقوياء. وهو الأقرب للطبيعة. فالله أكبر فوق كل كبير، وليس الله أكبر فوق كل صغير، والله أقوى من كل

قوي، وليس الله أقوى من كل ضعيف، فالموجود المطلق هنا يكون لإعادة خلق المهدد وجودهم بالفناء ولإعادة وجـودهم من عدم.

٤- والذات الإلهية المتصفة بهذه الأوصاف الســت الماضية التي تشير إلى علاقة الذات بنفسها لها صفات أخرى تشير إلى علاقة هذه الذات بالعالم، وهي الصـفات الســبع المشهورة التي ورثناها من القدماء: العلم، والقدرة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، والإرادة. وهي صـفات مطلقـة مثل أوصاف الذات، ومشخصة بمعنى أنها تصف موجـودا حيا ذا علم وإرادة. ومن ثم تنتزع من الإنسان أهم صـفاته، أعني العلم والقدرة والحياة، فالسمع والبصر وسيلتان للعلـم، والكلام للتعبير والإيصال والمشاركة فـي الحيـاة، والإرادة لتنفيذ القدرة. فالإنسان موجود حي له علم ولـه إرادة أي أن الحياة لها جانبان: النظر والعمل. ولكن تحويـل ذلـك إلـى صنم عقلي ثابت جامد هو نوع من الوثنية اللاشعورية.

وهذا هو موقف اليمين. فالنظم السياسية التي تقـوم على هذا الأساس تعتمد على التأليه، تأليه الحكـام، وتأليـه الرؤساء، وتأليه القادة، فالقمة تحتوى على قيمة أكثـر ممـا

تحتوى القاعدة. القمة هي الكمال، والقاعدة هي النقص. القمة هي الحية العالمة القادرة دون القاعدة التي تتصف بالحـدوث أي الموت والجهل والعجز، وهي صفات الجمـاهير، صـم، بكم، عمي! وفي النظم الرأسمالية يتمتع رأس المـال بكـل مظاهر الحياة والعلم والقدرة، فهو رأسمال متحـرك نشـط يتمدد كالأخطبوط كما هو الحال فـي الشـركات المتعـددة القوميات، وهو عالم يسمع ويبصر، ويقوم علـى الترشـيد، وتوجيه الأسواق، وتحديد الأسعار.

أما الاتجاه الآخر فيحاول استرداد هذه الصفات التي هي أخص خصائص الإنسان. فالإنسان هو العـالم القـادر الحي الذي يسمع ويبصر ويتكلم ويريـد، وبالتـالي يتحـول الثبات إلى حركة، والتأليه إلى نشاط، والخارج إلى الداخل، والقهر إلى تحرر، فالإنسان لا يؤلـه إلا مـا يعجـز عـن تحقيقه، ولا يعبد إلا ما لا يستطيع أن يناله. إذا كان جـاهلا عبد العلم، وإذا كان عاجزا أله القدرة، وإذا كان ميتا عشـق الحياة، وإذا كان أصما أمل السمع، وإذا كان أعمـى رجـى البصر، وإذا كان أبكما تاق الكلام، وإذا كان عـاجزا تمنـى الإرادة. ولكن إذا تحققت غاية الإنسان في الحياة، وأصـبح

عالما، قادرا، حيا، سميعا، بصيرا، متكلما، مريدا فإنه يحقق صفاته بالفعل ويعود إلى عالمه بعد أن ظل مغتربا في عـالم آخر، منفصم الشخصية، حيث يكون في عالم الجهل والعجز والموت ويظن أنه بأشواقه قد نال العلم والقدرة والحياة.

وهذا هو موقف اليسار، ذلك أن النظم التقدمية تحاول أن تعيد بناء الإنسان عالما، حيا، وتقضي على مظاهر الجهل والعجز ومشارف الموت التي يتردى فيها الإنسان كل يـوم. فإذا انتشر التعليم تحقق العلم، وإذا قامت المؤسسـات التـي تجعل الشعب قادرا على ممارسة حقوقه السياسـية وعلـى توجيه السياسة والتخطيط لصالحه تحققت القدرة، وإذا كـان الشعب مستقلا متقدما تحققت له الحياة، وإذا كان هو صاحب الكلمة، ويسيطر على وسائل إعلامه أصبح سامعا، بصـيرا، متكلما، مريدا، ومحققا لرغباته.

قد يحاول اليمين استغلال الموقف اليساري لصالحه، وذلك بتحويل الصفات إلـى وقـائع حيـة ولكـن للأقليـة المسيطرة وحدها فهي العالمة القادرة، الحية التـي تسـمع، وتبصر، وتتكلم، وتريد. وما سواها يظل جـاهلا، عـاجزا، ميتا، أصما، أبكما، أعمى، لا يريد شيئا بل يتمنى أن يكـون

على خلاف ذلك بالوهم أو بالخيال. وتمني الأقلية الأغلبيـة، وتشيد لها المعابد لتأليه عالم التمني المشخص، وكلمـا ازداد التأليه ابتعدت الأغلبية عن المطالبة بحقوقها. وقـد تسـتغل العنصرية الحضارية أيضا هذا الموقف وذلك بجعل الغـرب وحده هو العالم، ويستحيل للشعوب الأخرى اللحاق بالشـعب الأول المختار، ولكن اليسار يعمم هذا التحقيق للجميع لا فرق بين أقلية أو أغلبية، وينفذ مشاريعه الفعليـة وبـرامج محـو الأمية للقضاء على الجهل، ويقيم الحزب الجماهيري من أجل الحفاظ على قدرة الجماهير وفاعليتها، ويحرص على وعـى الشعب، ففي وعيه حياته. وبإمكان اليسار الديني أيضا إعادة تفسير الموقف اليميني لصالحه وذلك بجعل هـذه الصـفات المثل الأعلى التي تشد الإنسان نحو تحقيقها، والتـي تكـون مقاييس لسلوكه، ومعيارا لما تحقق منها ومـا لـم يتحقـق بالفعل، وبالتالي تكون هذه المثل الغاية القصـوى للإنسـان وليست تسكينا، وتثبيتا، وتأليها، وإرضاء، وتحذيرا.

٥- فإذا انتقلنا من الذات والصفات إلـى الأفعـال يظهر أيضا موقفان: الأول يجعل أفعال الذات مطلقة وشاملة لا تحدها حدود، ولا تقف أمامها أفعال أخرى. ومن هنا تنشأ

عقيدة القضاء والقدر، وتثبيت أمر الله التكويني العام الذي يضم كل شيء، وإثبات أمر الله الذي يخص كل إنسان ويكيف حياته. فالإنسان جزء من هذا العالم، يسري عليه قضاء الله وقدره، وليس له قدرة مستقلة أو إرادة خاصة، وبالتالي فهو ليس صاحب قراره أو مصدر تدبيره. والكسب الأشعرى لا ينفصل عن الجبر في الحقيقة؛ لأن شرط الفعل الإنساني الحر هو إمكانية يولدها الله في الإنسان، فالفعل الإلهي مازال هو الشارط، والفعل الإنساني هو المشروط، ولولا حدوث هذا الفعل الإلهي لما تحقق الفعل الإنساني. الفعل الإلهي أشبه بمركبة صاعدة إلى قمة الجبل، والفعل الإنساني أشبه براكب دراجة يمسك بالمركبة. وليس هناك أي بقاء للفعل الإنساني في ذاته، فالفعل الإلهي يضمه أيضا ويحتويه، فالفعل الإلهي سابق على الفعل الإنساني، ومعه، وبعده، والفعل الإنساني ما هو إلا تابع لمتبوع. وكل ما يحدث في أفعال الشعور الداخلية من هداية أو ضلال أو توفيق أو خذلان يحدث بالفعل الإلهي. وكل ما يحدث في الخارج من تحديد للآجال والأرزاق والأسعار

يحدث بالفعل الإلهي وليس نتيجة للأوضاع الاجتماعية. وهذا هو موقف اليمين.

فإذا انتقلنا إلى النظم السياسية القرينة لوجدنا أيضـا نظما تؤكد على سلطة الفرد المطلق، وعلى قدرته الشـاملة، وعلى أولوية فعل الحاكم، وأن المحكوم بين إصـبعين مـن أصابع الحاكم يقلبه كيف يشاء. فالنظم الدكتاتورية هي التـي تروج لأفكار القضاء والقدر وهي التي توحي للجماهير بأنهم لا خيرة لهم في أمرهم إلى آخر ما تزخر به أمثلتنا الشعبية وأغانينا اليومية، وعبارات المآتم والأحـزان عنـدما تحـل المصائب، مطالبين بالصبر والعزى والسلوان.

والموقف الآخر هو الذي يثبـت حريـة الإنسـان، واستقلال إرادته، وأن الإنسـان خـالق أفعالـه، وصـاحب قراراته، وأن فعله أولي غير مشروط، وأن فعلـه أساسـي وليس تابعا، وهو موقف اليسار. فالنظم السياسـية التقدميـة تثبت حرية الإنسان وقدرته، وخلقه لأفعالـه، وأن للإنسـان قدرة واستطاعة فعلية سابقة على الفعل في صـورة رؤيـة وتدبر، وانتظار وتخطيط، ومع الفعل فـي صـورة باعـث ونشاط، وحركة وتحقيق، وبعد الفعـل فـي صـورة بقـاء

واستمرار لآثار الفعل إلى ما لا نهاية حتى أنه ليصبح سـنة يحتذى بها، وقدوة للأجيال القادمة. كما تؤكد أن الجمـاهير هي صاحبة القرارات وتصر على حق تقرير المصير، وحق التعبير، وحرية القول والعمل كتطبيقـات لحريـة الإنسـان وممارسته لها.

وقد يستغل اليمين حرية الإنسان لصالحه الخـاص. فالنظم الليبرالية تقوم أساسا على تأكيد حرية الإنسـان فـي شتى مظاهرها، ولكنها حرية الأقلية ضد الأغلبية، وحريـة ممارسة الجنس، وارتكـاب العنـف والجريمـة، والسـلوك الفوضوي الشامل، كما قد تكون إعلانـا لحقـوق الإنسـان، وتأكيدا لحرياته في الغرب وحده، أما الشعوب الأخرى فهي غير مؤهلة إلا للتبعية والطاعة والتقليـد. ولكـن الموقـف اليساري هو الذي يقرن الفعل الحر بالمسئولية، فتكون أفعال الإنسان ملتزمة بقضايا الواقع، ومحققة لبرامج تطويره. وقد يحاول اليسار تفسير الجبريـة أو عقيـدة القضـاء والقـدر لصالحه خاصة في شعوب مازالت أسيرة التقاليد، وطائعـة للموروث. وذلك بإثبات الشجاعة المطلقـة، والتأكيـد علـى الدور البطولي للإنسان، فإذا كان الموت مكتوبا فلم العـيش

في الضيم؟ وهذا ما حاوله الأفغاني من قبل من إعادة تفسير عقيدة القضاء والقدر على أنهـا رفـض للمذلـة والهـوان، وإطلاق لقوى الجماهير الحبيسة، وزعزعـة الخـوف مـن نفوسها. فهذه العقيدة لا تؤدي إلى القبول بل إلى الـرفض، ولا تبعث على الاستكانة والرضا بـل تثبـت روح الثـورة والنضال.

٦– ولما كان كل دين يقوم على وحي شفوي ثم يتم تدوينه إما مباشرة أو بعد عدة أجيال أو تكثر - نشأت مسألة سلطة الكتاب وصلته بسلطة العقـل، وهـي مسـألة العقـل والسلطة، وباصطلاحاتنا القديمة مسألة العقل والنقل. ونجـد هنا أيضا موقفين: الأول يجعل السلطة سابقة علـى العقـل، والعقل تابعا للسلطة، والثاني يجعل النقل أساسا للعقل، والعقل تابعا للنقل. ويترتب على ذلك إهدار للعقـل وهـو القاسـم المشترك بين الناس وإنكار بداهته وحدسه وأولوياتـه وهـي أساس العلم وبداية المعرفة والارتكان إلى بداية أخرى أقـل يقينا وذلك لأنها نصوص مكتوبة، قد تكون صحيحة تاريخيا وقد تكون محرفة لأنها نصوص مكتوبة باللغة وخاضعة في فهمها لقواعد اللغة ومناهج التفسير وقد تكون مكتوبة بغيـر

لغتها الأصلية. مما يسبب ضياع المعنى الأولـي المقصـود للكلمات، ويختلف فهم الناس للنصوص، فكل لغـة تحتـوي على الحقيقة والمجاز، الظاهر والمؤول، المحكم والمشـابه. ولا يوجد نص واحد حتى ولو كان صريحا لا يختلف عليـه اثنان. وهذا طبيعي نظرا لأن التفسير يعنى التعبير عن النص من خلال تجربة حية للإنسان، يعيش في زمان معين ومكان محدد، ولا يوجد فردان متشابهان تماما في كل شيء. كما أن التفسير يخضع لأهدافه والغاية منه ولمضمونه ومادته، فقـد يتم التفسير لصالح الأقلية ضد الأغلبية، كما قد يتم لصـالح الأغلبية ضد الأقلية. وقد يظهر تفسير رأسمالي للدين وآخـر اشتراكي له، ومن ثم كان النص تابعا للموقـف الاجتمـاعي ولوضع المفسر وأهدافه، وانتمائه وولائه. وهذا ما يفسر لنـا تعارض النصوص وهو في الحقيقة اختلاف فـي المواقـف التي تستعمل فيها هذه النصوص. فالموقف الذي يجعل النقل، بكل شبهاته ومخاطره ومظناته هذه، أساسا للعقل هو موقـف اليمين حتى يلتبس الباطل بالحق، وتضيع حقوق الشعوب في متاهات المفسرين وتضارب وجهات النظر، مادام كل شـيء فيه قولان، ولا يرجع أحد لبداهة الجماهير بالتبعية للسـلطة

دون إعمال العقل، والتبعية لسلطة الكتاب المقدس هي أسرع الوسائل وأكثرها فاعلية، تستعملها السلطة السياسية من أجل توجيه الجماهير نحو التبعية لها. فكلاهما سـلطة، فالتبعيـة لسلطة الكتاب المقدس هو بمثابة التأهيل النفسي لتبعية السلطة السياسية، والجماهير التي تتأهل نفسيا على التبعيـة ويقـوم بناؤها النفسي على التبعية تتبع أي شيء. فأولوية النقل على العقل تحمي النظم الرجعية من استعمال الجمـاهير لوسـائل البحث أو السلطان أو صاحب رأس المال أو المدير أو لهـا، وتفسح المجال للسلطة السياسية لاختيار نوعية المتبوع الذي قد يكون الله أو الأمير أو الملك أو السلطان أو صاحب رأس المال أو الرئيس.

في مقابل ذلك، هناك موقف آخر يجعل العقـل هـو الأساس، وسلطة الكتاب تقوم على هذا الأساس تجعل للعقـل الأولوية على النقل، وذلك لأن العقل يـؤدى إلـى اليقـين ببديهياته وأولياته، وبراهينه واستقراءاته في حين أن النقل لا يؤدي إلا إلى الظن بروايته وتفسيراته ومناطه "لمـن يـتم التفسير؟" وأن الظن لا يغنى من الحق شيئا. ولو تضـافرت كل الحجج النقلية على شيء فإنه يظل ظنيا، ولا يتحول إلى

يقين إلا بحجة عقلية. كل من يبدأ بقوله: قال الله وقال الرسول فإنه لا يبغي مصلحة الناس في حين أن كل من تحدث بحديث العقل، وأعطى إحصاء دقيقا للواقع فإنه يدافع عن مصلحة الناس، مستعد لمقارعة الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان. والإحصاء حجة دامغة لأنه دليل الحس والمشاهدة، وهو يقين مثل يقين العقل. وهذا هو موقف اليسار، إذ تعتمد النظم التقدمية على المبادئ العقلية الشاملة، وهي في نفس الوقت قوانين المجتمع ومسار التاريخ.

وقد يستغل اليمين هذا الموقف لحسابه فيعتمد على العقل لترشيد مصالح الأقلية، لتنظير توظيف رأس المال ولتبرير الوضع القائم وصور الاستغلال والاحتكار، ولكن العقل هنا لا يكون هو العقل البسيط بل يكون هو الهوى والمصلحة أو العنصرية التي لا يؤيدها العقل أو التجربة ولكن حرص اليسار على بداهة العقل وشموله وموضوعيته ضمان لعدم استغلال اليمين له. كما يمكن لليسار إعادة تفسير النقل لصالحه خاصة في مجتمع مؤمن بالنصوص، ويعتمد على العقل، ولكن النصوص يتم تفسيرها لصالح الطبقات

الكادحة، ويتم التفسير كله طبقا لحاجات العصر ومتطلبـات الواقع كعامل مساعد لدليل العقل وبرهان التجربة.

ويرتبط بموضوع العقل والنقل تصورات وتطبيقـات تنتج عنهما مثل موضوع الخير والشر أو كما يقال باصطلاح القدماء الحسن والقبح وموضوع الصلاح والأصلح، ومسـألة الغائية في الكون. وهنا نجد أيضا موقفين: الأول يجعل الخير والشر من الله وجودا وحكما بمعنى؛ أن كل شيء فـي هـذا العالم خيرا كان أم شرا من فعل الله وليس من وضع البشر، وأن الحكم على ذلك بأنه خير، وعلى ذلك بأنه شر يأتي من الله أيضا بأوامره ونواهيه، فالشيء خير لأن الله أمر به وشر لأن الله نهى عنه. وكل شيء في هذا العالم بخيره وشـره لا يخضع لقانون. ولا ينبغي مصلحة ولا يهدف إلى غاية بـل من فعل الله حيث لا تعليل لأفعاله بمصالح العباد، ولا تبرير لها برعاية الصلاح والأصلح. وهذا هو اليمين فـي الفكـر الديني، ويتحول ذلك في السياسة إلـى أيديولوجيـة اليمـين الرجعى الذي يجعل من الخير والشر وضعين كونيين لا حيلة للإنسان فيهما حتى يمكن تبرئة النظام الرأسمالي من الشرور والآثام، وجعل الفقر والاستغلال وضعين طبيعين في الكـون

لا غرابة فيهما، ولا تجوز الثورة عليهما. ولا يوجد نظام يرعى مصلحة الناس إذا لا يوجد صلاح أو أصلح بل توجد أوضاع لا عقلية لا يمكن فهمها: كما أن الكون لا الناس هو المسئول عن الشر. أما الناس فإنه يمكن السيطرة عليهم وإبعادهم عن التساؤل وفهم الأسباب وربط العلة بالمعلول.

وفي مقابل ذلك، هناك اتجاه آخر يجعل الخير والشر وضعين اجتماعيين من صنع الإنسان، نتيجة لفعل داخلي في العالم وليس نتيجة لفعل خاص خارجي عن العالم وأن الإنسان هو المسئول عن ذلك، والإنسان هو واضع النظام الاجتماعي، ومن ثم هناك ذنب وإدانة وليس حكما ببراءة العالم ومسئولية الله، بل حكم بمسئولية الإنسان وبراءة الله. ومن ثم كان واجب الإنسان وقضيته الأساسية هي في تغيير الشر إلى خير، وفي درء الشرور واستجلاب الخير، وبالتالي تتحرك الجماهير وتتحزب، وتمارس حقها السياسي وتتحمل مسئوليتها القومية. وهذا العالم يهدف إلى رعاية الصلاح والأصلح، فالأصلح أن يشارك العامل في رأس المال والأصلح أن تكون الأرض لمن يفلحها، والأصلح الملكية العامة لوسائل الإنتاج، وبالتالي يمكن تغيير المجتمع،

ونقله من وضع حسن إلى وضع أحسن، ومن نظام صالح إلى نظام أصلح. كما أن هذا العالم يسير وفقا لغاية، يمكن للإنسان إدراكها والسيطرة عليها لصالحه، فهو عالم غائي لا صدفة فيه، ولا تحدث فيه وقائع خبط عشواء. وهذا هو موقف اليسار.

تدخل الموضوعات الأربعة الماضية، الذات والصفات، والأفعال بشقيها "خلق الأفعال، والعقل والنقل" ضمن الإلهيات التي تشمل نظريتي التوحيد والعدل أو ضمن العقليات وهي الأمور التي يمكن الوصول فيها إلى يقين عقلي والتي تعتمد على برهان العقل بالإضافة إلى برهان النقل والتي يكفر فيها منكروها أعنى وجود الله ووجود الإنسان من حيث هو إرادة حرة وعقل مستقل قادر على التمييز بين الخطأ والصواب. أما الموضوعات الأربعة التالية: النبوة، والمعاد، والأسماء والأحكام، والإمامة فإنها تدخل في نطاق السمعيات التي لا يمكن الوصول فيها إلى يقين عقلي والتي لا يعتمد فيها إلا على النقل وحده، ومن ثم فهي ظنية لا يكفر منكروها.

وهنا أيضا يبدو موقفان: الأول موقف اليمين الديني الذي يحاول الجمع بين المجموعتين فيرد العقليات "الإلهيات" إلى السمعيات، هادما الأساس العقلي اليقيني الذي تعتمد عليه ظانا أنه بذلك يدافع عن عقائد الدين وهو في الحقيقة يزايد فيه. ولا يدرى أنه بإرجاع العقليات إلى السمعيات إنما يرجع اليقين إلى الظن. هادما ما بناه القدماء. ثم يجعل اليمين الديني السمعيات كلها التي شملت كل شيء تقريبا يقينيات يكفر منكروها أو المختلفون في تفسيرها، وهو بهذا يساوى الله، وهو اليقين بأمور المعاد وهي الظنيات مزايدة في الدين، ومغالاة فيه، وتنطعا لا يرضاه المتدينون ولا العقلاء على حد سواء. هذا هو موقف اليمين إذ تحاول النظم اليمينية الرجعية إرجاع كل المسائل إلى الدين، وترى في معاناة الشعب ومآسيه غضب الله وانتقامه، وتقسم الناس إلى مؤمنين وكفار، وتخلط بين الأهم والأقل أهمية حتى يظل سيف الدين دائما مسلطا على الرقاب، فيخشى الناس الحركة إما لفهم الأمور النظرية أو للتحرك العملي من أجل المطالبة بالحقوق.

وفي مقابل ذلك، هناك اتجاه آخـر يحـاول توسـيع نطاق العقليات ومدها حتى يشمل اليقين الظن ويحتويه مـن أجل الحصول على اليقين أيضا في السمعيات حتى يطمـئن الناس إلى مسائل النبوة والمعاد وحتى يعلموا حقيقة الإيمان وواجبات الحاكم وشروطه. وهي موضوعات مهمة للغاية في عصر نرى الفصل فيه بين الإيمان والعمل، ونـرى حيـرة الناس فيه وشقاءهم في نظمهم السياسية الحاليـة، وتسـاؤلهم عن السلطة السياسية ومدى شرعيتها في البلاد. وهـذا هـو موقف اليسار، إذ تحرص النظم السياسية التقدمية على إبراز أهمية العمل، وأولويته على المنظر، كما تحرص على إبراز المشكلة السياسية وكيف أنها هي مفتاح المشـاكل الأخـرى، فالأولويات في التخطيط قرار سياسي وليس اقتصاديا، ومحو الأمية قرار سياسي وليس مجرد إمكانيات مادية.

٧- ولما كان كل دين يقوم على وحي وكل وحـي يوحى إلى نبي كان موضوع النبوة هو الموضوع الخـامس في علم أصول الـدين القـديم بعقلياتـه وسـمعياته، وأول موضوعاته السمعية. وهنا يبدو موقفان: الأول يجعل النبـوة ضرورية، وأنه لا قوام لحياة الناس دون نبوة، وأن الإنسـان

قاصر عقلا عن إدراك مصالحه، وعاجزا واقعا عن توجيـه أموره، ومن ثم فهو يحتاج إلى وصايا من الخارج، وإلا ظل كالحيوان ينعق وينهق أو أضل سبيلا. ودليل صـدق النبـوة دليل خارجي هو المعجزة بمعناها التقليدي أي خرق قـوانين الطبيعة، وقلب الحجر ذهبا والعصى ثعبانا. وهذا هو موقف اليمين، إذ تقوم النظم اليمينية الرجعية بتدعيم هـذا الاتجـاه، وتقوم عليه لأن الإنسان فيها قاصر عـن إدراك مصـالحه، ومحتاج إلى توجيه ووصاية من الحاكم أو من المدير أو من الرئيس أو من الشيخ... ومن ثم يصبح الإنسان آلة طيعة في يد قوي تسيره كيف تشاء، ولا ضامن لهـا ولا مراجـع أو رقيب عليها. وكما يقوم النبي بـالمعجزات يقـوم الـزعيم السياسي أو صاحب رأس المال بمعجزات مشـابهة، يهـزم الزعيم العدو في ساعات، ويحل المؤسسات ويعقـدها فـي غمضة عين، فتثق في أقواله الجماهير، وتعطيه الثقـة كـل الثقة، ويشيد صاحب رأس المـال المصـنع فـي أسـابيع، يضاعف الربح في ساعات، ويسيطر على السوق في دقائق، ويقيل الحكومات ويؤلفها في ثوان.

وفي مقابل ذلك، هناك اتجاه آخر يرفض كل أشكال الوصايا على الإنسان، ويجعله مستقلا قادرا لا يحتـاج إلـى عون خارجي نظري أو عملي، ويضع الإنسان فـي تطـور التاريخ. كان الإنسان قبل آخر مرحلة من مراحـل الـوحي قاصرا عن إدراك الأمور النظرية، وعـاجزا عـن تحقيـق مطالبه العملية، ومن ثم كان ظهور الأنبياء ضرورة حتميـة تحتمها ظروف العصر في مراحل التاريخ السابقة، وكانـت الأنبياء تظهر في كل عصر، وكان لكل قوم نبي، وكل نبـي يدفع بالتقدم الإنساني خطوة إلى الأمام ثم يتلوها نبـي آخـر يدفع التقدم خطوة أخرى حتى إذا ما تحقق استقلال الإنسـان وكماله من الناحيتين النظرية والعملية، وأصبح قادرا علـى إدراك الأمور بعقله، وتحقيقها بعمله، توقف ظهور الأنبيـاء، وأصبحت النبوة غير ضرورية. كانت ضرورية في الماضي وأصبحت غير ضرورية في الحاضر بـدليل توقفهـا فـي المستقبل. والدليل على صدق النبوة لـيس خرقـا لقـوانين الطبيعة، فقوانين الطبيعة ثابتة ومطردة حتى تستقيم أحـوال الناس، ويثقون بالعالم الذي يعيشون فيه بل هو دليل داخلـي محض، وذلك عن طريق التصديق بالوحي، وإيجاد البراهين

العقلية والحسية على صدق محتواه، وفاعلية مضمونه، وأثره في إصلاح أحوال الناس، وتدبير أمور معاشهم، وهـذا هـو موقف اليسار، إذا لا تحاول النظم التقدمية فرض أية وصايا على الإنسان أو أن تعتبر الجمـاهير قاصـرة عـن إدراك حقوقها بل على العكس من ذلك يتعلم الإنسان من الجماهير، ويتخلص من وصايا التعليم الحضري وأفكاره المسبقة، فـلا ضمان إلا الشعب، ولا مراجع إلا المؤسسات الديمقراطيـة، ولا حارس إلا الحزب، عصب الجماعة.

والحقيقة أن اليمين يؤمن بهذا الاستقلال للإنسان في عقله وإرادته ولكنه يستغله لصالح الحاكم أو لصالح صاحب رأس المال أو لصالح الأقلية المسيطرة، أمـا فيمـا يتعلـق بالعامة أو ما يطلق عليه اليمين الدهماء أو الغوغاء فتفـرض الوصايا عليهم، وما أسهل فرض الوصايا باسـم الأنبيـاء! ولكن يستحيل على اليسار أن يعيد تفسـير موقـف اليمـين لصالحه لأن فرض الوصايا النظرية والعملية علـى النـاس موقف فاضح لا يمكن إعادة بناءه، اللهم إلا من التأكيد علـى أهمية الأيديولوجية للناس، فالدين بقاموس العصر السياسـي هو الأيديولوجية، والإنسان بلا أيديولوجية إنسان مائت، ولكن

الأيديولوجية ليست وصايا مفروضة على الإنسان بـل هـي تعبير نظري عن واقعه، وتنظير مباشر لاحتياجاته، وتحقيق على مستوى الفكـر لمتطلباتـه: وتخطـيط دقيـق لكيفيـة الممارسة، وتحقيق هذه المتطلبـات بالفعـل، أو أن تكـون الوصايا من القواعد الجماهيرية على قيادتها وبالتالي تأخـذ معنى الرقابة والمراجعة.

٨- وإذا كانت النبوة تتناول ماضي الإنسـان علـى الأقل فإن موضوع المعاد قد يكون هو الموضوع الأساسـي في السمعيات، فـلا يوجـد ديـن إلا ويتنـاول موضـوع الأخرويات إجابة على سؤال: ماذا يحـدث للإنسـان بعـد الموت؟ أو سؤال: ماذا آمل؟ وهنا يبدو موقفان: الأول: يجعل الله هو الذي يميت وأن الموت حادث بقضـاء الله وقـدره، وواقع بفعل الله وليس بفعل الأمراض وحوادث الطريـق أو الاغتيالات. والموت يفترض قسمة الإنسان إلى قسمين: بدن ونفس، الأول فان، زائل، لا قيمة له، يتحلل إلـى تـراب، والثاني باق، خالد، تتم به التزكية، وينتظر الحساب. وتبـدأ الرحلة بعذاب القبر ونعيمه، ولا ندري هل يتم ذلك بالبـدن الذي يتحلل أم بالروح التي صعدت إلى بارئها؟ ثم تبدو وقائع

الحساب، وإثبات الجنة والنار، كواقعتين حسيتين، مع إثبات الميزان والصراط، والحوض، ومنكر ونكير، وعلامات الساعة مع انشقاق القمر وشروق الشمس مع مغربها وغروبها من مشرقها، ويأجوج ومأجوج، وخروج الدابة، والمسيح الدجال. فإذا تم الحساب فإنه يحدث طبقا لإرادة القاضي الذي لا يخضع لقانون العدل بل بناء على رحمته، قد يعفو عن المسيء، وقد يعاقب المحسن، ولا راد لقراره. فإذا تم الثواب فإنه يحدث طبقا لأعمال الفرد، وينال الفرد ثوابه، وتتفاوت الجنة في الدرجات ويعيش كل إنسان فردا، كل حسب درجته في الثواب، فهناك منازل وقصور تتفاوت فيما بينها في العظمة والثراء. وهذا هو موقف اليمين المادي، إذ تعتمد النظم اليمينية الرجعية على أمور المعاد لترغيب الناس في مستقبل ليس لهم في الحاضر، وتمنيهم بعالم من الرفاهية ورغد العيش حرموا منه في هذا العالم، فيجد المحرومون تعويضا نفسيا مما حرموا منه ويتشوقون إلى ما لم ينالوه، وبالتالي تطمئن النظم السياسية إلى وضعها الحالي، وإلى استكانة الناس، وإلى رضاهن بالوعود المستقبلة مادامت لن تتحقق في هذا العالم. فيستغل صاحب رأس المال ويحتكر

ويسيطر، وهو مطمئن البال إلى استتباب الأمـن وانتظـار الناس اليوم الموعود!

وفي مقابل ذلك، هناك موقف آخر، يجعـل المـوت واقعا بأسبابه المباشرة مثل الأمراض، وحـوادث الطريـق، والاغتيالات، والحروب، وبتغيير الواقع تقل أسباب المـوت ويحيا الإنسان، فالواقع يمكن تغييره إلى واقع أفضل، والموت يمكن الإقلال من نسبته بالقضاء على الأمـراض، وتنظـيم المرور، ونشر السلام الداخلي والخارجي، أما الإنسان وحده فإنه وحدة لا انفصام لها لا يهم تسميته بدنا أم نفسا أم جسما أم شعورا أم حياة أم روحا. بل أن بقاء البدن لأجدى علـى الإنسان المتخاف من بقاء النفس، فالبدن هـو الـذي يميـت النفس ويقضي عليها، والإنسان يموت بسبب مرض بدنـه، وفقر بدنه، وإهمال بدنه، وحشر بدنه، وتحويله إلى شـيء طبيعي. وكيف يكون البدن فانيا ونثبت أن النفس لا تفنى؟ أما ماذا يحدث بعد الموت فإن كل ذلك تصوير فني ومجاز عن عالم الأمل الذي يعيشه الإنسان، ثقة منه في عالم أفضل من أجل تغيير هذا العالم وليس من أجل تثبيـت الـنظم القائمـة تعويضا عن حرمـان. وأن المسـيء سـينال عقابـه، وأن

المحسن سينال ثوابه، وأن العمل وحده هو مصـدر القيمـة. قيمة الإنسان، وأن اللغة بمجازها أقدر على تصوير المعاني وإيصالها لأكبر قدر ممكن من الناس بصرف النظـر عـن مستويات تعليمهم ودرجات ثقافتهم، والتأثير في نفوسهم مـن أجل توجيه السلوك. وسيتم الحساب طبقا لقانون العدل، كـل حسب عمله وليس طبقا لقانون الرحمة وتبعا لإرادة القاضي، فالمسيء لابد وأن ينال عقابه، والمحسـن لابـد وأن ينـال جزاءه. ولا يعنى ذلك بالضرورة وجود درجات في النعـيم، ومنازل صغيرة، وقصور شامخة، بل قد يأتي الخلود للعمـل وللجماعة من خلال آثار الإنسان وصـفته الحميـدة علـى الأرض، وذكراه الطيبة التي يتركها في نفـوس الآخـرين. وهذا هو موقف اليسار، لذلك نجد الحركات الثورية حركات مستقبلية تؤمن بأن الخلاص لابد وآت في النهاية. وفرق بين أن يستغل اليمين هذا البعد الإنساني، وهذا الشـوق للأمـل، والتطلع إلى عالم أفضل من أجل تخدير النـاس، ووعـدهم بسراب وبين تحقيق اليسار لهذا الأمل بالفعـل، فـي حيـاة الناس، وفي هذا العالم.

٩- ولما كانت الأخرويات تعني أن العمل وحده هو مصدر القيمة فإن موضوع الأسماء والأحكام يصبح أصـلا من أصول الدين، وتعني الأسماء والأحكام معـاني الإسـلام والإيمان، وأحكام الكفر والفسوق والنفاق. ويكن السؤال: مـا الصلة بين الإيمان والعمل؟ وهنا يبدو موقفان: الأول يجعـل الإيمان مجرد الشعور الباطني وهو إيمان عامة الناس الـذي لا يتحول إلى فكر أو إلى قول أو إلى عمـل، أو يجعـل الإيمان مجرد القول والنطق بالشـهادتين ولا نـدري مـاذا وراءهما من شعور أو فكر وماذا يتلوهما من عمـل وهـو إيمان المنافقين. ويكتفي هذا الموقـف بأنصـاف الحلـول، فالشعور الباطني كاف، والإيمان العقلي كاف، والقول كاف، والمطالبة بالعزيمة شيء بعيد المنـال، ويكفـي فـي ذلـك الرخصة! وهذا هو موقف اليمين، فالنظم الرجعية لا تطلـب من الناس أكثر من شعورهم الباطني حتـى تـأمن ألسـنتهم وأفعالهم لأنهم إذا تحدثوا فضحوا، ودافعوا عن حقوقهم، وإذا عملوا ثاروا ضد الظلم الواقع عليهم، ولا تطلب من المثقفين أكثر من الإيمان العقلى، وهو نوع من الترف الفكري تـأمن به هذه النظم ثورة المثقفين إذا ما هم تحدثوا وعبـروا عـن

فكرهم، وإذا هم عملوا على قيادة الجماهير المضطهدة. لا تطالب هذه النظم بأكثر من التلفظ بالشهادتين حتى يظن الناس أنهم مؤمنون بمجرد القول خاصة إذا كان قولا فارغا بلا مضمون. ويصبح النفاق الديني هو أسلوب الممارسة في النظم اليمينية الرجعية ويصبح الاستغلال هو الأساس. فتقام الشعائر الدينية من أجل التعمية والتغطية على ما يدور في الواقع، والتستر على ما يحدث في حياة الناس.

وفي مقابل ذلك، هناك موقف آخر يجعل الإيمان والعمل وحدة واحدة لا انفصام لها، وأن من لا عمل له لا إيمان له، وأن الإيمان الذي لا يتحقق في صورة أعمال لا يكون له وجود، فالعمل هو جوهر الإيمان. ولا توجد أنصاف حلول، فالإيمان بلا عمل لا وجود له، وإيمان بلا شعور داخلي أو تصديق عقلي أيضا مجرد عاطفة هوجاء، والإيمان بلا قول يجهر بالحق إيمان ذليل مهان. وهذا هو موقف اليسار، إذ تعطي النظم التقدمية الأولوية للعمل على النظر، وتنقد المثقفين الذين يكتفون بالتصديق العقلي دون ممارسة فعلية، وتجند الجماهير من أجل المطالبة بحقوقها قولا وعملا. ومعروف عن هذه النظم أنها من أنصار الحلول

الجذرية في السياسة. ولا ترضى أنصاف الحلول أو المساومة على حقوق الطبقات الكادحة أو الموالاة للطبقات المستغلة.

وقد يحاول اليمين استغلال موقف اليسار الجذري ولكنه يقصره على صاحب رأس المال أو على الحاكم وحده، فللأقلية المسيطرة وحدها أن تنفذ وعيدها وأن تعمل بما تقول، وتنفذ ما تقرر في سيطرتها على الطبقات الكادحة، وتحكمها في أرزاقها. ويمكن لليسار أيضا إعادة تفسير موقف اليمين لصالحه في بداية الثورة، والناس لم تتعود بعد عليها وعلى متطلباتها، فالمتعاطف مع الثورة مقبول، والذي يؤيدها بفكره يساهم، والذي يدافع عنها بالقول يشارك وينصر، والذي يضع فيها عقله وقلبه وقوله وعمله هو الثائر المناضل حقا، فتبعا لمراحل التحقيق الثوري يمكن مطالبة الجماهير بالتزامها على قدر طاقاتها الثورية حتى تنتصر الثورة. حينئذ لا يطلب بأقل من وحدة الداخل والخارج، وهي وحدة الشعور والفكر مع القول والعمل.

١٠- وبعد العمل الفردي يأتي العمل الجماعي، ويظهر موضوع السياسة كآخر موضوع تقليدي في علم

أصول الدين القديم. ويظهر موقفان: الأول موقـف اليمـين الذي يجعل السياسة ملحقا لعلم أصول الدين، وليست أصـلا من أصوله كالتوحيد والعدل، فهي أقرب إلى الفقه والشريعة منها إلى أصول العقائد النظرية، مما يهبط حمـاس النـاس السياسي لما كانت السياسة فرعا لا أصلا، وكأن الدين هـو العقائد، والعقائد لا شأن لها بحياة الناس وصلبها في السياسة. فمادام الناس قد آمنوا فلا تهم نظمها السياسية، فقد خلـق الله الجن والإنس لعبادته وليس لإقامة شريعته، وهـو الموقـف الذي يجمد الدين، ويحصره في العبادة، ويستل السياسة من الممارسة اليومية للمؤمنين، فقد لعن الله ساس ويسوس! وهذا يسمح للنظم اليمينية الرجعية أن تفعل مـا تشـاء، تصـول وتجول، فهذا ليس من اختصاص الله ولا من حق المؤمنين!

وهو أيضا الموقف الذي يجعل المشكلة السياسية كلها مركزة حول شخص الإمام أو الزعيم، خصـاله وصـفاته، فضائله ومحامده، آثاره ومناقبه إذا صلح الراعـي صـلحت الرعية، وإذا حضر الإمام حضر المأمومون. أما المؤسسات الدستورية مثل بيت المال، والخراج، والحسـبة، والقضـاة، والولاية، وحق الشعب في الرقابة فلا يدخل ذلك كلـه فـي

موضوع السياسة، فقد انحصرت السياسة في شخص الإمـام كما تنحصر العبادة في ذات الله، وكما ينحصر الـدين فـي الإيمان بالله. وكما قال الفارابي من قبل سواء كنت أذكر الله أو الرئيس فإنني أعنى شيئا واحدا! وتقـوم الـنظم اليمينيـة الرجعية باستغلال ذلك أحسن استغلال فتؤله الزعماء، وتذكر محامدهم، وتنشد لهم، ويرقص ممثلو الشعب طربا ومرحـا، يحمدون الله على سلامة الزعيم حتى ولو انهـارت الـبلاد، واحتلت أراضيها، وانتهكت سيادتها، وطعن شرفها.

وهو الموقف أيضا الذي يجعل الإمام من قبيلة معينة وليس بناء على التزامه بمبادئ سياسية أو ببرنامج اجتماعي وكأن الانتساب العرقي أو السلالة الوراثية تشجب الالتـزام والتعهد بالبرنامج. لذلك كانت النظم الملكية والوراثية أقـرب إلى النظم اليمينية من النظم الجمهورية والشعبية.

وهو الموقف الذي يجعل الحـاكم بـالتعيين ولـيس بالانتخاب، ويكون دور الجماهير التبعية والـولاء، والسـمع والطاعة، فالحاكم لا يخطئ ولا يضل؛ لأنه حاكم بـأمر الله عصمه من الخطأ ووقاه من الزلل، فتسلم الجماهير له أمرها كي يقودها إلى بر الأمان!

وهو الموقف الذي يعد الناس بالنصر في المستقبل وتحمل آلام الحاضر، وأن القائد لابد وأنه آت وإن اختفى اليوم خوفا على نفسه في وقت لم تختمر فيه الثورة بعد وتنتظر الجماهير جيلا بعد جيل، وتتحمل آلامها عصرا بعد عصر والقائد لم يظهر بعد!

وفي مقابل ذلك كله، هناك موقف آخر يجعل من السياسة أصلا لا فرعا، وأنها هي المحققة لأصول الدين، وأن الله والشعب صنوان، فصوت الله هو صوت الشعب، وأنه لا يمكن تصور الله بدون أمة، وخلافتها له. ويكون التوحيد حينئذ هو التوحيد بين النظام الإنساني والنظام الإلهي في حاكمية الله من خلال الدستور، وعدم الرضا بهذا الفصم بين شريعة الأرض وشريعة السماء. لذلك تحاول النظم التقدمية بقدر وسعها تحقيق نظام عادل تذوب فيه الفوارق بين الطبقات، وتقوم على الملكية العامة لوسائل الإنتاج منعا للاستغلال وللاحتكار، وتضع أهدافها، وبرامج تنميتها محاولة تحقيقها، والوصول إليها.

وهو الموقف الذي يجعل الفكر السياسي يدور حول بناء المؤسسات الدستورية، وإعلان استقلالها. ومن ثم، كانت

النظم التقدمية ضد عبادة الأشخاص، الزعماء ترحل، والشعوب تبقى. والمؤسسات القوية لا يستطيع أي حاكم إفسادها. بل أنها قادرة على عزل الحكام والولاة، فصلاح الراعي بصلاح الرعية.

وهو الموقف الذي يجعل ولاء الحاكم للمبادئ، والتزامه بالدستور بصرف النظر عن انتسابه الطبقي أو نسبه القبلي، فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى. الحكم للمبادئ، لا للأشخاص، وما الأشخاص إلا ممثلة لسلطة تنفيذية خالصة لا تشريعية ولا قضائية.

وهو الموقف الذي يجعل الحاكم بالانتخاب المباشر أو غير المباشر، من أهل الحل والعقد والذي يرفض كل مظاهر التعيين سلما أو قوة، بقرارات أو انقلابات. لذلك كانت النظم التقدمية ديمقراطية بطبيعتها، يمارس فيها الشعب حقوقه.

وأخيرا هو الموقف الذي يحقق الاستقلال الوطني، والعدالة الاجتماعية الآن دون انتظار لظهور المخلص في المستقبل. إذ يستطيع الشعب بعد تجنيد قواه، وبقيادة طلائعه أخذ حقوقه من الغاصبين، سواء من الخارج أو في الداخل.

فالثورة ممكنة في الحاضر، والجماهير هي صانعتها، ولهـا الحق في مراجعة القادة ومحاكمتهم وعزلهم، فهم مخطئـون ولا عصمة لأحد. وهذا هو موقف اليسار.

وقد يستغل اليمين موقف اليسار مـن أجـل تقليـب الطبقات بعضها ضد البعض الآخر، وضرب طبقات الشعب بعضها بالبعض حتى تتم لها السيطرة على الجميـع، ولكـن اليسار بأسلوبه في إقامة الوحدة الوطنية يمكنه الوقوف أمـام انتهازات اليمين. كما يمكن لليسار إعادة تفسير موقف اليمين خاصة إذا كان الشعب متطلعا إلى شخصية زعامية قياديـة تثق فيها الجماهير، ولكن درءا للأخطـار يمكـن تأسـيس القواعد الشعبية للمراجعة، والتأكيد على الأسلوب الديمقراطي في الممارسة.

١١- وبعد العمل الجماعي يأتي العمل التاريخي أي العمل الجماعي عندما يتراكم على مر الزمان، ويعبر عـن وجود الجماعة في التاريخ. وهنا يبدو أيضا موقفـان: الأول موقف اليمين الذي يقف عند حد العمل الجماعي دون تنـاول موضوع الأمة في التاريخ، وبالتالي يسـقط التـاريخ مـن حسابه. ولذلك تعمل النظم اليمينية الرجعية على طمس معالم

التاريخ، وعلى إبعاد الشعب عن مساره، وإلـى اتهـام كـل الحركات الوطنية في التـاريخ بأنهـا قلاقـل ومشـاغبات، واضطرابات في الأمن العام، وخروج علـى النظـام. وإذا تناوله البعض فإنه يحكم على التاريخ بأنه يسير فـي خـط منهار نحو المستقبل، وأن قمة التاريخ موجودة في الماضـى "خير القرون قرنى..."، وكلما تقدم التاريخ انهـار التـاريخ حتى نصل إلى عصرنا الحاضر، يكون تقدم التـاريخ قـد أصبح انهيارا تاما، وسقوطا شاملا "جـاء الإسـلام غريبـا وسيعود غريبا كما بدأ.."، فالتقدم الحقيقي هو رجـوع إلـى الوراء، واللحاق بالعصر الذهبي الذي ولى وفـات، عصـر النبوة والصحابة والخلفاء. ولذلك تثني النظم اليمينية الرجعية على عصور الأباطرة العظام، والملكيات الغابرة، حين شيدت القصور، وأقيمت المتاحف الفنية، وشقت الطرق والقنـوات، وازدهرت الفنون والآداب.

وهو الموقف الذي لا تهمه وحدة الأمة بقدر ما يهمه الإعلان عن الفرقة الناجية وتكفير الفرق الضالة، والناجيـة واحدة، والضالة مجموع الأمـة! والناجيـة هـي الوريـث الشرعي للخلافة التي بدورها الوريـث الشـرعي للنبـوة.

وبالتالي يتهم كل من يخرج على الصراط بالكفر والفسـوق والعصيان. فإذا انتقلنا إلى السياسة نجد أن هذا الموقف يجعل تاريخ الأمة تاريخا واحدا، تاريخ الملكية أو تـاريخ الأسـر الحاكمة، وليس تاريخ الشعوب الضـالة المتمزقـة الفقيـرة الجاهلة، وحيث ستحدد الولاء بالطاعة للأمراء أو للنبلاء أو للملوك أو للأباطرة.

وفي مقابل ذلك، هناك موقف آخـر، هـو موقـف اليسار، يجعل التاريخ جزءا لا يتجـزأ مـن كيـان الفـرد والجماعة، ولذلك كان اليسار نظـرة تاريخيـة للسياسـة أو تحليلا للاجتماع أو جدلا تاريخيا للصـراع. وكلمـا وعـي الشعب في أية مرحلة من التاريخ هو يعيش ازداد التحامـه بالثورة، وازداد حماسه لها. وقد تكون من مآسينا الحالية أننا لا نعرف في أية مرحلة من التاريخ نحن نعيش، لذلك تعثرت ثوراتنا.

والتاريخ لا يسير إلى الوراء بل هو حركة تقدم نحو المستقبل، فالمستقبل يحتوي على إمكانيات ازدهار أكثر مما احتوى الماضي، وكل جيل يدفع التقدم خطوة إلى الأمام حتى ولو كانت في ظاهرها نكوصا وتراجعا، فمرحلـة النكـوص

تلوها مرحلة مضاعفة للتقدم، لذلك تجب مراحـل الثـورات عشرات المراحل قبلها بدا فيها المجتمع ساكنا واقفا جامـدا. يمكن اعتبار الأبطال في التاريخ القومي والاستشهاد بقصص البطولة حوافز وبواعث لتحريك الشعوب وليس مقياسا للتقدم يتم بالرجوع إلى الوراء. لقد أصبح التقدم وصـفا لمعظـم النظم اليسارية، وعنوانا للحركات الثورية، وشعارا للأحزاب المناضلة.

وهو الموقف الذي لا يعتبر هناك وراثـة شـرعية لفرقة على حساب الفرق الأخرى، أو لحزب علـى حسـاب الأحزاب الأخرى، أو لأسرة أو لقبيلة علـى حسـاب بـاقي الأسر والقبائل. فالأمة كلها وحدة واحدة تفرز مناضليها أيـا كانوا، وتجمع فرقها واتجاهاتها كلها وحدة وطنية في صورة تجمع أو جبهة، فلا يكفر فريق فريقا، ولا يتهم حزب حزبـا آخر بالفسوق أو العصيان، ويكون محك التجمع هو الرصيد الوطني لكل حزب، وليس مجرد الشعار أو الأصول النظرية التي قام عليها.

١٢- هل تنتهي إلى هذا الحـد موضـوعات علـم أصول الدين كما ورثناه من القدماء، ولا نزيد عليها شـيئا أم

أنه بالإمكان زيادة جديدة مستقاة من أحوال العصر؟ وهنا أيضا موقفان: الأول يريد الاقتصار على ما قاله القدماء، والاكتفاء به، فقد أوفى القدماء كل شيء، ولم يتركوا صغيرة أو كبيرة إلا وتناولوها، ولم يتركوا لنا إلا الشروح والملخصات أو حصر العقائد وتقنينها في خمسين، وهو الموقف أيضا الذي يجعل علم العقائد قائما بذاته مستقلا لا شأن له بأحوال الناس وبظروف العصر. فالله موجود، ليس له مضمون اجتماعي، بل مجرد حكم صوري خالص على وجود الله، وهذا هو موقف اليمين. فإذا انتقلنا إلى النظم السياسية وجدنا أيضا أن النظم اليمينية ترى أن الوضع القائم هو أفضل الأوضاع، وأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، وأن النظام قد وصل إلى حد الكمال لا تجوز عليه زيادة أو نقصان، تختص العقائد بالحياة الدينية، والنظام الرأسمالي بالأمور الدنيوية، ويعيش الإنسان حياتين، حياة في مصنعه أو متجره أو شركته يعمل ما يشاء طبقا للنظام الرأسمالي، وحياة دينية في معبده يقيم الصلاة في أوقاتها ويمارس الشعائر.

وفي مقابل ذلك، هناك موقف آخر يجعل علم أصول الدين متطورا، فالعقائد ليسـن أحكامـا صـورية بـل ذات مضمون اجتماعي من وحي العصـر. فـالله الآن مـرتبط بالأرض إذا أردنا تحريرها، الله قيمة، والأرض مطلب، ومن ثم يعاد تفسير القيم طبقا للمطالب. والله مرتبط بالثورة، فـالله باعث، والثورة ضرورة، ومن ثم يعاد توجيه الباحث لتحقيق هذه الضرورة. والله غاية، والتنمية هدف، ومـن ثـم يعـاد تفسير الغاية بحيث تخدم هدف التنمية وهكـذا. وهـذا هـو موقف اليسار. وقد حاول تأسيسه مصـلحونا الاجتمـاعيون وعلى رأسهم الأفغاني، وإقبـال، والكـواكبي، والسنوسـي، والمهدي، ومحمد ابن عبد الوهاب، وغيـرهم مـن ممثلـي حركات الإصلاح الحديثة. فقد حـاول الأفغـاني ربـط الله بالأرض من أجل إجلاء المستعمرين عن أراضى المسـلمين ومن أجل تحرير الفلاحين من رقبة الإقطاع "عجبت لك أيها الفلاح، تشق الأرض بفأسك، ولا تشق قلب ظالمك؟". وقـد حاول المهدي أيضا ربط الدين بالثورة من أجل الدفاع عـن البلاد ضد غزوات المستعمرين، كما حاول السنوسي أيضـا ربط الدين بالمقاومة من أجل طرد الغـزاة الأجانـب، كمـا

حاول محمد بن عبد الوهاب توجيه العقائد إلى الإصلاح الاجتماعي، ومحاربة مفاسد العصر من شفاعة ووساطة، وشعوذة وكهانة. كما حاول الكواكبي ربط الدين بالالتزام، ومحاربة اللامبالاة والفتور الذي وقع فيه المسلمون، كما حاول الربط بين الدين والتحرر من أجل القضاء على مظاهر الاستعباد في حياتنا المعاصرة. وحاول قاسم أمين الربط بين الدين ومساواة الرجل بالمرأة من أجل استرداد المرأة لحقوقها التي تخلت عنها في عصور الجهل والانهيار، كما حاول إقبال الربط بين الله والذاتية من أجل إعادة تكوين الفرد المسلم ضد التقاليد، وإبراز جوانب الأصالة والإبداع في مواجهة الغرب بماديته وانحلاله –ومن ثم يمكن إضافة مادة جديدة لعلم أصول الدين تشمل لاهوت الأرض، ولاهوت الثورة، ولاهوت التقدم، ولاهوت التنمية، ولاهوت التغير الاجتماعي، ولاهوت التحرر، ولاهوت المقاومة... الخ، وباختصار لاهوت السياسة فتلك مشاكل العصر التي تكون المادة الجديدة لعلم أصول الدين، وبالتالي تمحى التفرقة التقليدية بين العقيدة والشريعة أو بين أصول الدين وأصول الفقه.

إن مهمتنا الآن هي تطوير فكرنا الإصلاحي الحديث، ودفعه خطوة نحو الأمام، فاختيار مصر بظروفهـا الحاليـة وفي مرحلتها الراهنة هو اختيار اليسـار، ومـن ثـم كـان اختيارها الفكري هو اليسار الديني الذي بدأ فـي حركـات الإصلاح على مستوى ثقافتها والتزامها بقضـايا العصـر. فمازالت كل القضايا التي أثارها الإصلاح الديني لـم تـؤت أكلها بعد، فإذا طورنا حركات الإصلاح الـديني ودفعناهـا خطوة إلى الأمام انتقلنا من دور الإصلاح إلى دور النهضة، شرط الثورة، وهو ما نرجوه جميعا الآن.

وفي النهاية لا أريد أن أعطـي مفتاحـا وأقـول أن اليمين واليسار في الفكر الدينى قد مثلته الأشاعرة والمعتزلة في تراثنا القديم، فالأشاعرة هم اليمين فـي الفكـر الـديني، والمعتزلة هم اليسار في الفكر الديني، وبالتالي تكون مأساتنا أننا بتكويننا الأشعري يمين في حين أننا بوضعنا الاجتماعي وبدخلنا المحدود وبأرضنا الزراعية يسار، وبالتـالي يكـون اختيارنا الفكري غير واقعنا المادي. وهنا تظهـر ضـرورة إعادة الاختيار الفكري حتى يتفق الفكر مع الواقـع. ولكنـي

أترك ذلك لاستنباط القراء وحسن بصيرتهم، لو شاءوا فعلوا، فتلك هي مسئوليتهم وحدهم.

هل يمكن إقامة نهضة على أسس أشعرية؟ *

لا تقام نهضة إلا على أسس فكرية يعاد عليها بناء القديم وإلا ظل القديم هو الأساس النظري للنهضة الجديدة وغير قادر على أن يعطيها أسسا نظرية وبالتالي تفشل النهضة لعدم التطابق بين الموروث القديم كأساس نظري وبين تحديات العصر التي تقوم النهضة استجابة لها.

وتقوم نهضتنا الحالية التي بدأت مواكبة للإصلاح الديني أو بعدها بقليل على نفس الأسس التقليدية التي بني عليها تراثنا القديم في معظمه وهي الأسس الأشعرية التي استقرت في الوعي التاريخي ابتداء من القرن الخامس الهجري حتى الآن؛ أي بدايات القرن الخامس عشر، وبعد أن حسم الصراع بين التيارات الفكرية لحساب الأشاعرة منذ ألف عام. ولم تكن هناك محاولات في عصرنا الحالى لتغيير هذه الأسس إلا محدودة جدا وبطريق نسبى كما فعل محمد

---

* كتب هذا المقال بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ ورغبة صديقنا د. أنور عبد الملك في العودة إلى مصر والقيام بدوره في نهضتها الحديثة وتأسيس مجلة للحوار الوطني بين الاتجاهات الفكرية التأسيسية المختلفة في مصر بعنوان "النهضة" وهو الاسم المأثور لديه في كتاباته العديدة منذ رسالته "نهضة مصر". وهذه هي مقدمة المقال الذي كنت أنوى كتابته في ١٩٧٤ ولكنه لم يتم. وهذه صياغة ثانية له تمت في خريف ١٩٨٧.

عبده عندما بقى أشعريا في التوحيد وأصـبح معتزليـا فـي العدل. وبالرغم من هذا التحول النسبي في الأسس النظريـة لحركة الإصلاح الديني إلا أنها ظلت مجموعة في مجموعها أشعرية، وكأن استقلال الفكـر وحريـة الإرادة أي العـدل الاعتزالي لا يبقى طويلا دون استناد إلى التوحيد الاعتزالي أي الله كمبدأ تتساوى فيـه الـذات والصـفات. وأن هـذين المبدأين إذا ما ارتكزا على التوحيد الأشعري أي الله كشخص تزيد فيه الصفات على الذات. فبالرغم مـن أهميـة تركيـز الحركة الإصلاحية الحديثة على اسـتقلال العقـل وحريـة الاختيار إلا أنهما بقيا تحت المظلة الأشعرية. فهناك منـاطق لا يستطيع العقل أن يصل إليها بمفرده ويحتـاج فيهـا إلـى وصي، وهذا الوصي هو النبي كمـا يقـول محمـد عبـده. فمازالت هناك قوى خارجية تسيطر علـى قـوى الإنسـان والطبيعة يحتاج إليها الإنسان في أوقات عجزه، ويطيع لهـا الكون بتغيير مساره.

والأخطر من ذلك وفي مقابل هذا التحول النسبي أو تطعيم الأشعرية السائدة ببعض الاعتزال القديم والـذي لـم ينجح كثيرا ولم يستمر اتحدت الأشعرية بالتصوف وازدوجت

به، فأصبح التصوف أيضا أشعريا في أسسـه، وأصـبحت الأصول الأشعرية التمهيدات الفكريـة للطـرق الصـوفية. وسادت الأشعرية أيضا في الفقه بسيادة المذهب الشافعي دون الحنفي أو المالكي. فقد كان معظم الأشاعرة شافعية، وكثيـر من الأحناف معتزلة. كما سادت الأشعرية الفلسفة الإشراقية التي تشارك الأشعرية في نفس الأسس النظريـة كمـا هـو واضح عند ابن سينا خاصة. وبالتالي أصبحت الأشعرية هي الرافد الرئيسي في ثقافتنا القومية.

ويروج بعضنا اليوم للأشعرية، ويجعل نفسه شيخها دون مراعاة لظروف العصر وحسن الاختيار مـن البـدائل المطروحة طبقا لمرحلتنا الحالية وظروفنا الاجتماعيـة أمـا طلبا للشهرة والدعاية أو دفاعا عن النفس في شخص القـديم خاصة ولو كان هذا القديم هو الأساس النفسي والثقافي الذي تقوم عليه السلطة السياسية. فهو مطلب سياسي في صـورة علمية، وموقف مزدوج ينم عن الرغبة فـي السـيادة فـي السياسة والثقافة وفي ممارسات الطرق الصوفية.

ونظرا للفراغ النظري الذي يقبع تحت الأشعرية فإنه تم تطعيمها مؤخرا بالتصوف مـرة، وبالفقـه مـرة ثانيـة،

وبالفلسفة مرة ثالثة. ففي التصوف أخذت الأشعرية السلطة الخارجية والإرادة المطلقة التي تسيطر على كل شيء. ومن الفقه أخذت مباحث العلة والأحكام وأحيانا العمليات حشوا بلا ترابط داخلي. ومن الفلسفة أخذت مباحث الجوهر والعرض وهي المقدمة الطبيعية للإلهيات أو هي الإلهيات المقلوبة. بل أن رفاعة الطهطاوي مؤسس النهضة الحديثة لم يتخل عن الأسس الأشعرية كما وضعها القدماء وعرض أفكار التنوير اعتمادا على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ونظر للدولة الوطنية اعتمادا على التراث القديم ومصادره الفقهية.

ويظل السؤال: هل يمكن إقامة نهضة على أسس أشعرية؟ هل يمكن في نظرية العلم أن نؤسسها على أنه لا يوجد ارتباط ضروري بين النظر والعلم وأنه مهما نظر الإنسان فإن العلم قد لا يتولد من النظر بل قد يأتي من مصدر آخر في مجتمع تكثر فيه الإلهامات؟ هل يمكن في نظرية الوجود أن نتصور أن الجواهر قد تعرى عن الأعراض أو أن الأعراض قد توجد بدون الجواهر تملقا للسلطة المطلقة ودفاعا عن حقها على حساب قوانين الطبيعة في مجتمع تغيب فيه العلية؟ هل يمكن اعتبار الصفات زائدة

على الذات لإفساح المجال للرحمة على حساب العـدل فـي مجتمع في أمس الحاجة إلى العدل، والرحمة فيه أقرب إلى التحايل المقصود على القانون؟ هل يمكـن تصـور الـذات الإلهية مشخصة دون أن تكون مبدأ عاما شـاملا يتسـاوى أمامه الجميع في مجتمع يعانى من اللامساواة والتفاوت بـين الناس؟ هل يمكن تصور العقل قاصرا في حاجة إلى النقـل في مجتمع يعانى من نقص استعمال العقل؟ هل يمكن اعتبار الإنسان مجبرا في أفعاله في مجتمع يئن من القهر والجبـر والطغيان؟ هل يمكن تصور الإنسان مازال معتمدا في علمه وحياته على قوة خارجية في مجتمع يعانى من ترك الاعتماد على الذات ويكثر من الاعتماد على الآخـر؟ هـل يمكـن التركيز على حياة الإنسان بعد الموت والشفاعة على حساب الدنيا وقانون الاستحقاق في مجتمع مغـرق فـي التصـوف ويعتمد على الواسطة ولا يربط بين العمل والجـزاء؟ هـل يمكن جعل الإيمان هو القول دون عمل في مجتمع يكثر فيه الكلام ويقل العمل؟ هل يمكن جعل الإمامة في فئة واحـدة، قريش قديما، والضباط حديثا على حساب الصفات الفرديـة وفي مجتمع يرزح تحت الشللية والانقلابات والطائفية؟ هـل

يمكن تكفير الفرق واعتبارها كلها هالكة وأن الواحـدة فقـط هي الناجية في مجتمع تسيطر عليه حكومات الحزب الواحد والمعارضة فيها في السجون؟ [١].

---

[١] أنظر بحثنا "اليمين واليسار في الفكر الدينى" في "الـدين والثـورة" فـي مصـر ١٩٥٢–١٩٨١" الجزء الثاني، في اليسار الديني.

الدين والرأسمالية *

أنه لمن أشد الأمور عجبا أن تثار باستمرار قضـية "الماركسية والدين" ويوميا.. في جميع أجهزة الإعلام.. وكأن الماركسية هي الخطر الداهم على ديننا ودنيانا دون أن نعلـم بأن هذه المعركة المفتعلة المثارة هي في الحقيقة أثر من آثار

---

* روز اليوسف سبتمبر ١٩٧٦، وقد وضع رئيس التحرير عنوان: الإسـلام علـى الطريقة الرأسمالية!

وصدر المقال بالفقرة الآتية:

الخطايا العشر في إسلامنا اليوم مستوردة من الغرب ولصالح الرأسماليين:

٢- البحث عن الله خارج العالم.

العكوف على الغيبيات والأسرار.

٣- الفهم الشكلي للشعائر.

٤- الصراع بين المادة والروح.

٥-النزعة الاستهلاكية!

... وخطايا أخرى في العدد القادم.

قضية اليوم في بلادنا ليست "الإسلام أو الماركسية". وإنما هي بالتحديـد: الإسلام أو الرأسمالية!

فالرأسمالية هذه الموجودة في مجتمعنا وخطرها هو الماثل أمـام أعيننـا: بدليل أن معظم تصوراتنا الإسلامية اليوم ليست من الإسلام.. وإنما هي تصـورات رأسمالية تسللت إليه، وإلينا، دون أن نشعر!

وعلى السطور التالية يكشف لنا الدكتور حسن حنفـي، أسـتاذ الفلسـفة الإسلامية بجامعة القاهرة، هذه الحقيقة المزعجة. ويدق ناقوس الخطر، للذين هم حقا مؤمنون:

الاستعمار الثقافي في البلاد.. هذا الاستعمار الذي أراد – حفاظا على مصالحه الاقتصادية والعسكرية في المنطقة، ووقوفا في وجه حركات التحرر الوطنى والتقدم الاجتماعي. وتشويها لمواقف كل من يساندونها من قوى الحرية والسلام –الترويج بأن الماركسية مضادة لتعاليم الدين ومفسدة لحال الدنيا وضياعا في الآخرة، وينصب نفسه مدافعا عن الدين والدنيا معا. والحقيقة ليس القصد هو حماية الدين فالغرب مازال يعيش صليبيته ولكن بصور جديدة، متعددة الأشكال، يدافع عن الإسلام والمسلمين. والقصد من ذلك معاداة الحركات الوطنية والقوى التقدمية والنظم الاشتراكية حتى يخلو للاستعمار الجو، ويظل في نهبه للثروات، وفي إيقاع البلاد في شباك الأحلاف. وهو ما كانت النظم الرأسمالية تفعله في الغرب منذ القرن الماضي– ومازالت تروج له الكنيسة الغربية حتى اليوم دون جدوى، أمام تقدم الأحزاب الاشتراكية، واتساع قواعد الأحزاب الشيوعية، وازدياد شعبيتها بين الجماهير. وما لم تنجح النظم الرأسمالية فيه في الغرب، تعيد الكرة الآن في البلاد النامية، مستغلة عدم وضوح فكرها، وعدم تبلور أيديولوجياتها وتدينها وإيمانها،

ومرورها بفترة من التخلف الحضاري.. وتبعية مثقفيها للغرب.. وتقليدهم له.

وأنه لمن أشد الأمور غرابة ألا تثار قضية "الرأسمالية والدين" وهي الأخطر بالنسبة لمجتمعنا الحالي. فإذا كنا نعني بجدية ما نقوله باستمرار.. وما سطرناه في مواثيق الثورة عشرات المرات.. وما وقعنا عليه وأجزناه على مدى ربع قرن أعنى "حتمية الحل الاشتراكي" تكون "الرأسمالية" حينئذ هي الخطر الداهم على حياتنا. وإذا كان واقعنا في مصر بدخله المحدود.. وكثافته السكانية يفرض الطريق الاشتراكي للتنمية.. تكون الرأسمالية هي العدو الأكبر للتنمية والمعوق الأساسي لها. أن عدم إثارة القضية، قضية "الرأسمالية والدين" تدل على أننا لا نرى غضاضة في أن نكون رأسماليين ومتدينين أو متدينين على الطريقة الرأسمالية.. وأن الرأسمالية والدين متفقان فيما بينهما في الأهداف والوسائل. ففي الإسلام الأول كان الأغنياء يجهزون جيوش المسلمين بأموالهم.. وكان منهم كبار الصحابة والمبشرون بالجنة.. فلا مانع أن يقوم أغنياء المسلمين اليوم بما قام به أغنياؤهم بالأمس حتى يبارك الله لهم في الرزق..

ويضاعف الأجر والثروات. وإذا كانت الرأسمالية تقوم أساسا على نشاط الفرد وحريته المطلقة، فالدين أيضا لا ينكر على الفرد حريته ونشاطه. والحقيقة أننا على هذا النحـو نكـون رأسماليين ونظن أننا متدينون.. رأسماليون فـي الحقيقـة.. ومتدينون في المظهر.. وكثيرا ما ندافع عن الرأسمالية ونظن أننا ندافع عن الدين.. وكثيرا ما نظن أننا ندافع عن الـدين.. ونحن في الحقيقة ندافع عن الرأسمالية.

وهدفنا هنا هو توضيح هـذا الخلـط الشـعوري أو اللاشعوري بين الرأسمالية والدين في وجداننا القومي حتـى يمكننا تخليص الدين مما علق به من آثار الاستعمار؛ أعنـي التصورات الرأسمالية للعالم، وأن نفسر الدين تفسيرا يفرضه واقعنا الحالي، فيكون ديننا هو الصورة أو القالب وواقعنا هو المضمون. وهذا واجبنا وواجب فقهاء المسلمين الذين نـيط بهم الاجتهاد في الدين، وتطبيق أحكام شريعته بدل أن نكون جميعا ضحية الاستعمار الثقافي في البلاد، ونؤمن بالطاغوت ونظن أننا نؤمن بالله.

ومهمتنا هي تصحيح أوضاعنا الثقافية، والكشف عن المعارك الحقيقة التي يفرضها واقعنا وتتحقق بها مصـالحنا

واستبدالها بالمعارك الوهمية التي نشرها الاستعمار بيننا إبعادا لنا عن واقعنا وعن رؤية مواطن مصلحتنا الحقيقية إيهاما منه وخداعا. مهمتنا هي الوقوف أمام الأخطار الفعلية دون المتوهمة وتوضيح موقفنا الحضاري. وكثيرا ما يخطئ الغرب حساباته، ويظن أن الاستعمار الثقافي باق إلى الأبد، وأن الجماهير في البلاد النامية ستظل راسخة في تخلفها الحضاري، وأن مثقفيها سيظلون إلى الأبد ممثلين للثقافة الغربية في أوطانهم، يعملون لصالح الأجنبي، ويستغلهم الأجنبي للدفاع عن مصالحه، وإعادة حكم البلاد بطريق غير مباشر عن طريق وكلاء في البلاد. ولكن أحساسا منا بمسئولية المثقفين وهم طلائع الجماهير الشعبية، فقد آن الأوان لتوضيح هذا الالتباس في ثقافتنا الوطنية ونحن بصدد إقامة النهضة الحالية من أجل ترسيخ قواعد الثورة وأسسها النفسية والفكرية والقضاء على جميع معوقات التنمية والتغير الاجتماعي.

١- تحرص النظم الرأسمالية على أن تجعل الله خارج الطبيعية، فيما وراء العالم، خارج الزمان والمكان، يستحيل تصوره أو إدراكه، ولا يمكن رؤيته أو التفكير فيه

ولكن يمكن الابتهال إليه ومناجاته، وطلب العون منه عند الحاجة. وبالتالي يتوجه شعور الجماهير إلى خارج العالم، مبتعدا عن هذا العالم، تاركا إياه في قبضة صاحب رأس المال بعد أن خلا له الجو من المنافسة، وسيطر عليه واحتكره. وكلما اتجه شعور الجماهير خارج العالم ازداد إحكام سيطرة صاحب رأس المال عليه. وفي ذلك يقول فلاح سودانى: كنت سعيدا في أرضي، أزرع حقلي، وأرعى ماشيتي، وفي يوم ما، أتاني إنسان متوشح بالسواد وفي يده كتاب، وبعد مدة رحل، فوجدت الكتاب في يدي والأرض في يده!

فإذا تأزمت أحوال الناس، واشتد الكرب، وعم الفقر، ابتهل الناس إلى الله، ودعوه لقضاء الحاجة فيفرح صاحب رأس المال، ويتصدق، ويفرج الهم والكرب، ويقضي حوائج الناس، كالخليفة يقذف بأكياس النقود يمينا ويسارا وهو في موكبه على رافعي الأيادي إلى السماء، فالله هو الواهب والعاطي، الرازق والمنعم، وبالتالي يتعود شعور الناس على السؤال، وينتظرون العطاء. وهذا ما تريده النظم الرأسمالية من بناء نفسي للجماهير. ونحن عندما ندعو الغني، ونسأل

المعطي، ونبتهل إلى الوهاب إنما نكون أسرى التصورات الرأسمالية للدين، في حين أننا أصحاب حق ولسنا أصحاب سؤال، وأن لنا حقا في رأس المال نطالب به دون استجداء، وأن لنا حقا في الأرض ولسنا طلاب هبات أو معونات.

وأحيانا نتصور الله والعالم معا في تصور هرمي، كلما صعدنا إلى أعلى وصلنا إلى كمال أكثر ونقص أقل، وكلما نزلنا إلى أسفل وصلنا إلى كمال أقل ونقص أكثر، وفي القمة يوجد الكمال المطلق الذي ليس به نقص، وفي القاعدة يوجد النقص المطلق الذي ليس فيه كمال، وهكذا تتفاوت الدرجات والمراتب بين الأعلى والأدنى أو بين الكمال والنقص. والحقيقة أن هذا التصور ليس من الدين في شيء بل هو التصور الرأسمالي للعالم الذي يعبر عن البناء الطبقي للمجتمع. والذي يرسخه النظام الرأسمالي في نفوس الناس والذي يعتمد على الحركة الاجتماعية الصاعدة والهابطة، فكلما صعدنا إلى أعلى ازدادت الأقلية غنى وقلت فقرا، وكلما هبطنا إلى أسفل ازدادت الكثرة فقرا وقلت غنى، فالصلة بين الواحد والكثير هي صلة الأقلية بالأغلبية،

والصلة بين الله والعالم على هذا النحو هي في حقيقة الأمـر الصلة بين صاحب رأس المال والعمال.

وأحيانا أخرى نتصور الصلة بين الله والعالم تصورا ثنائيا يقسم الكون إلى قسمين أول وآخر، صوري ومـادي، أبدي وزماني، باق وفان، خالق ومخلوق، علـة ومعلـول، ونظن أن ذلك التصور هو ما يفرضه الدين وهو في الحقيقة ليس من الدين في شيء بل هو وليد النظام الرأسمالي، أو هو صورة النظام الرأسمالي على المستوى النفسي والذهني لأن ذلك من شأنه أن يجعل العالم سالبا، لا قوام له بذاته حتى لا تعيه الجماهير ولا تشعر بقيمته، ولا تهتم به، وحتى يستطيع صاحب رأس المال الاستحواذ عليه، والسيطرة على مقدراته، واستغلال ثرواته، واحتكار أسواقه. فإذا كان المتدين قد أوعز إليه بإيثار الآخرة على الدنيا، والروح على البدن، والخـالق على المخلوق. فإن ذلك يحدث حتى يمكـن للرأسـمالي أن يعيش حرا طليقا في الدنيا. يعمل في العالم كيفما يشاء، بـل يقوي الرأسمالي الوازع الديني على هذا النحو الرأسمالي عند الجماهير فيكثر لها البرامج الدينية، وينشر المـدائح النبويـة حتى تجد الجماهير ما يلهيها عن الدنيا ثم لا مانع أن يشارك

صاحب رأس المال في هذه الشعائر الدينية مرة كل أسبوع في المناسبات والأعياد حتى يلبس لباس التقوى، وهو في الحقيقة يتستر وراءها ويخفي حقيقة أمره، وهو الاستحواذ على العالم والسيطرة على ثرواته، واستغلال القوى البشرية لصالحه.

٢- وكثيرا ما نظن أن التدين هو العكوف على الغيبيات وعالم الأسرار، والمعجزات والكرامات، ونهز رءوسنا إعجابا وطربا، وشوقا وعجبا. والحقيقة أن هذا ليس من الدين في شيء بل ما تصوره الرأسمالية لنا على أنه دين، مغالاة منها في التدين من أجل التستر على ما يدور في نظامها من استغلال واحتكار، وتصريفا لطاقات العامة ونشاطها فيما لا يقوض دعائم النظام بل على العكس فيما يدعمه، ويقوي أركانه بالتفات الناس إلى ما هو أبقى وأروع، وطلبها السعادة في معرفة الله والاتحاد به، وفي الانفصال عن العالم وإسقاطه من الحساب، ولذلك تكثر النظم الرأسمالية من بناء المساجد، وإقامة الشعائر، وتدعيم الطرق الصوفية، والاحتفال بالموالد، والتأليف في الغيبيات، وإدارة النقاش والمناظرة حولها. يجسد النظام الرأسمالي الغيبيات في

مظاهر حسية حتى يكون للدين مضمون من داخله وليس مضمونا اجتماعيا من واقع الناس.

وكل ذلك ليس من الدين في شيء، ففي الإسلام لا يعلم الغيب إلا الله، أما الإنسان فلا يتعامل إلا مع عالم الشهادة، وكانت الشريعة الإسلامية كلها قائمة على عالم الشهادة، بل كانت العقائد الإسلامية كلها تجد دليلها في عالم الشهادة، فإيماننا بالغيبيات، وحديثنا عنها، وتصويرنا إياها، وخلافنا حولها وتكفيرنا من ينكرها أو يؤولها، كل ذلك إيمان على الطريقة الرأسمالية، حيث نكون ضحية الإفراز الرأسمالي للدين حيث نؤمن بالرأسمالية في الدين ونظن أننا نؤمن بالدين ذاته.

ولما كان عالم الغيب والأسرار لا يمكن إدراكه بالعقل بل بالقلب، تحول الدين إلى إيمان صوفي تصبح فيه الإشراقيات موضوعا ومنهجا، ومن ثم تكثر الطرق الصوفية، ونظن أن التدين هو التصوف، وكلما أوغلنا في التصوف، بكل قيمه السلبية، ومواجيده وأذواقه، وخداعه وإيهاماته. وأصبح من العجيب أن يقوم النظام الرأسمالي على الترشيد في الاقتصاد وعلى التصوف في الدين، وكأن

الإيمان على الطريقة الرأسمالية يجعل العقل وسـيلة لتـدبير أمور الدنيا فحسب، بالحساب، والكم والقياس، والقوانين، أما شئون الآخرة، وأمور الدين فلها الوجدانيات، والعاطفيـات، والأذواق، والمواجيد، وبالتالي يتحقق كمال الإنسان وإشباعه لرغبات العقل ومقتضيات القلب. فينهب صاحب رأس المال ثروات الأمم، ويبتهل، ويتصوف، ويتعبد!.

وكل هذا ليس من الدين في شيء، فالدين لا يعتنـي إلا بهذا العالم الذي يسير وفقا لقانون يدركه الإنسان بالعقـل حتى يمكنه السيطرة عليه وإخضاعه لسلطانه للاستفادة منـه في معاشه، والعقل يشمل الحس والتجربة الداخلية والخارجية معا، ويقوم الإنسان بتنظيم العمل في العالم بكل قواه لا فصل في ذلك بين عقل وقلب. فالتصوف، هو التصوف في العمل، وفي النشاط، وفي الإنتاج، وليس التصوف الفارغ الـذي لا مضمون له.

٣- يظن الناس أن الممارسة الدينيـة هـي إقامـة الشعائر، وأن المسلم هو من أقام قواعـد الإسـلام الخمـس: الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصـوم، والحـج، فالشـهادة نقولها، والصلاة نقيمها، والزكاة ندفعها، والصوم نحـرص

عليه، والحج نتسابق إليه. الشهادة لا تكلفنا إلا عبارتين، والصلاة لا تأخذ من يومنا أكثر من نصف ساعة من أربع وعشرين، والزكاة لا تأخذ من أموالنا ألا ربع العشر من فائض الأموال، ومن له ذلك الآن! وزكاة الفطر شيء لا يذكر بجانب نفقات إفطار رمضان وكمالياته المحلية والمستوردة. والحج نربح منه أكثر مما نخسر، نربح الدعاية والإعلان، ولباس التقوى للشهرة أو للتجارة، أو نكتفي بالعمرة السياحية أو التجارية التي نحمل فيها ما خف حمله وغلا ثمنه. ولا مانع من كتابة الشهادتين في ملصقات مذهبة أو في لوحات مبروزة، ونعلقها في دورنا ومكاتبنا أو نشيد المساجد ونضيء مآذنها، ونضع فيها مكبرات الصوت، ونتألم من فوضى جمع الزكاة، ونطالب بإقامة مؤسسات متخصصة يديرها أهل البر والتقوى ورجال الدين والحكومة لجمعها وصرفها، ونحمل هم شهر الصيام صيفا أم شتاء، عملا أو راحة، نفقات وتكاليف، ونبتهل إلى الله أن تصيبنا القرعة في الحج، وأن ييسر لنا سبل الحصول على العملة الصعبة من السوق السوداء. هذا الخلط بين الدين والتجارة، بين هموم الدنيا وهموم الآخرة هو الذي يكشف عن تشرب

الفكر الرأسمالي ونظمه في إيماننا وفي ممارستنا للشعائر. وفي أحسن الأحوال تقام الشعائر في تقوى وصلاح دون إعلان أو متاجرة. وفي هذه الحالة يحفظ المسلم نفسه من شرور الدنيا ويتقي متاعبها، ويعكف على العبادة، ويكون اقرب إلى الصوفي الذي يقاسم الرأسمالي الكون، للأول الآخرة وللثاني الدنيا، فيطمئن الرأسمالي على أرضه ويضمن أن لا منافس له فيها.

وفي كلتا الحالتين، نكون ضحية، ضحية التفسير الرأسمالي للدين الذي تروج له النظم الرأسمالية والممارسة الرأسمالية للدين، فنظن أننا نعبد الله ونطيعه ونحن في الحقيقة نعبد رأس المال ونطيعه عن وعي أو عن غفلة. فالإسلام كما هو معروف ليس عبادات بل معاملات بل أن المعاملات ذاتها أعلى درجة في العبادات. هذا هو الطريق الأصعب، والممارسة الشاقة، فكل عمل عبادة، الفلاح في أرضه، والعامل في مصنعه، والتاجر في متجره، والطالب في معهده، والجندي في ميدانه، ليست العبادة ماذا يفعل الإنسان في نصف ساعة يوميا خمس مرات بل ماذا يفعل الإنسان في يومه على مدى أربع وعشرين ساعة. ليست

العبادة ماذا يفعل الإنسان داخل دور العبادة ولكن ماذا يفعـل الإنسان خارجها، في منزله وفي الطريق العام. ولن يكـون الحساب عن إقامة الشعائر بل عن العقل فيم فكر؟ وعن المال فيم أنفق؟ وعن الجهد فيم بذل؟ وعن الوقت فيم ضاع؟ العلـم عبادة، والعمل عبادة، ومحاربة الاستعمار عبادة، والقضـاء على الاستغلال والاحتكار عبـادة، والـدفاع عـن حقـوق المستضعفين في أي مكان عبادة. أن كل من يريـد قصـر العبادة وحصرها في إقامة الشعائر لهو ضـحية للاسـتعمار الثقافي في البلاد وللتصور الرأسمالي للدين.

إن الشهادة تعنى رفض كل آلهة العصـر المزيفـة، فتقول "لا إله" أي أنا نرفض من تصورنا أنها آلهة مثل الجاه، والقوة، والسلطان، والربح.. الخ. فإذا تخلصنا منها ظهر لنا الله الحق فنقول "إلا الله"، وهو المبدأ الواحد الشـامل الـذي يتساوى أمامه جميع العباد. فالشهادة ليست قولا بـل عمـلا وتضحية، ومعارضة وثورة، ومقاومة واستشـهادا، فآلهـة العصر ما أكثرها، ومناضلوها ما أقلهم. أن الصلاة لا تعني الشعائر بل تعني جهد الإنسان الدائم، وعمله المسـتمر مـن أجل تحقيق هذا المبدأ الواحد الشامل وما يتضمنه من نظـم

اجتماعية تجد الناس فيها صلاحها. ولا تعني الزكاة إرضـاء لنزعة الإنسان وضمان الكسب له مادام قد دفع ما طلب منه، ففي المال حق غير الزكاة، لا تعني الزكاة تبرئة للذمة مـن حقوق الغير بل تعني بداية تأكيد حق الغير حتـى يتسـاوى الإنسان مع الآخرين فيما بين يديه. ولا يعني الصوم الشـق على الأنفس ثم إرضاءها بعد ذلك بل تعني مشاركة النـاس فيما بين يدي الإنسان وأن المجتمع الإسلامي لا فقر فيه ولا جوع. ولا يعنى الحج رحلة سياحية أو تجارية أو دعائية أو تبرئة للذنوب بل تعنى مؤتمرا عاما للمسلمين جميعا للاجتهاد في المسائل العامة التي بها صلاح الناس وعمـوم البلـوى، وكلنا نعلم ذلك ونوافق عليه ولكن ممارسـة الـدين علـى الطريقة الرأسمالية هي في الغالب تقليد وسـهولة وإرضـاء للضمير بأيسر السبل وأرخصها.

٤- ومازلنا نكرر خطأ شائعا روجـه فيمـا بيننـا الاستعمار الثقافي، وصدره إلينا الغرب بعـد أن فشـل فـي استعماله ألا وهو الصراع بين الروحانية والمادية، فكل مـن يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر يكون روحانيا، وكـل من يؤمن بالمجتمع وبالتغير الاجتماعي وبالتحليل الإحصائي

وبالعوامل الاقتصادية يكون ماديا، فندافع عن روحانية نظرية، وهي الروحانية التي تروج لها النظم الرأسمالية، إذ تريدها نظرية حتى يمكنها السيطرة على النواحي العملية، وتريدها مجردة حتى يمكنها أن تتعامل مع المحسوس وأن تستحوذ عليه، وتريدها فارغة بلا مضمون حتى تحتكر هي المضمون وتبتلعه في بطونها. والحقيقة أن كل من يؤمن بالروحانية على هذا النحو الفارغ، الخالي من أي مضمون يكون ضحية الفكر الرأسمالي والاستعمار الثقافي.

وفي حقيقة الأمر هذه الروحانية العرجاء هي المادية بعينها لأنها تجعل العالم المادي لا روحانية فيه، ومن ثم تنشط النظم الرأسمالية في هذا العالم، وتفعل ما تريد، تستغل وتحتكر، وتسيطر وتتلاعب، فإذا تم لها ما تريد ذهبت إلى الروحانية الفارغة ووفتها حقها بالكلمات والشعارات أو الممارسة الشعائرية والطقوس، فتطمئن النفس وتبرأ ثم تعود من جديد إلى العالم تفعل فيه ما تشاء بلا قانون أو حدود.

هذه الروحانية المميتة القاتلة للروح هي التي حذر منها الإسلام مرارا بقوله: "ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب.." وهي التي نبه عليها الرسول في

التطبيق ونوه بها الصحابة في الممارسة، فالذي يعمل بيديه ويطعم أخاه العابد في المسجد يكون أخوه أعبد منه، واليد السوداء المشققة من العمل الغليظ يد يحبها الله ورسوله، والقدم التي تسعى في سبيل الله عونا للجار أو دفاعا عن الحمى قدم تشبعت بالروحانية. فروحانية الإسلام ذات مضمون، روحانية الأرض والطبيعة والكون. وهنا تمحى التفرقة بين روحانية فارغة ومادية صماء، وتكون الروحانية هي المادة النشطة المتحركة، والمادة هي الروحانية المتجسمة المتحققة، فالعالم كله روح وكله مادة لا انفصام بينهما وهذا هو أحد معاني التوحيد. ولكننا حتى الآن مازلنا ضحية الروحانية العرجاء، ونؤمن بالدين على الطريقة الرأسمالية.

٥- ويظن الناس أن هذا العالم قد خلق لينتفع به الإنسان "المال والبنون زينة الحياة الدنيا". ومن ثم تتحول قيم الناس إلى قيم استهلاكية خالصة، يكون مطلبهم هو إقامة مجتمع الرفاهية والوفرة. ومادام الإنسان قد آمن بالله، كتبه ورسله واليوم الآخر، وأقام الشعائر وأركان الدين فإن من حقه أن يتمتع بما وهبه الله من رزق، فيتزوج أكثر من مرة، ويسكن، ويأكل، ويشرب، وينعم برزق الله، ويكون الأخ

المسلم أول من يهرع إلى الموائد، وأول من يقفز إلى الصلاة، وأول من يجمع المال، وأول من يدفع الزكاة. وهذا أيضا أثر من آثار الرأسمالية في الدين. فالدين يضع كل شيء في خدمة القضية ألا وهي تحقيق الأمانة على الأرض، ويبعث على التعفف، ويدعو إلى تجاوز الحياة الدنيا إحساسا منه بالرسالة. فالقيم الإسلامية قيم إنتاجية خالصة فيها نفع للناس. وكلها تهدف إلى تحقيق المصلحة العامة، والأخلاق الإسلامية من عفة وزهد وتقشف وتقوى، هي في الحقيقة أخلاق اجتماعية للحد من نمط الاستهلاك لأنه في اليوم الذي يتحول فيه المجتمع من نمط الإنتاج إلى نمط الاستهلاك ومن مجتمع النضال إلى مجتمع الرفاهية ينهار كما لاحظ ابن خلدون.

إن النعمة الحقيقية والسعادة الأبدية ليست في التنعم بمباهج الدنيا بل في العمل على تحقيق الرسالة، وفي أداء الواجب، وفي أن يترك الإنسان وراءه أثرا أو سنة حميدة تتناقلها الأجيال وتتبعها بعده لأن "الآخرة خير وأبقى". ولا يوجد مال حلال لإنسان في مجتمع أغلبيته عارية بلا لباس، وفي العراء بلا مأوى، وجائعة بلا طعام، وأمية بلا تعليم،

ومريضة بلا استشفاء، فكيف ينعم الإنسان بالمال الحلال في واقع كل ما فيه حرام؟

٦- يؤمن الناس بالفردية في الدين، ويدافعون عـن النشاط الحر القائم على المنافسة وبدافع الربح، فقد أكد الدين دور الفرد وأثبت المسئولية الفردية [*]، فلا عجب أن يكـون للفرد الحق في ممارسة نشاطه بلا حدود، واستثمار أموالـه كما يشاء، وتأجير من يعملون له في الأرض أو في المصنع أو في المتجر. وهذا في الحقيقة تفكير رأسمالي تغلغـل فـي الدين، فندافع عن الرأسمالية ونظن أننا ندافع عـن الـدين.

---

[*] روزاليوسف ، سبتمبر ١٩٧٦، وقد وضع رئيس التحرير عنوان: خمس خطايـا رأسمالية أخرى تسللت إلى الفكر الإسلامي.

في العدد الماضي ألقى الدكتور حسن حنفي أسـتاذ الفلسـفة الإسـلامية بجامعة القاهرة، الضوء على خمس "خطايا" من الفكر الرأسـمالى.. تسـللت إلـى الإسلام في مجتمعنا.

واليوم يواصل الدكتور إلقاء الضوء على خمس خطايا أخرى – يختتم بها حديثه الخطير وهي :

*حرية النشاط الفردي.

* حق الملكية المقدس.

* طاعة "أولي الأمر".

* تقديس رجل الدين.

* التحالف مع "الغرب المؤمن".

صحيح أن الإسلام يؤكد على المسئولية الفردية ولكـن فـي الأخلاق والعمل الصالح، وفي الفهـم والتفسـير والتمييـز والإدراك، ولكن ليس في الاستغلال والاحتكار، والمضـاربة في الأسواق والتلاعب في الأسعار. فالجماعة لها حـق فـي مال الفرد، ليس عن طريق الزكاة فقط بل كل مـا تحتاجـه الجماعة، وكل ما يمكن للفرد أن يقدمه من أموال للاستثمار. فإذا ما استغل الفرد أو احتكر كان من حق الدولة المصادرة للصالح العام، والتأميم ورجوع الملكية للمسلمين، كما أن من حق الدولة تحديد الأسعار والرقابة عليها كما هو واضح في وظيفة "الحسبة" في الإسلام.

وقد امتد هذا التصور الفردي الرأسمالي القائم علـى المنافسة والربح في علاقة المتدين بالله. فهو يدفع قرشا لبناء مسجد في الأرض حتى يبنى الله له قصرا في الجنة، ويسابق إلى الخيرات حتى ينال مكانا عليا في الجنة. فالطبقات فـي المجتمع لها ما يرادفها في درجات الجنـة حتـى يحصـل الإنسان على أعلاها بالمنافسة والتسابق. وتقوم العلاقة أيضا على الحساب الكمي، فالحسنة بعشرة أمثالهـا، ويضـاعف

الأجر إلى ما لا نهاية، ومن ثم تكون تجارة رابحة تلك التي يعقدها المتدين مع الله.

وفي مناهج الإصلاح تؤمن بأن صـلاح المجتمـع بصلاح الأفراد، وأن فساد المجتمـع بفسـاد الأفـراد. وأن الرسول قد عني بتربية الأفراد أولا على مدى ثلاثـة عشـر عاما ثم بعد ذلك أسس بناء المجتمع في عشرة أعوام، ونظن أن هذا هو منهج الدين وهو في الحقيقـة أثـر مـن آثـار الرأسمالية في الدين، فالأبنية الاجتماعية هـي التـي تحـدد سلوك الأفراد، والطبقات الاجتماعية هي التي تفرز قادتهـا. وقد كان الأفراد الـذين ربـاهم الرسـول إفـرازا لطبقـة المضطهدين والمستعبدين والأذلاء أو لطبقة الرافضين لفكـر قومهم ودينهم وعاداتهم ومثلهم ومعتقداتهم. وكان ذلك مـن أجل تربية القادة، وهي الطلائع الثورية للجماهير وليس مـن أجل تربية الأفراد لذاتها. وذلك لأن الواقـع كـان مختمـرا بالثورة، وكانت الجماهير تحتاج إلى فكر يعبر عنها وإلـى قادة يوجهون نضالها، وهو ما أعطاه الإسلام.

ونفسر الإسلام أحيانا ونصف انتشاره بأنه دين أتـى للصفوة المختارة قبل أن يأتي للدهماء، وأن الرسول ذاته كان

من قريش، وهي قبيلة من أشرف قبائل مكة، وأنه كان يدعو القبائل أعلاها فأقلها علوا، ويدعو وجهاء القـوم ورؤسـاء العشائر وأغنياء الناس، فالصفوة هي النشطة، القادرة، العالمة التي بها ينتشر الدين في حين أن العامة عاجزة، جاهلة ساكنة لا نصرة فيها أو لها. وهذا هو التفسير الرأسمالي لانتشـار الإسلام. صحيح أن الرسول قد دعا رؤساء القبائـل وذلـك لأنهم القادة، ودعوة القادة فيها دعوة للجماهير ذاتها، وطبقـا للنظام القبلي الذي تتبع فيها القبيلة رئيسها، إذا دخل الـرئيس الدين الجديد دخلت القبيلة كلها. وفي نفس الوقت لم يمنع ذلك من دخل أفراد القبائل الدين الجديد رغما عن رئيس القبيلـة. ومع ذلك فقد رفض القرآن هذا المنهج في الدعوة في حادثة مشهورة "عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يـدريك لعلـه يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى، فأنت عنه تلهى.."، فحذر القرآن من التوجه إلى علية القوم وترك دهمائهم، وكم من القادة فيما بعد قد خرجت من الدهماء!!

كما ندعو إلى التغيير عن طريق الأولوية للـداخل على الخارج ونستشهد بقول الله: "إن الله لا يغير مـا بقـوم

حتى يغيروا ما بأنفسهم". وبالتالي فالأخلاق شرط السياسـة، وإعادة بناء الضمائر شرط لإعادة بناء المجتمع، ونذكر القول المأثور " من أصلح الله جوانيه أصلح الله برانيه". وهذا هـو الفكر الرأسمالي المتغلغل في الدين، إذ يريد النظام الرأسمالي أن يغطي معالم البناء الاجتماعي، وعدم لفت الأنظـار إليـه وذلك بإحالة مشاكله وإرجاعها إلى نفوس الناس، وخـراب الضمائر، وفساد الأخلاق، فيلتفـت النـاس إلـى نفوسـهم ويتركون الواقع الاجتماعي كما يريده النظـام الرأسـمالي، ويقلبون النظرة من الخارج إلى الداخل، ويعكفـون علـى طهارة النفس وتزكيتها، ويكتشفون أن هذا العالم زائل، فيسعد الرأسمالي بما وصل إليه المتدين. وهيهات أن يتغير الواقـع بتغير النفس، فمادام الواقع كما هو فإن البناء النفسـي يظـل أيضا كما هو. ولكن البداية بتغير الواقع، وتحقيق الإصـلاح الاجتماعي من شأنه أن يعيد بناء الأفراد. وهذا لا يمنع مـن أنه في مرحلة بناء القيادات، والطلائع الثورية يمكـن البـدء بتوعية الأفراد، وتوعيـة الجمـاهير، كجـزء مـن البنـاء الأيديولوجي للواقع كله، وهي عملية مواكبة لعمليـة التغيـر

الاجتماعي تحقيقا لوحدة الشخصية القومية، وحتى لا يكون الواقع في جانب والأبنية النظرية في جانب آخر.

٧- ويؤمن الناس بالملكية الفردية ويدافعون عن الملكية الخاصة، فالدين قد سمح بها، والإنسان هو صاحب الحق الأول والأخير فيما يملك، وهي ملكية شرعية ولا يمكن لأحد أن يصادرها أو أن يؤممها أو أن يشارك فيها آخر. والعالم يؤيدها، فالطفل يقبض ما تناله يده ويرفض تركه، ويرفض أن يشاركه لعبه مع الآخرين، والمرأة تحب الخزين. وهذه هي الرأسمالية في الدين، واستغلال الدين والعلم من أجل تأييد النظام الرأسمالي والأيديولوجية التي قام عليها، إذ يدافع الناس عن الدين في صورة الملكية الخاصة، وهم في الحقيقة يدافعون عن الملكية الخاصة في ثوب الدين كأثر من آثار الاستعمار الثقافي وكتعبير عن حب الدنيا التلقائي عند الناس. فالملكية ليست بالضرورة الملكية الخاصة بل هناك صور مختلفة للملكية العامة، ملكية الله، وملكية الدولة، والملكية التعاونية، والملكية الجماعية. وهي ملكيات يؤيدها الدين، وشرعها الفقهاء، ومارستها النظم الإسلامية، ويقول

بها عديد من النظم الاقتصادية اشتراكية ورأسمالية على حد سواء.

فالإسلام لم يعرف الملكية الخاصـة ولكنـه جعـل الملكية لله، والإنسان مستخلف فيما أودعه الله بين يديه، لـه حق التصرف، وحق الانتفاع به. فإذا أضـر بـالغير، وإذا اختزن دون أن يستثمر كان من حق الحاكم أن يصادره وأن يجعله ملكية عامة للمسلمين. هذا بالإضـافة إلـى أن لفظـة "مال" في اللغة ليس اسما وبالتالي لا تشير إلى شيء بل هي اسم صلة "ما" وحرف جر "ل" أي أنها لفظ مركب يدل على علاقة بين الشيء والإنسان، وهي علاقة التصرف والانتفاع فحسب. والملكية المذكورة في القرآن (حوالي ١٢٠ مرة) لا تعنى الملكية الخاصة بل الملكية المعنوية مثل ملـك اليمـين بمعنى الرعاية والعناية، وملك المفتاح بمعنى الائتمان، وملك النفس بمعنى القدرة، وملك خزائن رحمة الله، وملك النبـوة، وملك السماوات والأرض. الملكيـة فـي الإسـلام وظيفـة اجتماعية فحسب يحسن الإنسان إدارتها فإذا أسـاء الإدارة، وظف غيره. وتاريخنا مملوء بالحالات السابقة التي حرم فيها الحكام والفقهاء الملكية الخاصة حتى لا يستكين الناس إلـى

الأرض ويتركوا الغزو في سبيل الله، فضلا عن أن الملكيـة لا تنتج عن ممارسة الأخلاق الإسلامية التي تجعـل علاقـة المسلم بالعالم علاقة أداء ورسالة وليست علاقة ملكية.

وما نقوله في الملكية نقوله أيضا فـي الميـراث، إذ نقاتل بعضنا بعضا من أجل الميراث، ويفكر كل منـا فـي نصيبه راضيا أو كارهـا، ذكـرا أم أنثـى إذا مـا تـوفى الأقربون. وهذا أيضا إيمان بالرأسمالية فـي ثـوب الـدين، ودفاعا عن الدين وهو في الحقيقـة ممارسـة للرأسـمالية. فالميراث، كالملكية لله وحده في الإسلام. ولـم يـرد لفـظ "الميراث" في القرآن بل ورد لفظ "الإرث" بمعنـى ميـراث النبوة والعلم والحكمة والكتاب، والأرض، والجنة، ولم تـرد في أي سياق بمعنى الإرث الشخصي الذي نفرح به ونناله دون ما مراعاة لمبدأ تكافؤ الفرص. والآية المشهورة التـي تنظم الميراث آية شرطية، قد تحدث الحالة وقد لا تحـدث. وإذا كنا نعلم أن المال وظيفة للاستثمار لصالح الجماعة، وأن الجماعة لابد وأنها محتاجة إليه كان الأوقع أن يترك الإنسان هذا العالم دون أن يترك وراءه شيئا إلا من العمل الصـالح. وهل ورث الأنبياء أو ورثهم أحد؟

٨- وكثيرا ما ندعو إلى طاعة أولى الأمر، ونبرهن على ذلك بأن طاعة أولى الأمر من طاعة الله "فـأطيعوا الله، وأطيعوا الرسول، وأولي الأمر منكم"، وننصب أنفسنا دفاعـا عن السلطات الحاكمة ضد الشعوب. وهـذا بالضـبط هـو الممارسة الرأسمالية للدين، والإيمان بـالله علـى الطريقـة الرأسمالية، والإيمان بالرأسمالية في ثوب الدين، وذلـك لأن طاعة أولي لأمر تدفع الناس إلى التسليم، وتبعث فيهم الدعة والسكون، وخير وسيلة لذلك هي استغلال طاعـة الله التـي ترضاها الجماهير. فطالما أن الجماهير مطيعة لله تكون أيضا مطيعة للنظام. ولما كانت الجماهير متدينة وستظل كذلك إلى أجيال قادمة فإن طاعتها للنظـام تكـون مضـمونة علـى الإطلاق، ومن ثم يتحقق للنظام الرأسمالي مـا يبغيـه مـن الإبقاء على الوضع القائم، واتهام كـل صـور المعارضـة بالخروج على النظام، ومن ثم، بالخروج على طاعة الله.

وهذا خروج على الدين، وضياع للأمة، فقـد قـال الدين أيضا " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" ولما كان صاحب رأس المال قد عصـى الله باسـتغلاله واحتكـاره، وسيطرته على أرزاق الشعب، ونهبه لثروات الـبلاد فـإن

الخروج عليه واجب، وتغيير النظام ضرورة. ولقد بشر الدين أيضا كل من رفع سيفه في وجه حاكم ظالم بالجنة، والرأسمالي ظلم الناس باستغلالهم والسيطرة على أرزاقهم، ومن ثم كان قلب النظام الرأسمالية وتقويضها واجبا شرعيا على كل مسلم ومسلمة، وكذلك من الدين أيضا "عجبت لرجل لا يجد قوت يومه ولا يخرج للناس شاهرا سيفه" والرأسمالي منع أقوات الناس وكنزها، وترك المسلمين جياعا، ومن ثم وجب إشهار السيف في وجهه. وقد عبر مصلحونا عن ذلك وعلى رأسهم الأفغاني بقوله "عجبت لك أيها الفلاح، تشق الأرض بفأسك ولا تشق قلب ظالمك". وملاك الأرض وأمراء الإقطاع استولوا على أراضى المسلمين ومن ثم وجب على جماهير الأمة أخذ حقها واسترداد الأرض لذلك تنشر النظم الرأسمالية القيم الخلقية التي تدعو إلى استتباب الأمر واستقرار النظام، وسيادة القانون، وتبشر بأخلاق الشرف والأمانة والاستحقاق وكلها أخلاق يستفيد منها الطبقة الحاكمة والطبقة المتوسطة درعها ومنفذ قانونها وهي التي تحرص على النظام، وتضمن الأمن، فهي المستفيدة من الأقلية الحاكمة بقدر ما تتلقى من موائدها، وبقدر ما ينالها

من رشاويها، وهي المستفيدة أيضا من الطبقة الدنيا باستغلالها لحسابها كما تفعل الطبقة العليا. وتتهم النظم الرأسمالية كل النظم المعارضة بالإرهاب والعنف، وإراقة الدماء، والتعصب، والتبعية والعمالة، والخيانة في حين أن الثورة على نظم الاستغلال والاحتكار جزء من الجهاد المقدس، يحرص المؤمنون على نيل الشهادة فيه.

٩- وكثيرا ما نقدس رجال الدين، نطيعهم طاعة عمياء لا مراجعة فيها ولا استفسار، ونتخذهم قدوة صالحة للسلوك، ونسلمهم رقابنا وثرواتنا. وهذا بالضبط ما تريده لنا النظم الرأسمالية. إذ أنها تقيم لنا مؤسسات دينية، وتدعم رجال الدين كواسطة بين الحق والخلق- وهو ما حذر منه الفقهاء جميعا- يمكن من خلالها السيطرة على المجتمعات. ورجال الدين، في نهاية الأمر، فئة اجتماعية من علية القوم، ويكونون جزءا من الطبقة العليا، يتمتعون بامتيازاتها، ويعيشون على حمايتها، ويتصدرون واجهة القوم، وتأتمر في النهاية بأمرها، فهي ولية نعمتها، وسبب بقائها. ومن ثم، فالسلطة الدينية هي الحليف الطبيعي للسلطة السياسية. تستشهد السلطة السياسية برجال الدين كمثل أعلى للسلوك في

الطاعة الولاء. ولما كانت الجماهير تثق برجال الدين، إيمانا منها بالدين، فإنها تأخذ سلوكهم قدوة، وبالتالي يتحقق للنظام الرأسمالي ما يبغيه من طاعة الجماهير وولائهم له. وإذا أراد النظام الرأسمالي إصدار قانون زيادة في الضرائب أو توفيرا للعمالة أو تحديدا للأجور فإنه يلجأ إلى رجال الدين الذين يقومون بدورهم بتبلغيه للشعب وتبريره وتأييده بالنصوص الدينية، قال الله: وقال الرسول: وإلباسه ثوب الدين فيقبله الشعب راضيا مرضيا. فإذا ثار الشعب بقيادة طلائعه، فإن رجال الدين يقومون بامتصاص ثورته مطالبين بالطاعة والولاء، ومتوعدينه بالويل والثبور. والطرد والحرمان، ومتهمين قياداته بالخروج، وإثارة الفتن، وبث الشقاق، والقضاء على وحدة الأمة!

وكل ذلك غريب على الإسلام، فليس في الإسلام رجال دين. من ثم فإن ادعاء أية سلطة دينية حق التفسير للدين أو التوجيه للجماهير فإنه يكون ادعاء باطلا لا يقره الدين، ولا يبغى وجه الله. وكل توسط بين الإنسان والله هو توسط غير شرعي، فلا وساطة في الدين بين العبد وربه. والاجتهاد حق مشروع للجميع، ولكل مسلم أن يجتهد إذا ما

توافرت فيه شروط الاجتهاد، العالم بالكتاب والسنة والـوعي بمصالح المسلمين، ولكل مجتهد نصيب، وللمخطـئ أجـر وللمصيب أجران، وقد حذرنا الرسول مـن تبعيـة مـدعى الاجتهاد وإلا كان ذلك شركا بالله.

١٠- وعلى نطاق الأحلاف، يظن الناس أن الغـرب المؤمن أقرب إليهم من الشرق الملحد وأن الرأسمالية الغربية قائمة على الدين في حين أن الاشتراكية الشرقية قائمة علـى الإلحاد، ومن ثم كان الغرب هو الحليف الطبيعي للمسـلمين، فهو وإن كان يطمع في أموالنا وثرواتنا إلا أنه لا يطعن فـي ديننا، في حين أن المعسكر الشرقي يطمـع فـي الأمـوال والثروات ويطعن في الدين، ويهدم العقائد، وينشـر الكفـر والإلحاد. ويهدم المعابد. فالاستعمار الغربي استعمار للأرض دون هدم للدين ودون قضاء على العقائد والتراث في حين أن الاستعمار الشرقي استعمار للأرض وهدم للدين وقضاء على العقائد والتراث معا. الاستعمار الغربـي يسـهل استئصـاله بالحرب أو بالسلم في حين أن الاستعمار الشـرقي يسـتحيل استئصاله لأنه يفرض وجوده بالقوة. الحليف الغربي صريح في معاملته، يريد الأرض ويؤمن بالله في حين أن الحليـف

الشرقي منافق يريد الأرض ويدعى الحرية، يسيطر على الشعوب ويرفع شعار الديمقراطية. الحليف الشرقي غير إنساني في نظامه يقهر الفرد ويكبت الحريات في حين أن الحليف الغربي إنساني في نظامه، كريم في معاملته يحترم الفرد ويدافع عن حرياته. هذا هو ما نؤمن به ونظن أنه من الدين في حين أنه في حقيقة الأمر من ترويج الدعاية الاستعمارية في أذهان الشعوب النامية من أجل إعادة السيطرة عليها، وإدخالها في أحلافها العسكرية، ومناطق سيطرتها ونفوذها.

فالغرب في حقيقة الأمر ينافق في الدين، ويظن أن الإيمان هو تستر وتعمية وتغطية على ما يدور في الواقع، ويتهم كل من يضع في الإيمان مضمونا اجتماعيا بالفكر والإلحاد، ويحرص على نشر هذا التصور الضامر للدين، أنه نظريات أو عقائد أو شعائر أو طقوس. في حين أن المبادئ العامة للنظم الاشتراكية وأهدافها من تحقيق للعدالة الاجتماعية، وتذويب للفوارق بين الطبقات، ومن قضاء على روح الاستغلال ووسائل السيطرة والاحتكار، ومن جعل العمل وحده مصدرا للقيمة، ومن جعل الحكم للأغلبية

والتخطيط لصالحها، كل ذلك أقرب إلى روح الإسلام من التستر بالعقائد والشعائر على مظاهر الاستغلال والاحتكار. والذي يهدم العدالة الاجتماعية هو في الحقيقة هادم للدين حتى ولو ملأ الأرض تكبيرا، وعمرها معابدا، وتناثرت فوقها الصدقات.

إن الشعوب المتحررة حديثا بعد أن تحررت من الاستعمار الصريح، العسكري أو الاقتصادي مازالت تحت رحمة الاستعمار الثقافي الذي يبغي الإبقاء على سيطرته على الشعوب وثرواتها من خلال طبقة من أهل البلاد تدين له بالولاء، بولائها للثقافة الأجنبية وتقليدها لها. فبدل أن يحكم الاستعمار مباشرة فإنه يحاول أن يحكم الآن من خلال هذه الطريقة، وهي امتداده في البلاد النامية. وقد آن الأوان للقضاء على الاستعمار الثقافي في البلاد، وتنوير الناس، ورفع الخلط في أذهانهم ورفع الالتباس في نفوسهم عما يظنون أنه من الدين وهو في الحقيقة من الرأسمالية. وهذا هو دور المثقفين الآن.

ماذا تعني أسباب النزول؟ *

إن أهم ما يميز هذا الشهر الكريم هو نزول الكتـب السماوية فيه، التوارة، والإنجيل، والزبور، والقـرآن. فهـو شهر الوحي ورسالات السماء "شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان".

وقد تصور الناس خطأ أن الحديث عن القرآن يـتم عن طريق الحديث عن كلام الله الأبدي، فيجعلونه صفة من صفات الله كما فعل علماء أصول الدين القدماء أو يجعلونـه الكتاب المدون أي المصحف المغلـف بالقطيفـة الحمـراء، الموشى بالذهب إن أمكن، والمغطـى بـالحرير. والمقبـل بالشفاه، والموضوع على المكاتب أو فـي العربـات، وفـي واجهات عـرض محـال التحـف الشـرقية، أو المكتـوب المزركش على لوحة أو على حبة قمح أو على بيضة كما هو الحال في متاحفنا الشرقية.

---

* روز اليوسف العدد ٢٥١٩ ١٩٧٦/٩/٢٠. وقد بدل رئيس التحرير العنوان إلـى "القرآن ليس تحفة شرقية" وصدره بعبارة "والإسلام يرفض الكلام فـي الـدين بـلا مناسبة".

وكلا النظرتين خطأ، فالقرآن وإن كان كـلام الله إلا أنه أنزل إلينا لصالحنا "إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم"، وحديث الله إلينا، فالمقصود هو نحن البشر، والهـدف هـو مصلحتنا، وبالتالي يكون إرجاع كلام الله إلى الله ثانيا مضادا لمقصد الوحي ولغرض الله في حديثه إلينا، فاعتبار كلام الله صفة لله مضاد لكلام الله نفسه الذي أتانا ليبلغنـا الرسـالة، وليشير علينا بما فيه مصلحتنا.

والقضية ليست نزول القرآن من عند الله مباشرة أو في اللوح المحفوظ أولا ثم بعد ذلك إلينا، فكـل ذلـك رجـم بالغيب، وقول بالظن، "وإن الظن لا يغنى من الحق شـيئا". إنما القضية كلام الله هذا الـذي نسـمعه ونتلـوه، ونفهمـه ونفسره، ونجد فيه تحقيقا لمطالبنا وحـلا لمشـاكلنا، ودرءا لمآسينا.

ونخطئ عندما نشغل بالنا بكيفية التبليغ، هـل كـان الرسول وهو بشر يأخذ صورة ملائكية أم هل كان المـلاك يأخذ صورة بشرية؟ هل كان الملاك يأتي وله صوت مثـل صوت الجرس أم كان ينفث في روع الرسول؟ هـل كـان الملاك يأتي الرسول في نومه أم في يقظته؟ كل ذلك لا شأن

لنا به، فبذلك لم نؤمر، وعن مثل هذه الأمور حرم السـؤال. مهمتنا بعد وقوع الكلام وحدوثه وإنزال القرآن محسوسا لدينا نسمعه ونقرأه ونفهمه ونفسره، ونطبقه ونستفيد منه في حياتنا العملية.

ما يهمنا إذن هو نزول القرآن أو وقوعه، وأهم مـا يميز القرآن على الكتب المقدسة الأخرى هو أنه نزل منجما أي مفرقا طبقا للحوادث، وحسب الظـروف، وبنـاء علـى مقتضيات الواقع ومتطلباتـه. وقـد اسـتدعى ذلـك انتبـاه المناهضين للإسلام "وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة" وكان الرد من القرآن أيضا "كذلك لنثبـت بـه فؤادك" أي حتى يعيه الإنسان مع واقعه، وحتى يحفظـه ولا ينساه، فالواقع هو حامل الآيات وحارس الذاكرة وحافظها.

ما يهمنا إذن هو نزول القرآن، وهو ما وصفه علماء التفسير، وعلماء أصول الفقه باسم "أسـباب النـزول" التـي أصبحت شرطا من شروط التفسير والاجتهاد. فمـاذا تعنـي "أسباب النزول" بالنسبة للعصر الحاضر؟

١- الوحى والواقع:

تعنى "أسباب النزول" أن الوحي لم يفـرض علـى الواقع ابتداء بل كان نداء للواقع ذاته، وأن الجزيرة العربيـة كانت تبحث عن فكر يعبر عنها، وعن أيديولوجيـة توحـد قبائلها وعن زعيم أو قائد يقودها وبه تؤدى رسالتها. كانـت اليهودية والمسيحية محدودة الانتشار، ولم تكن تعبر عن واقع العرب إلا في أقل الحدود. عاش اليهود منغلقين على أنفسهم، محصورين فيما بينهم فكيـف يوحـدون القبائـل؟ وعـاش المسيحيون فضلاء أتقياء لا يدخلون في معارك القبائل فكيف يتزعمونها؟ وكان الحنفاء يحظون باحترام الجميع، فقد كانوا على سنة إبراهيم، جد العرب. فجاء الإسلام لنشر الحنيفيـة السمحة "ملة إبراهيم حنيفا" في صورتها العامة وهو الإسلام الذي أصبح الرافد الأساسي في الشعور العربي، والمرحلتان السابقتان للوحي جزء من تاريخه.

أما الوثنية فلم تكن مكونا أساسيا من مكونات الشعور العربي بل كانت لا تتجاوز سطحه، ولا يؤمن بها أحد إيمانا يقوم على التصديق والبرهان.

نستدل من ذلك إذن على أن الواقع له أولوية على الفكر، وبالتالي يكون الإسلام بلغة العصر دينا واقعيا من الأساس وليس فقط في التشريعات على ما هو معروف في مبادئ الاستدلال "لا ضرر ولا ضرار" أو "الضرورات تبيح المحظورات". وذلك يعني أنه مطلب من مطالب الواقع، وأن الواقع هو الذي نادى به، وهو الذي فرضه، فلم يأت عنوة، ولم يفرض غصبا.

وهذا ما قد ننسيناه في حياتنا المعاصرة، عندما نحاول فرض الدعوات السياسية بالسلطة، ونشر المذاهب والاتجاهات عن طريق الدولة، والناس تتساءل عن معنى هذا ومغزى ذاك، حيارى، تقلب وجوهها في السماء باحثة عن شيء يعبر عن واقعها كما عبر الإسلام أول مرة عن واقع الناس في الجزيرة العربية. وتكون النتيجة لا مبالاة الناس أمام ما يعرض أمامها من مذاهب واتجاهات وبحثها في ملفاتها القديمة فتجد الموروث بعبله وبكل ما فيه من حشو فتجتره بلا وعي وبلا انتقاء أو تجد إغراء الجديد فتقلده، وتنعم بتحقيق أشواقها نحو التحديث والتجديد، وفي كلتا

الحالتين لا تجد الناس فكرا يعبر عن واقعها كما عبر الوحي من قبل.

وكذلك عندما يحاول مثقفونا فرض الأفكار والمذاهب الفنية على أذواق الجماهير التي لا تتذوق هذه الأفكار وهـذا الإبداع الفني لعدم ثقافتها وأميتها وجهلهـا بقواعـد الفنـون الحديثة يشكون من سلبية الجماهير، ولا مبالاة النـاس فـي حين أن التغير الاجتماعي لا يأتي عن طريق فرض أفكـار على الناس بل عن طريق التعبير عن واقعها بالفكر وبالفن، وصياغة مآسيها بالنظر وبالتصوير، والتعبير عن أشواقها في أيديولوجية كاملة كما فعل الإسلام أولا.

٢- النص والمصلحة:

وتعنى "أسباب النزول" أيضا أن هذا الواقـع يمكـن إدراكه بالفطرة، ويمكن للآخرين الاتفـاق عليـه وموافقتـه والتصديق به. فقد كان عمر يدرك واقع المسلمين ومصلحتهم بفطرته، وكان يطالب النبى بوحي في هذه المسألة أو في تلك الواقعة ويدرك بحواسه الوحي المطلوب، ثم يـأتي الـوحي مصدقا لإدراك عمر.

وكان الرسول يثني دائما على هـذا الـذي صـدقه الوحي، فعمر هو الذي أدرك بفراسته خطورة الخمر علـى العقل وعلى الحياة العامة فجاء الوحي محرما لها. وهو الذي أدرك خطورة غواية المسلمين في الطرق العامة فنزلت آيـة الحجاب. وكان يدرك بفطرته متى يجب السلام ومتى تحـين الحرب، متى تعقد المعاهدات ومتى تـنقض، متـى تجـب الطاعة ومتى تحين الثورة. كان يدرك بفطرته متـى تجـب الملكية ومتى يفرض إلغاؤها، متى يطبـق الحـد وفـي أي ظرف يوقف، ومن عمر خرج فقه عبد الله بن مسعود، ومنه تأسس فقه مالك، وعن مالك عرفت المبادئ العامة للاجتهاد، المصالح المرسلة، ما رآه المسلمون حسـن فهـو عنـد الله حسن.

فبنظرتنا نحن، وبالتحامنا بالواقع يمكن صياغة حلول لمشاكلنا، تكون بالضرورة مصداقا للوحي. فواقـع مصـر بدخله المحدود لا يقبل إلا مجتمعا لا طبقية فيه، وواقع مصر بأرضها المحتلة لا يقبل إلا توجيه موارد الـبلاد وطاقاتهـا لطرد المحتل، وواقع العالم الإسلامي بتركيز ثرواته في يـد الأغنياء، وشيوع المجاعة والقحط والجفاف وسـوء التغذيـة

والأمراض والأمية لدى عامة المسلمين لا يقبـل إلا بإعـادة توظيف المال العام لخدمة الجماعة، ورد أموال الأغنياء إلى بيت المال.

فالواقع هو الذي يفرض نفسه، وهو أبلغ مـن كـل نص، يختلف في تفسيره المتحذلقون، كل على هواه، دفاعـا عن مصلحته، الواقع هو مصدر الـنص ومنبعـه، والبدايـة بالواقع هو الرجوع إلى المنبع والمصدر والأساس.

٣- الحديث بدون مناسبة:

وتعنى "أسباب النزول" أننا نختار من الوحي في كل مناسبة ما نجد فيه حلا لمشاكلنا مآسـينا. أن كـل محاولـة لتفسير الوحي ككل وأخذه جملة واحدة معارضـة لطريقـة نزول الوحي في البداية، "وقرآنا فرقناه لتقرأه للنـاس علـى مكث" أي أن القرآن يحتوي على حلول لمشاكل عدة لا يؤخذ منها إلا ما ساعد على حل مشاكل الناس وإلا استمع النـاس إلى كل شيء ولم يأخذوا أي شيء! فالوحي قد حـوى كـل شيء. وبه حلول لمشاكل قد تظهر في أي عصـر، "ولقـد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل". فليس الهدف هـو عرضها كلها واستحسانها والثناء عليها، جمعت فأوعت، وإلا

كنا كمن يحفظ قاموسا للغة حتى يتقن اللغة دون أن يأخذ من المفردات ما يحتاجه في موقف معين. ومهـما حفـظ فإنـه ينساها لأنها معرفة لم توظف ولم تسـتخدم فـي حـين أن الكلمات التي يعيها الإنسان في موقف تلعثمه وبحثـه عـن المفردات وهو بصدد الحديث هي التي تبقـى نظـرا لشـدة المحنة وكثرة الاستعمال.

أما ما يحدث اليوم من نشر للوحي، ما نحتاجه ومـا لا نحتاجه. وكأننا نعلن عن سلعة في أجهزة الإعـلام فهـي محاولات للتعمية والتغطية والتستر على ما يدور في الواقع، وتملق لحس الجماهير الديني وتـرك لمشـكلاتها وأزماتهـا وضنكها وهمها، أو نخطب في المصلين ونذكر لهم محاسـن الصلاة ونحثهم على الصلاة! وكأننا نريد إعطاءهم ما لديهم من قبل، أو ندعو الفقراء إلى الفقر ونقول "يأيها الناس، أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميـد"! أو نقـول للجيـاع "جوعوا تصحوا"، أو نقول لمجتمع يعانى من التفاوت الطبقى وسوء توزيع الدخل القومى "ورفعنا بعضـهم فـوق بعـض درجات"، أو نتحدث عن عالم الجن والملائكة فـي مجتمـع يعاني من الجهل والتقليد والتسليم ونحـاول تأسيسـه علـى

عقلانية واستنارة، أو نذكر الحور العين، والجنان والأنهـار، والأشجار والظلال في مجتمع محروم لا مأوى له ولا طعام فنسكنه ونشبعه عن طريق التمني والخيال، ولا ندري أن لكل مقام مقالا.

إن الحديث عن الدين بلا مناسبة، بل لمجرد المهنـة أو التجارة أو لملء الأوقات في أجهزة الأعلام أو للتكسب أو للدعاية والإعلان كل ذلك لا يرضاه الإسلام.

أما الابتهالات والتواشيح والمدائح فكلها ليست مـن الإسلام في شيء بل غناء لأناس يبكون، وطـرب لأنـاس مهمومين، ومدح حيث يكثر المداحون.

لقد سمي الفقهاء من قبل "أهل التنزيل" لأنهم حاولوا استنباط شريعة تصلح للناس في حياتهم، ونحن علـى درب الفقهاء نسير.

مناهج التفسير ومصالح الأمة *

أولا- مقدمة:

أن القرآن هو منبع تراث الأمة وأساس حضـارتها ومصدر معرفتها، والباعث على معظم الحركات الاجتماعية والسياسية على أربعة عشر قرنا من تاريخها.

وأن كل حركات التجديد المعاصرة التي أحدثت أثرا في عالمنا الإسلامي المعاصر إنما خرجت كلهـا مـن فهـم القرآن ومنهج تفسيره. وقد ارتبطت الحركة الوطنية والدعوة إلى الاستقلال في المغرب العربى بالإسلام في ثورة الريف بالمغرب، وحركة التحرر الوطني بـالجزائر، والسنوسـية وعمر المختار بليبيا، وبرابطة علمـاء الجزائـر، وبعلمـاء الزيتونة وجامع القرويين بتونس. كما ارتبطت به أيضا فـي المشرق العربي في الحركة المهدية بالسـودان، والوهابيـة بالحجاز، وبالكواكبي في الشام، وبالأفغاني في مصر. وتعدى الأمر إلى العالم الإسلامي ككل فـي باكسـتان وتصـورها كدولة في شعر إقبال وأخيرا في الثورة الإسلامية بإيران.

---

* الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي في الجزائـر، ذو القعـدة ١٤٠٠، سـبتمبر ١٩٨١.

ولما كان فهم القرآن لا يتأتى إلا بمنهج في التفسـير عن وعي أو لا وعي، فإن مناهج التفسير كانت هي المقدمة الضرورية لفهم القرآن ولتحويله من وحي إلهي إلى مقصد إنساني، ومن كلام الله المنزل على النبي إلى كـلام البشـر الموجه إلى الجماعات الإنسانية المختلفة. ولما كـان هـذا التفسير لا يتم في فراغ بل في زمان ومكان معينـين، فـي لحظة تاريخية محددة فرض ذلك علينا منهجـا معينـا فـي التفسير يأخذ بعين الاعتبار مصالح الأمة وحاجات المسلمين ويواجه قضايا العصر الأساسية. لذلك ارتبط منهج التفسـير الجديد بالمنهج الفقهي القديم لما كان الفقه هو استنباط الأحكام ومواجهة الواقع الجديد. كذلك ارتـبط بحركـات الإصـلاح الديني، يشد أزرها ويقويها ويعيد صياغتها ويطورها. كمـا ارتبط بحركات التجديد المعاصرة التي تود نقـل الإصـلاح خطورة أخرى، من الإصلاح الديني إلى النهضة الشاملة، ثم من النهضة الشاملة وما يتبعها من عقلانيـة وتنـوير إلـى الثورة الاجتماعية والسياسية.

وتستعمل ألفاظ اتجاه، ونظرية، ومنهج بمعنى واحـد تقريبا خشية الدخول في تفريعات نظرية خالصة لا ينتج عنها

أثر عملي. والحقيقة أن التفسيرات القديمة اتجاهات لم تتحول بعد إلى نظريات محكمة أو مناهج مرتبة، تقوم كلهـا علـى مبدأ واحد هو التأويل قبولا أو رفضا وما يتبعه مـن قـول بالمأثور أو بالرأى واعتماد على النقل أو العقل ووقوع فـي التشبيه أو دفاع عن التنزيه. وسيتم الإشارة إليها كمناهج في التفسير، أملا في أن تتحول على أيدي الباحثين من اتجاهات إلى نظريات إلى مناهج محكمة. وقد كتـب هـذا البحـث بطريقة الترقيم للأفكار إمعانا في الوضوح والدقـة، وتجنبـا لفصاحة الخطباء وإحساسات الشعراء وبلاغة الأدباء وحتـى تسهل مراجعتها ومناقشتها وتأسيسا لعقلانيتنـا المعاصـرة، وحرصا على بداهة الرؤية وصدقها.

ثانيا: مناهج التفسير في تراثنا القديم:

ويمكن إحصاء اتجاهات التفسير ونظرياته في تراثنا القديم في عدة مناهج رئيسية هي:

١- المنهج اللغوي:

وقد ظهر هذا المنهج في عدة تفسيرات لغوية نظـرا لأن العصر كان عصر لغة وبلاغة وفصاحة وبيان [(١)]. وكان العرب أهل خطابة وشعر. فكان مـن الطبيعـي أن يظهـر التفسير اللغوي كطابع للعصر خاصة وأن القرآن نفسه كتاب بلاغة، ويمكن استعماله كشواهد لغوية مثل الشـعر العربـي القديم وخطب العرب وأمثالهم. قد آمـن بعـض المسـلمين بالإسلام ابتداء من اللغة وفصاحة القرآن، وظهرت نظريات إعجاز القرآن للباقلاني والجرجاني وغيـرهم ابتـداء مـن الإعجاز اللغوي. وقد قام بهذه التفسيرات اللغويـون ولـيس المفسرين، باعتبار أن القرآن كتاب بلاغـة. ويمتـاز هـذا المنهج بالآتي:

---

(١) الزجاج: إعراب القرآن، ثلاثة أجزاء، تحقيق ودراسة إبراهيم الإبياري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشـر القـاهرة ١٣٨٤/١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٥/١٩٦٣م.

(أ) التأكيد على أهمية اللغة كمدخل لفهـم الـوحي، فالوحي ليس تاريخا مقدسا أو واقعة مميزة فريدة أو شخصـا أو حادثة بل هو كلام مكتوب ومقروء ومسموع ومدون بلغة إنسانية معينة هي اللغة العربية. فالوحي كلام يحمل معـاني تحملها الكلمات. وهنا تبدو أهمية الكلام واللفظ.

(ب) الحرص على الدقة في فهم الألفـاظ، ومعرفـة معاني العبارات، مما يجعل المفسر متمكنا من النص، وهـو الأصل. لذلك اشترط القدماء معرفة اللغـة العربيـة كأحـد شروط التفسير، وبالتالي أمكن تحاشي الأهواء والانفعـالات من تفسير النصوص.

(جـ) معرفة دقيقات المعاني بمعرفة أساليب البيـان العربي في التقديم والتأخير ودلالات الحروف وأنواع الأسماء والأفعال، والمعاني الاشتقاقية للألفاظ مما يجعل اللغة مدخلا دقيقا ومضبوطا للمعاني، والمعاني رؤى للأشياء والوقـائع. واللغة على ما يقول المعاصرون "منزل الوجود".

(د) الحافظ على سلامة اللغة العربية وعلى حيويتها واستمرارها في التاريخ، ودوام لغة القرآن "بلسـان عربـي مبين" (١٩٥:٢٦)، وقوفا أمام مظـاهر الانهيـار اللغـوي

والإهمال والتسيب التي أدت إلى نشأة العامية وسيادتها فـي الأسواق واستعمالها في الحياة اليومية وانزواء لغة القرآن في المساجد والزوايا والمعاهد الدينية.

(هـ) الاقتراب من الصور الفنية ووظيفة "التخييـل" في القرآن الكريم، وإدراك أهميـة مـا سـماه المحـدثون "التصوير الفني" في القرآن، وظهور البعد النفسـي وأهميـة إيصال المعاني عن طريق إحداث الأثر والتأثير في النفـوس عن طريق الصورة الفنية واستعمال الخيال.

ومع ذلك فإن هذا المنهج له عدة عيوب أهمها:

(أ) الوقوع في التفسيرات الحرفية التي تغفل المعاني كلية وتجعل المعركة كلها تدور حول الألفاظ ودلالات الألفاظ ودقيقات المعاني اللفظية وتغفل المقاصد الكلية للوحي، ونحن معروفون بثقافة اللفظ وبحضارة الكلمة، وبسياسة الخطـاب الأجوف، وبخلافات الكلمات الرنانة، وبنظم "الميكروفونـات" العالية وبدخول الحروب بمنطق الناي والربابة وبالعنتريـات التي ما قتلت ذبابة.

(ب) الوقوع في المماحكـات اللفظيـة، والشـواهد التاريخية المتعارضة، والخلاف بين النحاة، بين البصـريين

والبغداديين، والاعتماد على لهجات القبائل، والاحتكام إلى لهجة قريش، وبالتالي استحالة فهم القرآن إلا من اللغويين والنحاة، ولما بعد العهد علينا لم يبق أمامنا إلا بدو الصحراء والعربان.

(جـ) أن اللغة ليست ألفاظا فقط بل هي أيضا معاني. بل أن الألفاظ مجرد وسائل لحمل المعاني. فبالرغم من أهمية ألفاظ القرآن وعباراته إلا أنها مجرد أدوات للتعبير عن المعاني المستقلة التي يمكن إدراكها مباشرة فيما وراء الألفاظ. فالمنهج اللغوي يعطى الأولوية للألفاظ على المعاني من حيث الفهم، في حين أن المعاني من حيث الإدراك لها الأولوية على الألفاظ.

(د) إغفال الواقع الاجتماعي والتاريخي الأول الذي نزلت فيه النصوص وهي المسماة في علوم القرآن باسم "أسباب النزول". وإغفال تطور الشريعة والمسمى أيضا في علوم القرآن باسم "الناسخ والمنسوخ" وكأن النص لا زمان له ولا مكان، وإغفال الفرق بين المكي والمدني، ودلالات علوم القرآن.

(هـ) إغفال واقع المسلمين الحالي وكأن النص ليس خطابا موجها لهم، وكأن حياة المسلمين ليس هـو موضـوع الخطاب ومقصده، وكأن الناس تأكـل اللغـة وتسـكن فـي البلاغة، تحل مشاكلها وأزماتها بالكلمات حتى حـل الشـعر الحديث محل ألفاظ القرآن لأنه يصور مآسي الناس.

(و) استحالة تطبيق المنهج اللغوي اليوم نظـرا لأن إبداع العرب الآن لم يعد في اللغة بل ربمـا فـي حركـات التحرر الوطني وثوراتهم ضد الاستعمار وسـعيهم للوحـدة، وبدايتهم للنهضة، وأصالتهم كشـرط لإبـداعهم، وتميـزهم وهويتهم التي لم تتميع أو تتغرب بعد.

٢- المنهج التاريخي:

وهو المنهج السائد في كتب التفاسير الضخمة والتي غاب عليها منهج النقل والرواية[١]. ومعروف عـن القـدماء

---

[١] ابن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، المطبعة الأميريـة، القـاهرة ١٣٢٣هـ. الحسين بن مسعود البغدادي: معالم التنزيل، القاهرة، المنار ١٣٤٥هـ. الحافظ عماد الدين بن كثير: تفسير القرآن العظـيم، المطبعـة التجاريـة، القـاهرة ١٣٥٦هـ. عبد الرحمن الثعالبي: الجواهر الحسان، الجزائر ١٣٢٣هـ. جلال الدين السيوطى: الدر المنثور، المطبعـة الحسـينية= القـاهرة ١٣١٤هـ. أبـو طـاهر الفيروزبادى: تنوير المقياس من تفسير ابن عباس، المطبعـة الأزهريـة، القـاهرة ١٣٤٤هـ أبو الليث السمرقندى: بحر العلوم، مخطوطة بدار الكتـب رقـم ٣. أبـو

باسم "التفسير بالمأثور". وقد ظهر هذا الاتجاه فـي عصـر كانت المعرفة فيه تأتي عن طريق النقل والرواية، وتبجيـل الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، وأهمية الأوائـل علـى الأواخر، وفضل السلف علـى الخلـف، والحـرص علـى التدوين، وذكر المآثر وحفظ التراث. وتمتاز هذه التفسـيرات بالآتي:

(أ) المعلومات التاريخية الواسعة فـي موضـوعات الوحي وتدوين القرآن والسنة وحياة الرسـول والصـحابة، وكيفية نشأة الدولة الإسلامية والفتوح حتـى أنـه ليصـعب التمييز بينها وبين كتب التاريخ. وقد قام بها المؤرخون مثـل الطبري وابن كثير، وكأن التفسير هو إعطاء أكبر قدر ممكن من المعلومات حول الموضوع.

(ب) الموضوعية والنزاهة والحياد والتقوى الباطنية نظرا لأنهم كانوا يروون عن الصحابة والتابعين، فلا يوجـد أثر كبير للخلافات المذهبية والعقائدية إلا القليـل. وظهـرت

اسحق الثعالبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، مخطوطة بالأزهر رقـم (١٣٦) ٥٥٦١. أبو عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيـز، مخطوطـة بدار الكتب رقم ١٠/٣٥٦.

الثقافة العربية الممثلة في الشعر القديم كأحد شواهد التفسير. وكانت تظهر به أحيانا بعض الجوانب الفقهية واللغوية.

ولكن عيوب هذه التفسيرات أكثر فمنها:

(أ) احتمال وقوع الخطأ في منهج الرواية والنقل وبالتالي يكون التفسير كله خطأ، وعدم وجود مقياس آخر لصدق المعرفة مثل العقل أو الحس والمشاهدة لصحة النقل، بالرغم من أنها مقاييس موجودة سلفا في شروط التواتر. فالاعتماد على الصدق الخارجي وحدة لا يكفى لإيجاد الصدق الداخلي.

(ب) دخول كثير من الإسرائيليات نتيجة للنقل والرواية ونظرا لعدم التمييز بين مصادر النقل وبالتالي دخول كثير من أساطير الأولين وقصص الأنبياء وتفصيلات لم يذكرها القرآن وفي كثير من الأحيان موضوعة من الأدب الشعبي.

(جـ) تحويل الوحي إلى أشياء ووقائع وحوادث وشخصيات في حين أن الوحي حقائق وتجارب بشرية. ويصاب الإنسان سريعا بالملل والضجر من هذه التفسيرات نظرا لعدم وجود أي بناء روحي ذاتي كما هو الحال في

التفسير الصوفي. وكثير من المعلومات غير موجهة لغاية أو لهدف وكأن المعلومات وسيلة وغاية في نفس الوقت.

(د) ربط القرآن بظرف تاريخي واحد في حين أن التاريخ متجدد وحوادثه متغيرة، وبالتالي تحويل الوحي إلى تاريخ حقبة معينة من الزمان لشعب معين في منطقة جغرافية بعينها وهذا إنكار لحقائق الوحي العامة.

(هـ) عدم الاعتماد على العقل والنيل من التفسير بالرأي واعتباره هوى، وبالتالي يكون أقل قيمة من التفسير بالمعقول، وإغفال المعاني المستقلة عن التاريخ التي يدركها وتكشف عنها التجارب الإنسانية.

(و) إغفال الواقع التاريخي الحالي والذي لا يمكن للمؤرخ المفسر القديم أن يتنبأ به، فالتفسير هنا يتعامل مع الماضي وليس مع الحاضر، ويتعامل مع التراث القديم وليس مع الإبداع الحالي، فكأن الوحي موضوع القدماء لا شأن للمحدثين به.

٣- المنهج الفقهي:

وهو المنهج الغالب على التفسيرات للقـرآن لرصـد أحكام الشريعة [١]. وقد نشأت في وقت تدوين الشريعة وذكر الخلافات بين المذاهب، وظهور فقه الفرق الدينية ومحـاولا تأسيس دويلات مذهبية فـي حاجـة إلـى نظـام سياسـي واجتماعي. وتمتاز هذه التفسيرات بالآتي:

(أ) إعطاء أهمية قصوى للجانـب التشـريعي فـي الوحي وبيان أن الوحي ليس مجرد عقيدة بل شـريعة، وأن الشريعة ليست فقط من استنباط الفقهاء بل منصوص عليهـا في الوحي، وأنها قادرة على تنظيم مجتمع وتأسيس دولة.

(ب) تجاوز الخلاف المذهبي العقائدي إلى نوع من وحدة التشريع للأمة الإسلامية ومحاولة الاجتماع على الحـد

---

[١] الجصاص: أحكام القرآن، الهيئة المصرية، القاهرة ١٣٤٧هـ (حنفي). أبو بكـر بن العربي: أحكام القرآن، السعادة، القاهرة ١٣٣١هـ (مالكي). القرطبـي: الجـامع لأحكام القرآن، دار الكتب، القاهرة ١٩٣٥-١٩٤٥ (مالكي) . مقدام السيوري: كنـز العرفان في فقه القرآن، تبريز ١٣٣١٤هـ (اثنا عشري). الكيا الهراسـي: أحكـام القـرآن، مخطوطـة بمكتبـة الأزهـر رقـم (٣٩٨) ٧٨٦٦ (شـافعي). الجـلال السيوطي:الإكليل في استنباط التنزيل، مخطوطة بمكتبة الأزهر رقم ١٧٨٥ (شافعي). يوسف التلاني: الثمرات اليانعة، مخطوطة بدار الكتب رقم ٤١ (زيدى).

الأدنى من الاتفاق العملي على تسيير حياة الناس بعد الوقوع في الحد الأعلى من الخلافات النظرية.

(جـ) تنوع التفسير الفقهي طبقا للمذاهب الكلاميـة وبيان كيف أن الشريعة بالرغم من أنها نظام عملي إلا أنهـا تخضع لفلسفة التشريع أي للعقائد النظرية. فالقانون أساسـا تصور للقانون يقوم على غاية ويخدم مصلحة.

ومع ذلك فلهذه التفسيرات بعض العيوب منها:

(أ) ابتسار الوحي وتقليصه ورده إلى أحد جوانبـه وهي الشريعة، والوحي عقيدة وشريعة، تصور ونظام، نظر وعمل.

(ب) سيادة الخلافـات المذهبيـة والعقائديـة علـى التفسير، وتوريث هذا الخلاف حتى الآن لعشرات الأجيـال، وبالتالي ضياع الوحدة الباطنية في الشريعة التي تعبر عـن وحدة الأمة. لقد اختلفت الآراء وكشفت عـن درجـة مـن التعصب والتحامل. وأصبح يضرب بها المثـل الآن علـى التشتت والتفرق بقولنا سخرية لحل أي معضلة "فيها قولان"!

(جـ) عدم بيان الحكمة من الشريعة ومقاصد الوحي والوقوع أحيانا في الصورية الفقهية وكأن القانون لا هـدف

له ولا غاية، وبالتالي غياب التفسير بالمقاصد والغايات، ومن ثم ظهرت بعض القوانين منتفية للحكمـة، ضـارة بالنـاس خاصة في فقه الفرق.

(د) ارتباط الشريعة بالظروف التاريخية القديمة التي كانت وراء استنباطها وتغير هـذه الظـروف الآن ووجـود ظروف تاريخية أخرى تجعل الفقه القديم بغير ذي دلالـة أو نفع في كثير من الحالات.

(هـ) عدم تطوير الشريعة طبقا لظروف كل عصر، وبقائها في نفس الظروف القديمة وتثبيتها على ذلـك حتـى تحولت من فقه تاريخي خاص إلى فقه كلي وشـامل لكـل العصور فتحجرت، وضاعت حياتنا وبحثنا لمجتمعاتنا عـن نظم وشرائع أخرى أكثر تطورا أو ملائمة.

(و) اختلاف الحكم النظري الفقهي عن الواقع العملي مهما حدث تجديد في الجانب الأول مثـل قـانون الأحـوال الشخصية، وقوانين الربا وتشريعات العمل، وكـأن الواقـع يفرض تشريعه الخاص طبقا للمصلحة العامة ويجـب كـل تشريع مستنبط سلفا.

٤- المنهج الصوفي:

وقد ظهر هذا المنهج في التفسيرات الصوفية الكلية أو الجزئية [(١)]. وقد ظهرت هذه التفسيرات في ظروف تاريخية خاصة بعد تكوين جماعات الرفض السلبية وانتهاء جماعات الرفض الفعلية وتصفيتها واستئصال مقاومة آل البيت والشيعة والخوارج، ولجوئها إلى الرمز والإشارة تخفيا عن الأعين، وإنقاذها النفس دون الغير، والباطن دون الظاهر، ووقوعها في الحب الإلهي كتعويض عن الكرة الإنساني، وقد امتاز هذا المنهج بعدة أشياء منها:

(أ) البدء بالتجربة الحية وليس بالنص، وتجاوز منهج النقل والرواية إلى منهج التجربة الباطنية: عن قلبي عن ربى أنه قال....، والبحث عن التجربة الحية وراء النص والتي خرج منها حتى يمكن تأويله بإعادة نفس التجربة وفهمه ابتداء منها.

[(١)] سهل التستري: تفسير القرآن الكريم، السعادة، القاهرة ١٣٠٨هـ. أبو محمد روزيهان: عرائس البيان في حقائق، الهند، ١٣١٥هـ. عبد الرازق القاشاني: تفسير ابن عربي (تأويلات القاشاني)، الأميرية، القاهرة ١٢٨٣هـ. أبو عبد الرحمن السلمي: حقائق التفسير، مخطوطة بمكتبة الأزهر رقم ١٠٩٣. نجم الدين داية وعلاء الدولة البياناكى: التأويلات النجعية، مخطوطة بدار الكتب رقم ٣٦.

(ب) تحويل الوحي إلى تجـارب إنسـانية عامـة بصرف النظر عن إيمان الفرد ومذهبه وملته وهي التجارب التي تشارك فيها الإنسانية جمعاء، حقائق وجدانيـة بديهيـة تكشف عن جوهر الإنسان والحياة وتكون معادلـة للـوحي، فالوحي كشف للطبيعة ورؤية للوجود وليس قهرا لها أو إدانة له.

(جـ) النظر بعين الوحدة إلى كل شيء، إلى قوى الإنسان النظرية والعمليـة، واللغويـة والفكريـة، القوليـة والفعلية، النظرية والوجدانية، الذاتية والموضوعية، الأنانيـة والغيرية، والوصول إلى نظرية عامة في الوحـدة، وحـدة الشهود، وحدة الوجود، وحدة الأديان تكشف عن أحد معاني التوحيد.

(د) إعطاء الأولوية للجانب العملي علـى الجانـب النظري، والبداية بالعمل من أجل الوصـول إلـى النظـر، والتركيز على أهمية الرياضة والمجاهدة مما يجعل الصوفي نشطا متحمسا فاعلا عاملا مؤثرا مجاهدا.

(هـ) أهمية الارتقاء والحركة والتطور والاتجاه نحو القصد والهدف أو ما يسمى بالغائية، وتحقيق هذا الهدف على

مراحل وتدبر بناء على خطة يتم إنجازهـا فـي الزمـان، والقدرة على الانتظار، والتخطيط البعيد المدى.

(و) أهمية الصراع والتنافس والتقابل والتعارض في أحوال النفس، ومن هذا الصـراع ينشـأ جـدل العواطـف والانفعالات من غيبة وحضور، صحو وسكر، هيبة وأنـس، خوف ورجاء، فقد ووجد.

ومع ذلك فالمنهج الصوفي له بعض العيوب منها:

(أ) الوقوع في التأويل بلا شروط من اللغة أو أسباب النزول حتى ابتعد التفسير عن واقعه الأصلي وأصبح غايـة في ذاته يهدف إلى إشباع الـذوق النظـري والوجـداني، واستحالة المعنى الواضح، وتحويل الحكـم إلـى متشـابه، والظاهر إلى مؤول، والمبين إلى مجمل، والحقيقـي إلـى مجازى.

(ب) الإيغال في التحليلات النظريـة خاصـة فـي التصوف النظري، وتحويل الوحي إلـى تـأملات الهيئـة ونظريات ميتافيزيقية ابتعدت عن الحياة العملية وليس لها أي أثر على الأوضاع الاجتماعية والسياسية.

(جـ) التطرف في الجانب الوجداني في التصـوف العملي بعد تحوله إلى علم لبواطن القلـوب حتـى أصـبح التصوف تيارا معاديا للعقل والنظر، وغاب عليـه الكشـف والإلهام والعلم اللدني، وحل الخيال محل الفعل، والوهم محل الواقع، وتخيل الصوفي واهما أن التوحيد قد تحقق في الوحدة بالفعل.

(د) إعطاء الأولوية المطلقة للداخل علـى الخـارج وللباطن على الظاهر، وللقلب على الجوارح، وللذاتية علـى الموضوعية، وللأخلاق الباطنيـة علـى الـنظم السياسـية والاجتماعية الخارجية حتى اسـتحال العمـل فـي العـالم الخارجي.

(هـ) الوقوع في العزلة وترك المشاركة، وإعطـاء الأولوية للفرد على الجماعة وللأنا على الآخـر، وبالتـالي استحال العمل مع الجماهير وفي التاريخ باسـتثناء الطـرق الصوفية كجماعات مغلقة.

(و) إسقاط التدبير، والوقوع في الجبريـة المطلقـة، وإسقاط الشرائع والتكاليف، ومحو الفـروق بـين الأحكـام الشرعية طبقا لمنظور الوحدة الشاملة، تحريم المبـاح، ورد

المكروه إلى المحرم، والمندوب إلى الواجب، ثـم إسـقاط المحرم والواجب في حالة الفناء.

٥- المنهج الفلسفي:

ويظهر هـذا المـنهج فـي التفسـيرات الفلسـفية والاعتزالية التي تقوم على العقل دون النقل، وتشارك المنهج الصوفي في التأويل وأن كانت تختلف معه في منهج التأويل العقلي أم الباطني [(١)]. وقد ظهرت هذه التفسيرات بعد عصر الترجمة واطلاع المسلمين على الثقافات المجاورة، ثم تمثلها وفهمها والرد عليها بالاعتماد على العقل والنظر وليس على

---

(١) من تفسير الفلاسفة:

الفخر الرازي: مفاتيح الغيب، الأميرية، القاهرة ١٢٨٩هـ. البيضـاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العربية، القـاهرة ١٣٣٠هـ. النسـفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، السعادة، القاهرة ١٣٢٦هـ. الخازن: الباب التأويـل في معاني التنزيل،التقدم= القاهرة ١٣٢١هـ. أبو حيان: البحر المحـيط، السـعادة، القاهرة ١٣٢٨هـ. الحلال المحلى والجلال السيوطي: تفسير الجلالـين، دار إحيـاء الكتب، القاهرة ١٣٤٥هـ. النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الأميريـة، القاهرة ١٣٢٢هـ. الخطيب الشربيني: السراج المنير، الأميرية، القاهرة ١٢٩٩هـ. الألوسي: روح المعاني، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة .

ومن تفسير المعتزلة:

القاضى عبد الجبار، تنزيه القرآن عـن المطـاعن، الجماليـة، القـاهرة ١٣٣٩هـ. الشريف المرتضى: آمـالي الشـريف المرتضـى، السـعادة، القـاهرة ١٣٢٥هـ. الزمخشري: الكشاف، مطبعة محمد مصطفى، القاهرة ١٣٠٨هـ.

النص الحرفي. وشارك في ذلك المعتزلة أولا ثم الفلاسفة ثانيا نظرا لما بينهما من اتفاق حول منهج العقل والنظر.

وقد كان لهذه التفسيرات عدة مزايا أهمها:

(أ) تجاوز منهج النص والنقل والرواية، ومحاولة التعرف على المعاني المستقلة وإدراكها وإيجاد الأدلة على صدقها من داخل المعنى وليس من خارجه، حتى أصبح الوحي مرادفا للفلسفة، لا فرق بين الدين والفلسفة أو بين النبوة والعقل.

(ب) البعد عن التعصب وتكفير الخصوم وإيثار التسامح واتساع الأفق والنظرة الشمولية، وضم الخصوم كحالات جزئية في تصور أعم وأشمل بل والدفاع عنهم ومحاولة إقالتهم من عثراتهم وإيجاد الأعذار لهم.

(جـ) القدرة على التعامل مع الحضارات الأخرى واحتوائها وتمثلها والرد عليها وأخذ الحقائق من أي حضارة ومن أية أمة بل والدفاع عن فلسفة الأمم الأخرى ومفكريهم وشرحهم وتعميقهم وجعلهم روادا للفكر البشري.

ومع ذلك فهناك بعض العيوب مثل:

(أ) الوقوع في التأمل النظري الخالص والشطحات الفلسفية والنظريات البعيدة عن التصديق إذ أن العقل قادر على تبرير كل شيء وعلى السير في كل طريق وأصبح البحث عن الحكمة غاية في ذاتها.

(ب) الإيغال في تحليلات العقل حتى أصبح حاويا لكل شيء مقياسه الاتساق. تحول الواقع كله إلى معقول، ولم تعد هناك تجربة أو واقعة أو أمر يند عن العقل. المنطق عقلي، والطبيعيات عقلية، والإلهيات عقلية، والشر عقلي، والموت عقلي.

(جـ) تسرب بعض آثار الفلسفات القديمة من الحضارات المجاورة من فارس واليونان وتحويلها إلى نظريات إسلامية مما أحدث تغييرا في بعض محاور الحضارة الإسلامية ومراكزها مثل الإلوهية، وخلق العالم، وخلود النفس، في حين أنها حقائق واضحة بذاتها في الوحي لم تكن بحاجة إلى كل هذا العناء.

(د) ظهور بعض الجوانب الإشراقية بالرغم من سيادة العقل كما ظهر في نظريات الاتصال بالعقل الفعال ونظريات الفيض أو الصدور التي تكشف عن الإشراق في

المعرفة وفي الوجود، ثم انتقال ذلك إلى السياسة، والمجتمـع فنشأ الإشراق الاجتماعي والسياسي في "المدينة الفاضلة" من القمة إلى القاعدة.

(هـ) سيادة التصور الحيوي في الطبيعـة والفلـك، وظهور نظريات العقول العشرة والنفوس والأفلاك، وشـوق الطبيعة وسعيها نحو معشوقها. الأفلاك لها عقول ونفـوس، وبتحركاتها وأدوارها تتحكم في كل شـيء علـى الأرض، تسجد لله، وتسبح بحمده، وهو من نتائج الإشراق العلمي.

(و) غياب الواقع الاجتماعي والمشاكل اليومية، وكأن هذه النظريات كانت فلسفة للخاصة الدائرة في بلاط الحكـام وحلقات العلماء لا شأن لها بفلسفة العامة وبمشاكل النـاس. تنشأ في فراغ، وتدور في فراغ كما كانت فلسفات القدماء.

٦- المنهج العقائدي:

وهو المنهج السائد في تفسيرات المتكلمين وعلمـاء أصول الدين وكتب العقائد والفـرق[١]. وقـد نشـأت هـذه

---

[١] (تفسيرات الإمامية الاثنى عشرية):

عبد اللطيف الكارزاني: مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار، طبع العجم ١٣٠٣هـ. الحسن العسكري: تفسير العسكري، طبع تبريز ١٣١٤هـ. أبـو علـى الطبرسي: مجمع البيان، طبع طهران ١٣١٤هـ. ملا محسن الكاشي: الصافي، طبع

التفسيرات كجزء من المعارك السياسية والتي أخذت طابعـا عقائديا طالما كانت العقيدة في المجتمعات الإسـلامية تقـوم بوظيفة الأيديولوجية السياسية. وتمتاز هذه التفسيرات بالآتي:

(أ) الالتزام بالقضايا السياسية والاجتماعيـة دون أن تقع في التراهات النظرية والتأملات الميتافيزيقية، وتوجيـه العقيدة للعمل السياسي وفرض العمل السياسي نفسـه علـى العقيدة.

(ب) التعبير عن المواقف السياسية التي تعبر بدورها عن صراع القوى الاجتماعيـة فـي المجتمـع الإسـلامي، والكشف عن تاريخ الصراع الاجتماعي في أسسه النظريـة في العالم الإسلامي.

(جـ) صياغة مبادئ الأيديولوجية الإسلامية وظهور إرهاصات هذه الصياغات في الأصول الخمسة عند المعتزلة أو في مبادئ التوحيد والعدل عند الخـوارج أو فـي عقائـد الشيعة الأمامية.

فارس ١٢٤٤هـ. السيد عبد الله العلوي: تفسير القرآن، طبع طهـران ١٣٥٢هـ. سلطان الخراساني: بيان السعادة، طبع طهران ١٣١٤هـ . الشوطاني: فتح القـدير، الحلبي، القاهرة ١٣٤٩هـ (زيدي). محمد أطفيش: هميان الزاد إلـى دار المعـاد، زنجبار ١٣١٤هـ (خارجي).

(د) استطاع البعض منها تكوين دول مثـل الدولـة الأموية على عقائد المرجئة، والدولة الفاطمية علـى عقائـد الشيعة، والدولة الحجازية اليـوم علـى الـدعوة الوهابيـة، والجمهورية الإسلامية بإيران على الثورة الإسلامية.

ومع ذلك يعاب على هذه التفسيرات عدة أمور منها:

(أ) الوقوع في الشيئية في العقائد والتفسير الحرفـي للنصوص وتصور العقائد على أنها أشياء وليسـت بواعـث للسلوك، والجنة والنار على أنها أماكن، واليوم الآخر علـى أنه نهاية للزمان، والتقوى على أنها شعائر، والإيمان علـى أنه مظاهر.

(ب) الاعتماد على النص، وجعل العقل لاحقا للنص كما هو الحال عند الحشوية وأهل الظاهر خاصة وأهل السنة عامة مما جعل وظيفة العقل في تبرير المعطيـات اعتمـادا على سلطة الكتاب وليس في تحليل الواقع اعتمادا على نفسه.

(جـ) الدخول في معارك نظرية لا ينتج عنها أثـر عملي مباشر مثل الذات والصفات وخلق القـرآن، ولـو أن دلالاتها الحضارية معترف بها مما دعا البعض إلى "إلجـام

العوام عن علم الكلام" واعتباره هوى، يبعد الإنسان عن العمل ويوقعه في المحظور منه أو المشكوك فيه.

(د) إخراج بعض النظريات لتبرير النظم القائمة مثل القضاء والقدر لتبرير شرعية الدولة الأموية والرضوخ لها والتسليم بها، وعقائد الإمامة من قريش، وتأجيل العمل على الإيمان استبعادا للمعارضة القومية أو لترك العمل السياسي.

(هـ) تركيز المشكلة السياسية كلها حول موضوع الزعيم أو الإمام وصفاته دون التعرض للجوانب الأخرى مثل التنظيمات الشعبية والمؤسسات الدستورية وكأن السلطة السياسية هي محور الدولة وأداة التغيير دون غيرها.

(و) القضاء على وحدة الأمة من خلال التفرق والتشيع والتحزب "كل حزب بما لديهم فرحون" (٣٠:٣٢) وتكفير بعضها البعض، فاستحال الحوار، وسالت الدماء، أخذ أصحابها لقب أهل الأهواء والبدع والزيغ وليس أهل الفكر والنظر والبرهان.

(ز) سادت فرقة واحدة هي فرقة أهل السنة التي تتصور التاريخ على أنه انهيار مستمر من الوحدة إلى الفرقة، ومن الإيمان إلى الكفر، ومن الهداية إلى الضلال،

فالسلف خير من الخلف مما دفع بالشيعة إلى التصور المعارض وهو الخلاص في المستقبل على يد المهدي المنتظر، فالتاريخ تقدم وازدهار وتفجر وثورة.

٧- المنهج العلمي:

وهو المنهج الذي ظهر أخيرا بعد أن بدأت الأمة الإسلامية دورتها الحضارية الثانية فترجمت عن الغرب من جديد. ولما كان الغرب قد أقام حضارته هذه المرة على العلم فقد بدأت ترجمات الكتب العلمية والترويج للنظريات العلمية حتى أصبح العلم أحد المحاور الجديدة في حياتنا الثقافية تقليدا للغرب وتمثلا لنظرياته العلمية وليس تأصيلا للعلم القديم. فكان من الطبيعي أن تنشأ التفسيرات العلمية للقرآن متبنية بعض نظريات العلم ورافضة للبعض الآخر بناء على تصورنا الإسلامي المحافظ للإسلام ونقلنا للعلم الغربي دون الحصول على مقدماته وشروطه[١].

ولهذه التفسيرات بعض المميزات أهمها:

---

[١] طنطاوي جوهري :الجواهر في تفسير القرآن الحكيم، مصطفى الحلبي، القاهرة ١٣٤٠-١٣٥١هـ. أبو زيد الدمنهوري: الهداية والعرفان، مصطفى الحلبي، القاهرة ١٣٤٩هـ.

(أ) الرغبة في التحديث والجرأة على الجديد والإقبال على منجزات العصر، وخروج من التقوقـع علـى الـذات، وإعادة التعلم من الغير، وأخذ الحكمة من أي مصدر كانـت حتى ولو كانت من الأمم القاصية عنا مما يعطي هذا التفسير ميزة على تفسير القدماء.

(ب) احترام العلم نسبيا وتوجيه العقل نحو العلم مما يساعد على إعادة التوازن في حياتنـا القوميـة بـين العلـم والدين، ومواجهة لون آخر من ألوان الفكر البشرى من جهد العلماء وليس فقط من عطاء الأنبياء.

(جـ) اللحاق بآخر إنجازات العلم وإعادة التفسيرات طبقا لآخر النظريات العلمية، وبالتالي الاتجاه أكثـر فـأكثر نحو التفسير الزمني التاريخي المتغير فـي مقابـل التفسـير الأبدي الدائم الصالح في كل زمان ومكان.

ومع ذلك فإن عيوب هذه التفسيرات كثيرة منها:

(أ) البداية من الآخر ولـيس مـن الـذات إحساسـا بالدونية أمامه فينشأ مركب النقص لدينا أمام الغير، ونتحول إلى مستهلكين لحضارة الغير لا مبدعين، ناقلين لا مكتشفين، تلاميذ إلى الأبد دون أن نكون أساتذة.

(ب) استمرار النقل المستمر إلى فترة طويلـة دون اللحاق بالنظريات العلمية؛ لأن معدل إنتاج الحضارة العلمية أسرع بكثير من معدل الترجمة عنها، فنظل لاهثين، وتصيبنا الصدمة الحضارية، وكلما ترجمنا تتسع الفجوة بـين الأنـا والغير، ويكون التخاف هو قدرنا.

(جـ) اقتلاع العلم من جذوره في الغرب وأخذ آخر منجزات العلم دون التصور العلمي للعالم الذي ينشأ بناء على تطور العلم وظروف نشأته وتغييـره للـوعي الاجتمـاعي القومي لدى الشعوب، والشهادة في سبيله. فأخذ العلـم دون التصور العلمي يجعل العالم مجرد ترجمات ومعـارف دون أن تحدث إعادة بناء لتصورنا للعالم علـى أسـاس تصـور علمي، ونكون كالحمار يحمل أسفارا، مثقفين وعلماء يحملون المعارف وعاجزين عن تحليل الواقع علميا.

(د) الانقطاع عن تراث الأمة العلمي والجهـل بـه والانفصال عنه وهو الذي قام على تصور علمي للعالم لـم يقدر له أن يعيش في وعينا القومي، وهو الذي سـاهم فـي تطور العلم الغربي وفي أحداث التصور العلمي المصـاحب

له، ولا يكفى في هذه الحالة مجرد الفخر بالإنجازات العلمية للآباء والأجداد صناع الحضارة، ومعلمي البشرية.

(هـ) الإعجاب بالعلم دون غيـره مـن إنجـازات الحضارة الغربية في الفن والسياسة والاقتصـاد والاجتمـاع وأساليب الحياة، في حين أن العلـم الغربـي أحـد مظـاهر الحضارة الغربية، ومرتبط بها ارتباط الجزء بالكل، فأخـذنا العلم دون حضارة العلم وزرعناه في بيئة ثقافية ليست بيئتـه فحدث التجاور في حياتنا بين الحاسب الآلي وضريح الولي.

(و) البداية بالعلم وتفسير الدين طبقا لآخر اكتشافاته يعطي العلم زمام المبادرة ويجعل الدين مجرد لاحق بـالعلم. فيكون الفضل للعلم على الدين، ويمكن السبق للعلماء علـى الأنبياء، ويكون النبي هو العامل المحرك للمطلق، مما يعطى العلم أكثر مما يستحق والدين أقل مما يستحق.

(ز) التوفيق بين الدين والعلم وأخذ من العلم ما يتفق مع الدين ورفض ما يخالفه (التفسير المحافظ) أو أخـذ مـن الدين ما يتفق مع العلم (التفسير التقدمي) وبالتـالي ابتسـار العلم والدين معا، وتأويل أحدهما بالآخر مما يؤدى إلى سوء فهم للدين والعلم على حد سواء.

(ح) سوء فهم العلم حتى يمكنه تأييد الـدين خاصـة الإيمان بالغيبيات وسوء فهم الدين لتأييد العلم الـذي يسـمح بتأويل الغيبيات وسوء تفسير العلم واتهام بعـض نظرياتـه بالإلحاد أو الكفر وسوء تفسير الدين لإدانة العلم أو لإعـلان برائته، والوقوع نهائيا في ازدواجية المعرفة والمنهج.

(ط) تحويل الأمر كله إلى مكسب وتجارة من أجهزة الإعلام في مجتمعات أمية متعلمة تتعجب من حكمة الله فـي المخلوقات ومن إيمان العلماء بالغيبيـات، فيرسـخ إيمانهـا المحافظ الذي يؤيده العلم ولا ترى في العلم إلا تأييدا لعقائـد الإيمان.

(ى) إغفال القضايا الاجتماعية والسياسية التي تشغل بال الجماهير والتي عليها يتوقف حياتهما وتزييـف الـوعي القومي بشغله بموضوعات تبعده عـن واقعـه الاجتمـاعي والسياسي وكأن الله لا يظهر إلا في الطبيعة دون المجتمع.

٨- المنهج الإصلاحي:

وهو المنهج الذي ظهر فـي تفسـيرات المصـلحين الدينيين منذ القرن الماضي تعبيـرا عـن أوضـاع الأمـة الاجتماعية والسياسية ومحاولـة تغييرهـا والنهـوض بهـا

والقضاء على مظاهر التخاف فيها من احتلال وتفكك وتسلط وفقر وجهل وفتور، وهو آخـر المنـاهج صـياغة وتقـدما وإرهاصا وتجاوزا لمناهج القدماء[1]. ويمتاز هـذا المـنهج بالآتي:

(أ) الالتزام بقضايا الأمة الإسلامية ومحاولة النهوض بها والمساهمة في عمليات التغير الاجتماعي وعدم تحويـل التفسير إلى مهنة أو وظيفة بل هو رسالة ودعوة وقضـية، وسلاح ضد التسلط والقهر والفقر وجميع مظاهر التخاف.

(ب) كان أصحاب هذا التفسير من النشطين سياسـيا في مجتمعاتهم مثل محمد عبده ورشيد رضا، وبالتالي نشأت تفسيراتهم من خضم تجاربهم السياسية والاجتماعيـة ومـن خبرات كفاح طويل ونضـال ضـد الاسـتعمار والتخلـف والتجزئة.

---

[1] الشيخ محمد عبده: تفسير جزء عم، مطبعة مصر، القاهرة ١٣٤١هـ. الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا: تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن، المنار، القاهرة ١٣٥٣هـ.، الشيخ رشيد رضا: تفسير المنار، القاهرة ١٣٤٦هـ. الشـيخ محمد مصطفى المراغي: الدروس الدينيـة، مطبعـة الأزهـر، القـاهرة ١٣٥٦–١٣٦٤هـ. الإمام الشهيد سيد قطب: في ظل القرآن، مطبعة الشروق، القاهرة.

(جـ) تجاوز التفسيرات القديمة اللغوية والتاريخيـة والفقهية والكلامية والصوفية والفلسفية والعقائديـة وظهـور التفسير الاجتماعي والسياسي فيها مما جعل هذه التفسـيرات صورة حية لأوضاع الأمة الإسلامية.

(د) الارتباط بجيل معين، وبلحظة تاريخية محـددة، وفي زمان ومكان معينين، فبطل الادعاء بوجود تفسير صالح لكل زمان ومكان وبالتالي اكتشاف أهمية التـاريخ وقـوانين التاريخ وحركة المجتمعات وتطورها، والتحق التفسير مـن جديد بعلم العمران.

ومع ذلك فقد ظلت هذه التفسيرات ناقصة لعدة أسباب منها:

(أ) لم تكن للقضايا الاجتماعية والسياسية الأولويـة المطلقـة علـى الموضـوعات العقائديـة ومازالـت أحـد موضوعات التفسير وليس موضوعه الرئيسي بالإضافة إلـى إلحاقها بـالأخلاق وبالإيمـان دون تحليلهـا كموضـوعات اجتماعية مستقلة لها أبنيتها المستقلة.

(ب) مازال منهج النص غالبا عليها مما نـال مـن استقلال الموضوعات العلمية كظواهر إنسانية مسـتقلة عـن

النص، وبالتالي لم يكن الواقع هو البداية المطلقة، وكان التفسير مقدمة للواقع وليس الواقع مقدمة للتفسير.

(جـ) مازال يغلب عليه التفسير الطولي وليس الموضوعي، سورة بسورة، وآية بآية، مما يشتت الموضوعات ويجزؤها ويجعلها متناثرة دون أي بناء نظري أو مادي يجمعها وكأن الغاية هو التفسير وليس معرفة الواقع.

(د) إنها إصلاحية محدودة الأثر لم تتحول بعد إلى نهضة شاملة تقوم على مبادئ التنوير من عقل وحرية وديمقراطية وطبيعة وإنسان وتاريخ، وبالتالي ظلت قابعة في ميدان العقائد حتى نشأت حركات نهضة علمانية من خارجها.

(هـ) أنها حركات إصلاحية وليست ثورية تهدف إلى الفهم الصحيح للعقائد وليس إلى إحداث انقلاب أساسي في البنية الاجتماعية. لذلك قامت الثورات الاجتماعية من خارجها أو حاولت الانتساب إليها في لحظات تعثرها.

(و) مازال بعض جوانب المحافظة الدينية التقليدية سواء في العقائد أو في التشريعات مثل "الرد على الدهريين"

مما فتت الحركات الوطنية الاجتماعية وجعل أمـر الوحـدة الوطنية عسيرا بل وانتهي الأمر إلى الصدام الدموي بينهـا وبين الحركات الوطنية الأخرى.

(ز) لم يستمر قادتها في الثورة إلى مـا لا نهايـة، وتراجع البعض منهم ونكص على عقبيه (محمد عبده)، كمـا تحولت بعض الحركات الإصلاحية إلى نظم دينية محافظـة مثل الوهابية في الحجاز والمهدية في السودان والإخوان في مصر.

(ح) لم تتم صياغتها بعد صياغة عملية فـي نطـاق العلوم الاجتماعية والإنسانية والتاريخية وظلت أقـرب إلـى الدين منها إلى العلم، تنبع من الحركات الدينية وليس مـن الحركات الاجتماعية.

ثالثا- المنهج الاجتماعي في التفسير:

وقد أفادت مناهج القدماء في ظروف عصرهم وفـي مواطن إبداعهم: اللغة والرواية والفقه والتصـوف والفلسـفة والعقائد. ولكن هذه الظروف قد تغيرت، ولم يعـد عصـرنا عصر لغة أو رواية أو فقه أو تصوف أو فلسفة أو عقائد بل عصر علوم اجتماعيـة وفـي مقـدمتها العلـوم السياسـية

والاقتصادية التي بدأ المنهج الإصلاحي في الانتبـاه إليهـا. مهمة جيلنا إذن هو تطوير هذا المنهج وأن يبدأ بواقع الأمـة وبمصالح المسلمين.

ويتصف هذا المنهج الاجتماعي في التفسير بالآتي:

١- أنه تفسير جزئي للقرآن الكريم وليس تفسيرا كليا له على الأقل في هذه المرحلة، أي أن المطلوب تفسيره هـو رؤية حاجات المسلمين داخل القرآن وليس تفسـير القـرآن كله، بصرف النظر عن حاجات المسلمين ومطـالبهم. فـإذا كانت مشكلتنا الرئيسـية حتـى الآن هـي تحريـر الأرض ومواجهة الاستعمار فإن آيات الجهـاد والقتـال والحـرب والإعداد هي التي يكون لها الأولوية في التفسير وليست آيات الدعة وحسن العيش والتمتع بزينة الحياة الدنيا. وإذا كانـت مشكلتنا اليوم هي التسلط والقهر والطغيان فإن آيات الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهر بالحق والتمسك بـه، ورفض النفاق والثورة على الذلة والمهانة، يكون لها الأولوية المطلقة في التفسير على آيات الطاعة والأمر بالعبودية وإذا كانت مشكلتنا أيضا هي الفقر والجـوع والبـؤس والشـقاء والحرمان وسوء التغذية والعري والبطالة، مشاكل المعـذبين

في الأرض، فإن آيات القرآن عن الملكية العامـة والغنـى والفقر ومنع تداول المال بين الأغنياء والاسـتخلاف وحـق الفقراء في أموال الأغنياء والمساواة والعدالة الاجتماعية هي التي يكون لها الأولوية المطلقة على آيات التجـارة والـربح والرزق والطبقات والدرجات والكسب الحـلال. وإذا كانـت مشكلتنا الرابعة هي لامبالاة الناس وفتور الجماهير وخنوعها واستسلامها وكسلها ورضوخها واستكانتها وترك مصـائرها بيد غيرها وقدرتها، فإن آيات الحث على النهوض ورفـض الإثقال إلى الأرض والدعوة إلى الهجـرة فـي أرض الله الواسعة وخلافة الإنسان لله في الأرض، والشهادة، والعـزة للمؤمنين، والعلو للأمة، تكون لها الأولوية المطلقة على آيات القضاء والقدر والتسليم والتفـويض والإرجـاء والانتظـار والتوفيق والهداية والدعاء وطلب البركات. نقرأ إذن حاجاتنا في القرآن، وما لا نحتاجه لا يقرؤه جيلنا بمعنـى لا يفسـره لأنه لن يفهمه، فالفهم لا يتم إلا طبقـا لحاجـة أي تجربـة اجتماعية وأزمة معاشة. فإذا كنا ندعو إلى العلم فإننا نفسـر آيات العلم وليس آيات الفيض والإلهـام والكشـف والفـتح والبصر الحديد. وإذا كنا ندعو إلـى الواقـع فإننـا نعطـى

الأولوية لآيات التنزيل وليس لآيات التأويل ولعالم الشـهادة وليس لعالم الغيب. وإذا كنا ندعو إلى العقـل فإنـا نعطـي الأولوية المطلقة لآيات العقل. وإذا كنا ندعو للعمل فإننا نبرز في حياتنا آيات العمل قبل آيات الإيمـان والتفكـر والتـدبر والتأمل والنظر. وإذا كانت التنمية هي مشـكلتنا الرئيسـية بغزو الصحراء واستخراج المياه الجوفية، وبتخـزين لميـاه الأمطار، وإقامة السدود والخزانات والبحث عـن ثـروات الأرض، فإن آيات الأرض والمـاء والزراعـة والخضـرة والفواكه والأعناب والشجر الباسقات والأوراق والثمار تكون لها الأولوية المطلقة في وجداننا الديني القومي، وإذا كانـت مأساتنا في نقص الثروة الحيوانية: اللحم واللبن والبيض، فإن آيات الأنعام والأسماك واللحم الطري والطيـر تبـرز فـي وجداننا القومي تحثنا على زيادة الثروة الحيوانية. وإذا كانت مشكلتنا هي أزمة الإسكان، فإن آيات السكن والبيت المستقر تجد صدى في نفوسنا. وهكذا نجد في القرآن حاجاتنا ونفسر آياته طبقا لها، وبالتالي يصبح القرآن كتابـا مقـروءا فـي الأسواق في حياة الناس اليومية، ويأخذ معنـى فـي جيلنـا ويوفي بالغرض.

٢- والتفسير الموضوعي للقرآن هو الأقدر على الوفاء بمقتضيات المنهج الاجتماعي وليس التفسير الطولي ونعني به تفسير القرآن جزءا بعد جزء، حزبا بعد حزب، سورة بعد سورة، آية بعد آية، لفظا وراء لفظ، حرفا إثر حرف ابتداء من الفاتحة والبقرة حتى سورة العلق والناس[١]. نفسر ما نعرفه وما لا نعرفه، وما نحتاجه وما لا نحتاجه، تفسير لا في زمان ولا في مكان. وبالتالي يكون الاعتماد أساسا على المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وتفسير الآيات كلها حول موضوع واحد نحتاجه في عصرنا ويسبب لنا أزمة ويجثم على صدورنا كهم ثقيل يكتم الأنفاس. ويبني الموضوع بطريق تحليل المضمون للآيات من حيث:

---

(١) ظهر عند القدماء بدايات التفسير الموضوعي مثل "التبيان في أقسام القرآن" لابن القيم، "مجاز القرآن" لأبي عبيدة، "مفردات القرآن" للراغب الأصفهاني، "الناسخ والمنسوخ" لأبي جعفر النحاس، "أسباب النزول" للواحدي، "أحكام القرآن" للجصاص. ولكنها تفسيرات لا تظهر فيها الموضوعات الاجتماعية والسياسية. وظهر عند المحدثين كثير من هذه الموضوعات دون تحليل شامل لآيات القرآن وبنائها في أكثر ما كتب عن الاقتصاد الإسلامي، والنظم المعرفية في الإسلام، وملكية الأرض والثروة في الإسلام، وأحكام الربا، وقوانين العمل والعمال، وفي الاجتماع والسياسة ونظم الحكم.

(أ) البناء الصوري والشكل اللغوي للآية وذلك مـن حيث ذكر الموضوع اسما وفعلا، مرفوعـا أو منصـوبا أو مجرورا، مذكرا أو مؤنثا، مفردا أو جمعا، مضافا أو غيـر مضاف، وكيفية الإضافة بالضمائر أم بالأسماء، والضـمائر متكلم أو مخاطب أو غائب، ومدى تكرار اللفظ حتى يمكـن تحديد الموضوع ابتداء من الشكل، فالفعل غير الاسم، الفعل حركة والاسم ثبات، والرفع غير النصب غير الجر، فـالرفع فاعلية، والنصب المفعولية، والجر اللحاق والتبعية... الخ.

(ب) تحليل المعاني وتصنيفها في مجموعات رئيسية حتى يمكن بناء الموضوع، والتمييز بين المعـاني الرئيسـية والمعاني الفرعية، بين الإيجابيـة والسـلبية، بـين الإلهيـة والإنسانية، بين المعنوية والمادية، بين الفردية والاجتماعيـة حتى يمكن معرفة رأي الوحي في الموضوعات الرئيسية.

(جـ) إعطاء الأولوية للموضوعات التي تلبي حاجة العصر مثل: الأرض، المال، الفقر، الغني، التقدم، التخلـف، الأمة، العمل: الإنسان، الجهاد، إسـرائيل. بحيـث يتحـول وجداننا المعاصر إلى نظريات وتصورات قادرة على تحليل أزمات العصر.

(د) تكوين الموضوعات كلها في نسق عقلي محكـم واحد بحيث يكون تصورا إسلاميا للعالم وحتى يمكن لمـنهج إسلامى واحد أن يظهر ويتكون يدور حول الإنسان والمجتمع والطبيعة والتاريخ، وهو يلبي حاجة المسلمين في البحث عن منهاج مستقل وتصور للكون ومنهاج للحياة ونظام اجتماعي وسياسي [٢].

٣- التفسير الزمني قادر على إعطاء صورة للقـرآن لجيل بعينه وليس لكل الأجيال، وفي عصر بعينه وليس فـي كل العصور. فالقرآن الأبدي الذي يتجاوز العصور والأجيال موجود في العلم الإلهي ولكن لا وجود له في صدور النـاس أو في حركة التاريخ أو في كتب المفسرين أو فـي أقـوال الخطباء أو في نظريات العلماء. التفسير الزمني هو تفسـير العصر ولا شأن له بالعصور السـابقة ولا يلـزم الأجيـال اللاحقة، فمثلا تفسير أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر مهمته الدفاع عن الإنسان في عصرنا ولـيس عن الله في كل العصور، ليس فقط في العمليات بل أيضا في

---

[٢] أنظر نموذجا لذلك في مقالنا "المال في القرآن" قضـايا عربيـة، ١٩٧٨. وهـو منشور أيضا في هذا الجزء.

النظريات. ولما كانت مشاكل الحياة متجددة فإن التفسـيرات القديمة وليدة عصرها كما أن تفسيرنا وليد عصرنا ولا تلزم الأجيال المستقبلة بأي حال. وأي دعوى أخـرى دون ذلـك ادعاء باطل وغرور إنساني، ورغبة في التسلط على رقـاب الناس واحتكار معـارفهم واجتهـاداتهم، ونفـاق وإرهـاب وتعصب وجهل يخفي أخطاء التفسير أكثر مما يبين صدقه.

والتفسير على هذا النحو له غاية عملية وليس غايـة نظرية، يهدف إلى تغيير أحـوال المسـلمين ولـيس إلـى اكتشاف حقائق نظرية، فالصدق في التفسـير هـو التغييـر والأثر "فإما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض" (١٣ : ١٧). فالتفسير مرتبط بالمسلمين في التاريخ ولا يبحث عن الإسلام كحقيقة أبدية خـارج التـاريخ فهـذه الحقيقة لا توجد إلا في بطون المسلمين. لقد نشأ الوحي نفسه في الزمان، وتطور في الزمان، من اليهودية إلى المسـيحية إلى الإسلام. وتطورت الكتب المقدسة في الزمان من صحف إبراهيم ومزامير داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى والقرآن الذي نزل على محمد. كما أن القرآن نزل منجما على ثلاث وعشرين عاما بادئا بالعقيدة ثم الشريعة، بالآيات المكية ثـم

المدنية. بل إن الشريعة ذاتها بها ناسخ ومنسوخ طبقا للقدرة. والزمان داخل في الشريعة الإسلامية في العبادات: الصـلاة في أوقات، وجوبا أو قضاء، على الفور أو على التراخـي، والصيام في أوقات معلومة، والحج فـي أشـهر معلومـة، والشهادة في كل وقت، والتكليف في الحياة وما نحتاجه هـو تفسير زمني لجيلنا، ينفعنا، ويحل مشـاكلنا، ويتوجـه إلـى مآسينا.

٤–التفسير الواقعي الذي يبدأ مـن واقـع المسـلمين وحياتهم ومشاكلهم ومآسيهم وأحزانهم ومصائبهم وهـزائمهم لا يبدأ من فراغ بل يبدأ من مشكلة. فالوحي لا يعطى مجانيا بلا فائدة بل لحل قضية حارت فيها العقول والإفهام ولم يقدر إلا القليل على حلها برؤية صائبة وحس مرهف كمـا كـان الحال مع عمر بن الخطاب. وهذا مشهود في "أسباب النزول" أي أولوية الواقع على الفكر، والحركة على الثبات، فالحـل مغير للواقع وليس مثبتا له أو مبررا إياه. والتفسير الـواقعي لا يتحدث عن الإسلام العام الخالد الذي ليس لـه مكـان ولا زمان والذي يطير فوق الواقع ولا يحـل مشـاكل النـاس. التفسير الواقعي لا يقوم بالدفاع عن الله، فـالله غنـي عـن

العالمين أو عن الإسلام فإن لهذا الدين ربا يحميه، بل يدافع عن المسلمين الذين لا يدافع عنهم سواهم. فما أسهل الحديث عما ينبغي أن يكون وما أصعب تغيير ما هو كائن. وقد يهدف التفسير العام إلى التعمية والتغطية والتمويه على ما يدور في الواقع، وعلى إيثار السلامة والحرص على لقمة العيش خشية وخفية وسلامة. كما قد يدل على العجز عن المواجهة مادامت البضاعة لا تتعدى الكلام، ويضع الناس في نظام مثالي ينعمون به ويرنون إليه يجدون فيه تعويضا وعزاء عن واقعهم المضني الأليم.

٥- التفسير بالمعني والقصد وليس بالحرف واللفظ. فالوحي مقاصد كما يقول الأصوليون القدماء، وبواعث واتجاهات وأهداف كما يقول المحدثون. فالكليات الخمس: المحافظة على النفس والعقل والدين والعرض والمال هي مقومات الحياة الخمس. فالمصلحة أساس الشرع، لا ضرر ولا ضرار، والضرورات تبيح المحظورات، والأشياء في الأصل على الإباحة، والأشياء قبل ورود الشرع على البراءة الأصلية، والإنسان حر بالفطرة، والإسلام دين العقل والطبيعة، ودين الحرية والمساواة، وأن ليس للإنسان إلا ما

سعى وأن سعيه سوف يرى، وأن العمل وحده مصدر القيمة، وأن البشر سواسية كأسنان المشط، وأن لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، وأن الإنسان حر ومختار ومسئول وأنه قادر على إدراك الحقائق بالعقل، وأنـا قـادر على التمييز بين الخير والشر.. إلى كل ذلك مـن مبـادئ إنسانية عامة وحقائق موحى به تطابق العقل والطبيعة وتكون أساسا للتفسير وتقـوم فيـه مقـام البـديهيات والأوليـات والمصادرات. فما الفائدة من تناول التحسينات أو الحاجيـات دون الضروريات باصطلاح القـدماء؟ ومـا الفائـدة فـي المماحكات اللفظية والتفريعات الجزئية والكليـات الأساسـية غائبة عن الأذهان؟

٦- التفسير بالتجارب الحية التي يعيشـها المفسـر، فالتفسير جزء من الحياة والحياة مادة علم التفسير، ولا تفسير إن لم يكن لدى المفسر تجارب، يعـيش حياتـه، ويحياهـا بصدق، يتأزم ويتألم، يفرح ويحزن، يشقى ويسعد. فالتفسـير ليس مهنة أو بضاعة أو تجارة بل هي أزمة فـي المعرفـة، وحيرة في السلوك، وبحث عن المعنى، وتغيير للأوضـاع. لذلك كانت تفسيرات الصوفية بالرغم من عيوبها تفسـيرات

صادقة تتم بناء على تجارب. وهنا أيضا تأتي أهمية التفسيرات الإصلاحية التي تعبر عن تجارب الإصلاح والثورة والتغير الاجتماعي. والنصوص الدينية في أصلها تجارب معاشة، استشهاد الأنبياء، وخوف الأتقياء، وطغيان الملوك والأمراء، وصراع القوى الاجتماعية المتعارضة، والشد والجذب بين قوى التخلف وقوى التقدم. فيعقوب تبيض عيناه من الهم فهو كظيم، ويوسف في غيابات الجب، ومع امرأة العزيز، وفي السجن، وموسى هارب يترقب، ويونس في بطن الحوت، وعيسى نفسه حزينة حتى الموت، ونوح يدعو على قومه، وإبراهيم في النار، ومحمد باخع نفسه على أن يؤمن قومه، والمؤمنون يمسسهم القرح، يحزنون ويخافون. وقد عبر الصوفية عن ذلك أصدق تعبير في الأحوال والحالات النفسية المتعارضة مثل القبض والبسط، الخوف والرجاء، الصحو والسكر، الهيبة والأنس، الغيبة والحضور.. الخ. أما التفسير المهني الوظيفي الذي يتم من فوق المنابر ومن أعلى المصاطب، ويملأ الصفحات لإظهار المعارف والعلوم كلها تفسيرات لا تخرج من القلب، ولا تكتب بالدم، ولا تغير قيد أنملة من حياة الناس.

٧- رصد مشاكل الواقع حتى يمكن بدأ التفسير منها. ويحدث ذلك على النحو الآتي:

(أ) إذ كان نهج التفسير الاجتماعي يبدأ مـن واقـع المسلمين، دفاعا عن مصالح الأمة وحلا لأزماتها، ومواجها قضاياها الأساسية. كان لابد أولا من رصد مشاكل الواقـع. ولا يتم ذلك إلا بتعاون علماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد أي باشتراك العلوم التي تقـوم بإحصـاء مشـاكل الواقـع الاجتماعي وهو بالنسبة لنا: تحرير الأرض من الصـهيونية والاستعمار، الحرية والديمقراطية ضد التسـلط والطغيـان، التنمية ضد التخلف والفقر، تجنيد الجمـاهير ضـد السـلبية والفتور.

(ب) وضع نظام للأولويات لهـذه المشـاكل دون أن يمنع ذلك السير في جميع الجبهات. فمثلا يأتي أولا تحريـر الأرض وما يتطلبه ذلك من إقامة جبهـة وطنيـة وتأجيـل الصراع الاجتماعي إلى حين. فحركة التحرر الوطني تحتاج إلى جهد الجميع. ثانيا: الحرية والديمقراطيـة ممـا يسـمح بحرية الرأي والتعبيـر للجميـع، والسـماح بتعـدد الآراء واختلاف وجهات النظر، ويكون المحك في النهايـة لأكثـر

الحلول قدرة وشمولا وعمقا وبقاء. ثالثا، التنمية ضد جميـع مظاهر التخلف من فقر وأمية وجهل وما يتطلبه ذلـك مـن إعادة توزيع ثروة البلاد وتحقيق أكبر قدر ممكن من المساواة والعدالة الاجتماعية. رابعا، تجنيد الجمـاهير ضـد السـلبية والفتور واللامبالاة، وأخذ مصائرها بأيديها، وتوجيه حكامها، وقيامها بمهمة المراجعة والرقابة.

(جـ) الاعتماد على التحليل العلمي وتبنـي الحلـول الواقعية التي تقوم على التطور والتدرج، والاقتداء بـالمنهج الأصولي في تحليل العلل، والبحث عـن العلـة الفاعلـة أو المؤثرة أو الملائمة أو المناسبة واتباع طرق السبر والتقسيم، وهو أكثر المناهج عملية ويقوم على التجريب والإحصاء كما وضعه علماء الأصول القدماء.

(د) السماح باختلاف الآراء، وتعدد الاتجاهات، وعادة ما يكون الرأي الإسلامي أوسع الآراء، أفقا وأشملها نطاقـا، وأبقاها زمانا، وأكثرهـا عمقـا، وأقواهـا أثـرا وفاعليـة، وأقصرها وقتا، وأقلها جهدا. وتعدد الحق في العمليات وارد على رأي القدماء. فالوحدة الوطنية يرعاها الإسلام ويقويهـا ويحرص عليها.

(هـ) تحقيق ذلك بالفعل، فـلا فـرق بـين باحـث ومناضل، بين عالم ومكافح، النظرية للعمل والنظر للتطبيق. وقد كان الفقهاء من هذا الطراز، رجل علم وعمل، فقيه دين وقائد أمة.

٨- الوضع الاجتماعي للمفسر هو في النهاية الـذي يحدد نوعية التفسير، فالخلافات بين التفسيرات هي في نهاية الأمر اختلافات بين الأوضاع الاجتماعية للمفسـرين. فكـل مفسر ينتمي إلى طبقة اجتماعية، وكل تفسير يكشـف عـن ولائه لطبقته. والذي يحدد موقفه الكلى هو الآتي:

(أ) موقف المفسرين من الواقع، هل هو مبرر لـه أم ثائر عليه؟ يبغي التعايش والارتزاق أم لـه رسـالة وعليـه مسؤولية قيادة الأمة؟ يرتكن إليه ويـؤثر السـلامة وحسـن الختام أم يتصدى لمصالح المسلمين مدافعا عنها لا يخشى في الله لومة لائم؟

(ب) هل هو جزء من النظام السياسي مسـتفيد منـه باعتباره موظفا أم هو خارج النظام غير مرتبط به؟ هل هو موظف أم مواطن؟ يأخذ من الدولة أم يعطيها؟ تفرض عليـه من حتميتها أم يفرض عليها حريته؟

(جـ) هل هو من الطبقة العليا أم من الطبقة الـدنيا؟ هل يدافع عن مصالح طبقة أو فئة أو قوم أو أنه يعبر عـن مصالح المسلمين ويلبي احتياجات جماهير الأمـة؟ وهـذا لا يمنع من أن ينتسب بداخله إلى طبقة وبوعيه إلـى طبقـة أخرى، فليس المهم هو الدخل الطبقي بل الوعي الطبقي.

(د) هل يبغي جاها أو منصبا أو شـهرة أو مـالا أم يبغي التجرد التام ورعاية مصالح الأمة والنزاهـة المطلقـة والعمل لوجه الله؟ فالعلماء ورثة الأنبياء؟ هل يبغى الرئاسـة في الدنيا أم الخلود في التاريخ؟

رابعا-خاتمة:

قد يقال إن المنهج الاجتماعي في التفسير عليه عـدة محاذير أو يؤدى إلى عدة مخـاطر أو تثـار عليـه بعـض الشبهات أو توجه إليه بعض الاتهامات[1]. وهي كلها أوهـام تعلق بذهن العامة من جراء أجهزة الإعلام وآثـار الثقافـة الغربية في بلادنا وتخويفنا من مفاهيم التقـدم حتـى يبقـى

---

[1] أنظر كتابنا: "التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم" ص ٥٦-٧٤، المركـز العربي للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٠.

مفهومنا للدين محافظا تقليديا تستغله النظم الحاكمة لصالحها ضد مصالح الشعوب. وأهم هذه المخاطر:

(أ) العلمانية. وذلك لأن المنهج الاجتماعي يبدأ من واقع المسلمين ولا يبدأ من الدين، ويغوص في مشاكل الدنيا، ويعتبر العقائد كتصورات للعالم وكبواعث للسلوك، ويجعل الإسلام في خدمة المسلمين. والحقيقة أن هذه ليست علمانية بل ليس الوحي الإسلامي الذي لا يفرق بين الدين والدنيا. العلمانية لفظ غربي خالص يعبر عن مسألة غربية خالصة وهو رفض سلطة رجال الدين. والإسلام دين علماني منذ البداية لأنه ليس به رجال دين. علمانية معطاة من الداخل بوضع إلهي وليست مكتسبة من الخارج بجهد إنساني.

(ب) الإلحاد. وذلك لأن المنهج الاجتماعي لا يتطرق إلى موضوعات دينية مستقلة عن الأوضاع الاجتماعية، ولا يتناول موضوعات الله والإيمان واليوم الآخر بل لا يتعرض إلا لموضوعات تحرير الأرض والحرية والديمقراطية والمساواة والعدالة الاجتماعية وتجنيد الجماهير. لا يتعرض لعالم الغيب ويقتصر على عالم الشهادة، وينظر إلى الدين من منظور إنساني خالص. والحقيقة أن الإلحاد، كالعلمانية،

مفهوم غربي خالص، الهدف منه العودة إلى الدنيا واكتشاف عالم الحس والشهادة بعد أن غالت الـديانات التـي سـادت الغرب ممارسة أو ثقافة في عالم الغيب والأسرار. الإسـلام منذ البداية دين يقوم على الحس والمشاهدة ومجرى العادات وليس به أسرار أو غيبيات تند عن العقل، وليس بـه آخـرة منفصلة عن الدنيا أو روح منفصل عن المادة.

(جـ) الماركسية. وذلك لأن المنهج الاجتماعي فـي التفسير يبدأ من المشاكل الاجتماعية للناس، ويواجه قضـايا التحرر الوطني، والمساواة والعدالة الاجتماعية والتحرر من القهر والتسلط، ويعمل على تجنيد الجمـاهير فـي حـزب طليعي، ويعي معارك القوى الاجتماعية وصراع الطبقـات ومراحل التاريخ، وأهمية العوامل المادية في تفسير سـلوك الأفراد والجماهير، والحقيقة أن هذه ليست ماركسية. ولمـاذا نعطى الماركسية أكثر مما تستحق ونعطى مفكرينا القـدماء من علماء أصول الفقه أقل مما يستحقون وهم الذين بحثـوا عن العلل المادية المؤثرة في السلوك؟ لقد كان أول من اعتنق الإسلام هم العبيد والفقراء والمساكين والمعذبون في الأرض، فقد وجدوا في الإسلام الحرية والعدالة والمساواة، وحـررهم

من الخوف والتسلط والقهر من أشـراف مكـة وأغنيائهـا، وجندهم في جيوش المسلمين لفتح البلدان وتحرير البشر من الطاعون.

(د)التغريب. طالما أن المنهج الاجتمـاعي لـه هـذه الصفات فإنه يكون مماثلا لما تم في الغرب مـن حركـات علمانية وإلحادية وماركسية وعقلانيـة وحريـة وطبيعيـة وديمقراطية، وأن ذلك مناف لما عليه مجتمعاتنا مـن تـدين وإيمان وروحانية وإلهامية وغيبية وطاعـة لأولـي الأمـر. والحقيقة أن كفاح الغرب في العصور الحديثة ضـد التسـلط الفكري والديني في العصر الوسيط الذي دفع ثمنه من دمـاء العلماء والمفكرين هو كفاح في سبيل مثل الإسلام ومبادئـه التي وضعها قبل ذلك بأربعة عشر قرنا من الزمان. فإذا كان الغرب قد بدأ نهضته بالإحياء فـي القـرن الرابـع عشـر وبالإصلاح الديني في الخامس عشر، وبالنهضة في السادس عشر، والعقلانية في السابع عشر، وبـالتنوير فـي الثـامن عشر، وبالعلم والثورة الصناعية في التاسع عشر، وبالوجود الإنساني والثورة التكنولوجية في القرن العشرين فإن الإسلام قد ضم هذه المبادئ كلها في الـوحي. فـاعترف بـالآداب

والديانات القديمة، وأنكر سلطة رجـال الـدين والرهبانيـة والكهنوت، وجعل الإنسان خليفة الله فـي الأرض، وجعـل للعقل سلطانا على كل شيء، وأقام المجتمع الإسلامي علـى مبادئ الحرية والعدالة والمساواة، واعترف بقوانين الطبيعـة وقدرة الإنسان للسيطرة عليها وتسخيرها لمنفعته في الـدنيا، وأثبت رسالة الإنسان في الحياة وبأنه محور الكون وصورة الحقيقة في الوجود "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم فـي البـر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثيـر ممـن خلقنا تفضيلا" (١٧ : ٧٠)[١].

---

[١] أنظر دراستنا الثلاث السابقة عن التفسير: "هل لدينا نظرية في التفسير؟"، "أيهمـا أسبق: نظرية التفسير أم منهج في تحليل الخبرات؟"، "عود إلى المنبع أم عـود إلـى الطبيعة؟" قضايا معاصرة (١) في فكرنـا المعاصـر ص ١٧٥-١٧٦، دار الفكـر العربي، القاهرة ١٩٧٦.

اختلاف في التفسير أم اختلاف في المصالح؟ *

يخطئ من يظن أن تفسيرا معينا للدين هو الدين فـي ذاته. فالتفسيرات متعددة ولكن الدين واحد وكلها شرعية لأنها تعتمد على نصوص الدين، ولا احتكار فـي التفسـير، ولا تكفير لأحدها دون الآخر.

ولكن كيف تكون التفسيرات مختلفة والدين واحد؟ هل ترجع التفسيرات إلى خلاف في وجهات نظر مجردة أم أنها ترجع إلى اختلاف في المصالح؟

والحقيقة أن قارئ النصوص الدينية ليس عقلا مجردا بل هو إنسان، يعيش في مجتمع، ولـه مشـاكله وظروفـه ومصلحته. ولا يمكن أن يقرأ النص إلا من خلال هذا الوضع النفسي الاجتماعي سواء في اختيار النص أو في فهمه. ولما تعددت المواقف والظروف والمصالح والطبقات للمفسـرين، تعددت أيضا تفسيراتهم. فليس الخلاف حول معنى موضوعي للنص المستقل بل هو اختلاف المواقف الاجتماعية والمصالح

---

* كتب هذا المقال أيضا في ١٩٧٨ لجريدة الأهالي، وأعيدت صياغته من المسـودة الأولى في خريف ١٩٨٧. أنظر أيضا "مناهج التفسير ومصالح الأمة" في هذا الجزء.

الطبقية للمفسرين. اختلاف التفسيرات يرجـع أساسـا إلـى اختلاف المصالح، واختلاف المصالح يرجع في النهاية إلـى التركيب الطبقي للمجتمع.

فإذا كان في المجتمع ثـلاث طبقـات، لكـل منهـا مصلحته الخاصة تكون لدينا ثلاث تفسيرات:

١- تفسير الطبقة العليا، وينتقي من النصـوص مـا يدافع به عن التركيب الطبقي للمجتمع مثل: "ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات"، "ورفعنا بعضكم فوق بعض درجـات"، مخرجين النص من السياق. فقد تعنى الدرجات العلم ولـيس درجات الربح. وهو التفسير الذي يدافع عن الملكية الفردية، وعن النشاط الاقتصادي الحر مادام الإنسان يكسب بالحلال، ويخرج الزكاة حتى ولو وصل الأمر إلى المليون وتجاوزه. وهو التفسير الذي تبناه رجال الأعمـال وأصـحاب رؤوس الأموال، بناة المساجد، ودعاة التقوى والإيمـان، وأصـحاب برامج العلم والإيمان وتفسير القرآن الذين يسرق من منازلهم بعشرات الألوف من الجنيهات المجوهرات والحلي الثمينة!

٢- تفسير الطبقة المتوسطة، وهو التفسير الذي يدعو إلى حفظ النظام، وعدم التغيير، والإبقاء على الوضع القائم،

"وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم". والطبقـة المتوسطة بطبيعتها انتهازية، تبغي مصلحتها، تسـتفيد مـن الطبقة العليا، فهي المنفذة لأوامرهـا والمبـررة لأفعالهـا، والمتطلعة لأنماط سلوكها في حركة صاعدة سلمية كمكافـأة لها على بذل الخدمات. وتستفيد أيضا من الطبقة الدنيا فهـي التي تقضي لها المصالح وتحقق لها الرغبات، وتطبـق أو لا تطبق لها القوانين. فتأخذ الرشاوى والعمـولات، وتسـتغل حاجات الناس، وتعيش على مآسي الآخرين.

٣- تفسير الطبقة الدنيا، وهي طبقة الأغلبية، الطبقـة الكادحة، وهو تفسير يعتمد على إبراز حق الأغلبية، دعاتـه قليلون، وأنصاره مضطهدون، وفكره محاصـر، ومتهمـون بالشيوعية والإلحاد، وبالكفر والانحلال، وبالدموية والخروج على القانون، وبقلب نظام الحكم بالتنظيمات السرية وبعمـلاء الاتحاد السوفيتي، وبمنفذي المؤامرات الدولية! وهـم الـذين يعودون إلى مصالح الناس كأصل التشريع كما يقرر الشرع، ويرون العقائد متصلة بحياة الناس. فالإيمان بالله أمـان مـن الجوع والخوف "فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم مـن جوع وآمنهم من خوف". تنهار المجتمعات بتشييد القصـور

فوق الآبار المعطلة، "وبئر معطلة وقصـر مشـيد". وهـو التفسير الذي يقول بملكية الدولة لوسـائل الإنتـاج (المـاء، والكلأ، والنار) وبالإصلاح الزراعـي، وبسياسـة للأجـور تتناسب مع الجهد في العمـل، وبالاعتمـاد علـى الـذات، وبالتخطيط لصالح الأغلبية.

ولما كان لا يوجد مقياس نظـري لمعرفـة التفسـير الصحيح، وكان الخلاف في التفسيرات النظريـة هـو فـي الحقيقة اختلاف في المصالح، فإن التفسير الصحيح إنما ينتج عن صراع القوى الاجتماعية. ويكون السؤال هو: لصالح أية طبقة يتم حسم الصراع الاجتماعي، الطبقة العليا أم الطبقـة المتوسطة أم الطبقة الدنيا؟ وما هي القوى الاجتماعية القادرة على حسم هذا الصراع؟

المال في القرآن (تحليل المضمون) *

أن طريق التنمية اللارأسمالي في البلاد النامية مرتبط أشد الارتباط بتراثها القديم وبثقافتها الوطنية. ولما كان هـذا التراث وهذه الثقافة في جوهرها دينية، أصبح من الضروري معرفة موقف الدين من التنمية، وكيف يمكن أن يساهم فـي تكوين نظام اقتصادي يرعى مصالح الأغلبية. وتزداد الأهمية إذا ما عرفنا كيف يستغل الدين في البلاد النامية لصالح النظم الرأسمالية بالتركيز على التفاوت في الرزق كمظهـر مـن مظاهر القدر الإلهي، وعلى الاستثمار القائم علـى الـربح، وعلى الملكية الخاصة بلا حدود أو شروط، وعلـى النشـاط الاقتصادي الحر مادام صاحب رأس المال يـؤدي ضـريبة المال أو العقار في صورة الزكاة. فأصبح الدين وسيلة لتدعيم النظام الرأسمالي أمام أعين الجماهير، ولا تستطيع له دفعا.

---

* قضايا عربية، السنة السادسة، العدد الأول، يناير- ابريل، كانون الثـاني-نيسـان ١٩٧٩. وكان قد كتب أولا لنشره في مجلة "الفكر الاشتراكي" التي كانت تزمـع دار الثقافة الجديدة نشرها في عددها الأول الخاص عن الطريق اللارأسمالي للتنمية فـي البلاد النامية.

مهمتنا هنا هي تقديم بديل آخر عن تصور الدين لأحد مظاهر النشاط الاقتصادي ألا وهو المال لمعرفة ما إذا كـان تصور الدين للمـال أقـرب إلـى التصـور الرأسـمالي أم الاشتراكي أم أنه تصور خاص يمكنه تطوير المجتمع وتنمية موارده الاقتصادية على نحـو رأسـمالي بالضـرورة دون الوقوع في التصورات الاشتراكية الطوباويـة أو الدينيـة أو الخلقية. قد يحتوى الدين على تصور علمي للمال ووضـعه في المجتمع وصلته بالنشاط الإنساني، وقد يكون هنا التصور أكثر تطابقا مع وجداننا القومي أكثر من أي تصور نظـري آخر في أحد النظم الاقتصادية. وعلى هذا النحو، لا يتهم هذا التصور بأنه مستورد أو دخيل أو أنه لا ينبـع مـن تراثنـا وتربتنا وأخلاقنا وروحنا كما هو معروف في التهمة الشائعة التي تلصق بكل تصور لا رأسمالي للدين.

وسنعتمد على تحليل لفظ "المال" في القرآن دون مـا دخول في نظريات الفقهاء في المال خشية الوقوع في قيـل وقال، وخشية ضياع وحدة التحليل فـي خضـم اختلافـات الفقهاء، حتى لا تأخذ الدراسة طابعا تاريخيا سـيكون حتمـا

ناقصا [1]. سيكون الاعتماد الأساسي علـى اللغـة العربيـة وعلى بداهة العقل وعلـى الإحسـاس بالعصـر والشـعور بمتطلباته، أي أننا سنصف آيات المال باعتبارهـا تجـارب شعورية جماعية في وجداننا القومي. سأحاول أن أعيد بنـاء تراثنا الديني القديم ممثلا في مصدره الأساسي وهو القـرآن طبقا لحاجات العصـر وعلـى رأسـها التنميـة بـالطريق اللارأسمالي، وهو الطريق الذي يفرضه أيضا الدخل القومي المحدود، وغياب رؤوس أموال كبيرة تكون دعامة للتنميـة بالطريق الرأسمالي، وكأن تراثنا القديم في جوهره ومنشـئه يطابق واقعنا، ويتفق معه في طريق التنمية.

وسأبدأ أولا بتحليل لصورة الآيات أعنـى أشـكالها اللغوية ثم أثنى بتحليل المضمون أي معانيها من أجل الانتهاء إلى تصور عام للمال في "القرآن" أي في آخر مرحلـة مـن مراحل الوحي الذي أكتمل فيها وأصبح أيديولوجية.

---

[1] أنظر في ذلك أبو عبيد القاسم بن سلام: كتاب الأموال، تحقيق وتعليق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

أولا : تحليل الصورة:

١- ذكر لفظ "المال" في القرآن في صوره المختلفة ٨٦ مرة أي أنه موضوع مهم تناوله الوحي بالبيان والتفصيل وليس موضوعا عارضا، ويعادل موضوع النبوة (ذكر لفظ "النبى" بصوره المختلفة ٨٠ مرة) كما يعادل موضوع الوحي (ذكر لفظ "الوحى" بصوره المختلفة ٧٨ مرة). فالحديث عن "المال" في الوحي حديث أصيل وليس إسقاطا من مذاهب معاصرة عليه، وليس شدا للوحي إلى مذاهب مغايرة له، وليس استعمالا للوحي، حتى يقول ما يريده صاحب مذهب أن يقول.

٢- وقد ذكر لفظ "المال" في القرآن في صورتين مختلفتين: مرة غير مضاف إلى الضمائر (المال، مالا، الأموال، أموالا) ٣٢ مرة، ومرة أخرى مضافا غلي الضمائر (ماله، ماليه، أموالكم، أموالهم) ٥٤ مرة، مما يدل على أن المال قد يكون له وضع مستقل في العالم عن النشاط الإنساني، لا يضاف إلى أحد، فردا أو جمعا، وقد يدخل في علاقة مع الآخرين، في صورة نشاط وجهد واستثمار. والمال المستقل عن النشاط ينبئ عن أنه وضع طبيعي، لا

يمتلكه أحد، بل موضوع في الطبيعة أو واقعة مستقلة. فكـل مال لا يمتلك بالضرورة بل هو موجود قبل نشاط الإنسـان في مقولة الوجود وليس في مقولة الملكيـة. فكـل محاولـة لإثبات ملكية المال تغفل وضع المال المستقل غير المضاف إلى الضمائر، وتجهل وضع المال كظاهرة طبيعية في العالم في صورة ثروات طبيعية في الأرض قبل أن تدخل في أيـة علاقة مع الإنسان، المال هنا مجرد إمكانية للعمل والنشـاط وليس فقط واقعا دافعا على هذا النشاط. ولما كانت الإضـافة أكثر شيوعا من عدم الإضافة (٥٤–٣٢) كانت علاقة المـال بالآخرين هي محور نظرية المـال، أي المـال المسـتغل، المستثمر، بعد أن أصبح طرفا في علاقة مع الإنسان. المـال لا يظل في بطن الطبيعة بل يستغله الإنسان، لذلك لا يمكـن اكتناز المال أو تخزينه أو منعه من السيولة والحركة، فالمال للاستعمار وليس للاكتناز، المال حركة وليس سكونا، المـال طرف في علاقة مع الإنسان من حيث هو نشـاط وحركـة، وفعل وجهد، وطاقة وتولد، فإذا كانت البلاد النامية تعاني من نقص في الاستثمار الداخلي بالرغم من وجود المال في أيدي الطبقات العليا بما يتمتعون به من قوة شرائية ضخمة تسـمح

لهم باستهلاك الأموال أو بتهريبها أو باستثمارها في عقـار غير منتج أو مضاربة أو عمولة أو سمسرة، فكل ذلك اكتناز للمال دون جهد ونشاط. ومن هنا أتى تحريم الربا، لأن المال لا يولد المال تلقائيا بل الجهد هو الذي ينمي المال ويكثره.

٣- ويذكر لفظ "المال" غير مضاف في صـورتين: مرة نكرة (مالا، أموالا) ١٧ مرة، ومـرة معرفـة (المـال، الأموال) ١٥ مرة مما يشير إلى أن المال معروف ولـيس مجهولا، وأنه معلوم وليس خفيا. هذا بالاضافة إلـى المـال المعرف بالإضافة إلى الضمائر). فالمال يدخل فـي نظـام اقتصادي ونعرف مصدره واستثماره وتنميته ومآله. لا يترك المال هباء لا ندري من أين أتى؟ وكيف تكاثر؟ وأين انتهى؟ بل يدرس، ويتقنن مساره. فالمال له نظرية يقوم عليها وليس مجرد موضوع أو شيء يخفى ويستتر. وقد يكون التعريـف بألف ولام التعرف (المال، الأموال) ٧ مرات وقـد يكـون بالإضافة (مال الله، مال اليتيم، أموال اليتامي، أموال الناس) ٨ مرات مما يدل على أن التعريف بالمال لا يأتي من كونـه موضوعا طبيعيا معروفا في العالم بل يكون تعريفه بنسـبته إلى الآخرين، والآخرون هم النـاس أولا (ذكـرت "أمـوال

الناس" ٤ مرات) ثم أموال اليتيم واليتامي ثانيا (ذكر مال اليتم مرتين، وأموال اليتامى مرة) ثم مال الله ثالثا (ذكر مال الله مرة واحدة). فالمال للناس أي للجماهير وللعامة وللأغلبية ولأصحاب المصلحة الحقيقية وعلى رأسهم اليتامي والمحتاجون ومن لا عائل لهم وليس للمكتفين الذين تفيض الأموال عن حاجتهم. فالمال لا يكون إلا عند صاحب الحق، والحق يتحدد بالحاجة. والمال هو أيضا مال الله وليس ملكا لأحد، ولم يظهر في القرآن ولو مرة واحدة أن المال هو مال الأغنياء والمترفين!

٤- ويذكر لفظ "المال" غير المضاف في صيغتين: مرة مفردا (المال، مال) ١٨ مرة، ومرة جمعا (الأموال، أموالا) ١٤ مرة. فالمال قد يكون مفردا وقد يكون جمعا عندما يتراكم، ولكن المال في صيغة المفرد أكثر شيوعا من المال في صيغة الجمع، مما يدل على أن تراكم المال في أموال يكون أقل حدوثا. فإذا حدث فإنه يكون للاستثمار، وتكون أموال الناس، فالتراكم لا يكون للفرد، خاصة وأن كل الحالات التي أضيف فيها المال في صيغة "أموال" كانت لنسبتها إلى الناس في صيغة "أموال الناس".

٥- ويذكر لفظ "المال" غير مضـاف فـي حـالات الإعراب الثلاث، مرة مرفوعا (مرتين)، ومرة منصوبا (١٧ مرة) ومرة مجرورا (١٣ مرة). فالمال لا يأتي مرفوعـا إلا فيما ندر، أي أن المال لا يمكن أن يكون فاعلا أو مبتـدأ أو خبرا، لأن المال لا يفعل من تلقاء ذاته بل يفعل من خـلال الجهد الإنساني، (تحريم الربا) ولا يكون مبتدأ أو خبـرا لأن المال ليس موضوعا ولا محمولا في قضية خبرية بـل هـو موضوعا للنشاط والجهد. وفي المرتين اللتين ذكـر فيهمـا "المال" مرفوعا أخذ معنى سلبيا مثل "المال والبنـون زينـة الحياة الدنيا" (١٨: ٤٦) أي يكون المال لا قيمة لـه، يكـون ظاهرا خادعا، وعرضا لا جوهرا أو مثل "يوم لا ينفع مـال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم" (٢٦ :٨٨) فالمال هنـا ليس بذي منفعة في المواقف المصيرية حيث يتحدد فيها عمل الإنسان، وحيث يتم فيها تقييم جهده ونشاطه ومسار عمـره، فالمال ليس مقياسا للتقييم بل العمل هو المقياس، ولا يغنـي الكم عن الكيف، ولا الموضوع عن الذات، ولا الإمكانية عن التحقق.

فإذا أتى لفظ "المال" مجرورا فإنه يكون أكثر شـيوعا من وروده مرفوعا (١٣ –٢) فإن الجر يأتي إما بالإضـافة مثل "ذا مال" أو بالعطف مثل "وأموال اقترفتموها". والإضافة والعطف لا يدلان على وضع اللفظ، فالمضاف إليه يرجع إلى وضع المضاف، والمعطوف يرجع إلى وضـع المعطـوف عليه. ولكن الأهم هو ورود اللفظ مجرورا بحـروف الجـر (١١مرة) مما يدل على أن المال في حركة مسـتمرة منـه وإليه. وذلك لأن حروف الجر المستعملة قبل اللفظ هي إمـا "من" (٥ مرات)، وإمـا "ب" (٣ مـرات)، وإمـا "فـي" (٣ مرات)، فالجر بالحرف "من" هو الشائع وهو يدل على سحب المال وأخذه واسترجاعه مثل "ولم يؤت سعة من المال" (٢: ٤٧) أو "ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقـص مـن الأموال" (١٥٥: ٢) أو إعطائه للآخرين مثل "وآتـوهم مـن مال الله" (٢٤: ٣٣) أو أخذه أو سحبه من الآخـرين ظلمـا وعدوانا مثل "لتأكلوا فريقا من أموال النـاس بـالإثم وأنـتم تعلمون" (١٨٨:٢). والجر بالحرف "ب" يدل علـى إعطـاء المال وعدم استبقائه أو حجزه. وقد يكون هذا العطاء لشراء الذمم والإفساد كالرشوة مثل "أتمـدونن بمـال" (٣٦:٢٧) أو

لامتحان الشعور ومعرفة صلابة الذات واختبار القدرات من أجل التوعية لها وتقوية نشاطها مثـل "وأمـددناكم بـأموال وبنين" (١٧:٦) أو "ويمددكم بأموال وبنين" (٧١ :١٢). أما الجر بالحرف "في" فإنه يشير إلـى أن المـال يجمـع بـين الحركتين معا، الأخذ والعطاء، الدفع والجذب من وإلى، وهو ما يسمى بالمشاركة مثل " وشاركهم في الأمـوال" (١٧ :٦) وهي حركة المال الخارجية، أو التكثر وهي حركـة المـال الداخلية. وحركة المال الداخلية سلبية مثل "وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس" وهي التكاثر بلا جهد ونشاط وعمـل واجتهاد ومثل "وتكثر في الأمـوال" (٥٧ :٢٠) أي تكـاثر الأموال بلا غاية أو هدف بل من أجـل التكـاثر والاكتنـاز وليس من أجل التنمية والتطوير.

أما إذا أتى المال منصوبا فهو أكثر حالات الإعـراب شيوعا من الرفع والنصب (٢ –١٣–١٧) وهو يدل على أن المال موضوع للنشاط وأنه يقع عليه الفعل، وأنه طيع في يد الإنسان. وقد يأتي أولا بمعنى سلبي، وضعا لارتباط الشعور بالمال، وإدانة له مثل "وتحبون المال حبا جمـا" (٨٩ :٢٠) حتى يظل الشعور الإنساني مستقلا عن طرفه الآخـر وهـو

المال. فجمع المال ليس هدفا في ذاته دون اســتثمار "الــذي جمع مالا وعدده" (١٠٤ :٢) وليس صرفه هدفا فــي ذاتــه فذاك استهلاك بلا إنتاج "يقول أهلكت مالا لبــدا" (٩٠ :٦)، وليست كثرة المال في ذاتها قيمة للإنسان، بل القيمــة فــي نشاطه وعمله "وقال لأوتــين مــالا وولــدا" (١٩ :٧١) أو "وجعلت له مالا ممدودا" (٧٤ :١٢). كما أن كثرة المــال أو قلته ليست زيادة في القيمة الذاتية للإنسان أو نقصانها، فالكم ليس مقياسا للكيف "أنا أكثر منك مــالا" (١٨ :٣٤) أو "أنــا أقل منك مالا" (١٨: ٣٩) أو "وأكثــر أمــوالا" (٩ :٦٩) أو "زينـــة وأمـــوالا" (١٠ :٨٨) أو "أكثـــر أمـــوالا وأولادا" (٣٤ :٣٥). وقد يأتي ثانيا بمعنى عدم الاقتراب من أمــوال الآخرين وهم المحتاجون واليتامى والناس، وليس من بيــنهم الأغنياء، مثل "ولا تقربوا مال اليتيم" (٦ :٣٤) أو "أن الــذين يأكلون أموال اليتامى ظلما" (٤ :١٠) أو "وأكلهم أموال الناس بالباطل" (٤ :١٦١) أو "ليأكلون أمــوال النــاس بالباطــل" (٩ :٣٤). فالمال للحاجة، ومكانه الطبيعي عنــد المحتــاج، وأخذ المال من المحتاج هو قضاء على الحياة، والمال مــن أجل المحافظة على الحياة واستمرارها. وقد يأتي ثالثا بمعنى

إعطاء المال، والتخلي عنه، وإعطائه لمن هم أشد حاجة من الإنسان مثل "وآتى المال على حبه ذوي القربـى واليتـامي والمساكين" (٢: ١٧٧) أو القيام بالأفعال تحقيقا لرسالة وليس انتظارا لأجر مثل "يا قوم لا أسألكم عليه مالا، إن أجري إلا على الله" (١١: ٢٩). هذه المعاني الثلاثة للفظ "المـال" فـي حالة النصب تثبت أولا استقلال الشعور الإنساني ثـم تؤكـد ثانية ضرورة محافظة الإنسان على هذا الاسـتقلال وذلـك بإعطاء المال لمن هو في أشد حاجة من الإنسـان، وإيثـار الآخر على النفس. فاستقلال الشعور ليس واقعة فقط بل هـو واقعة يحافظ عليها بالحركة والنشاط، وبمقاومة الرغبة فـي الاستحواذ على ما لدى الآخرين، وبإيثار الآخر على الذات. فالحاجة هي التي تحدد اتجاه المال وحركته بين الناس. فيتجه المال إلى من هو في حاجة إليه.

٦– أما "المال" المضاف إلى الضمير فإنه يذكر مرة مضافا إلى ضمير الفرد (ماله، ماليـه) ٧ مـرات، ومـرة أخرى يذكر مضافا إلى ضمير الجمع في صـيغة الجمـع (أموالكم، أموالنا، أموالهم) ٤٧ مرة أي أن المال لا يدخل في علاقة كثيرة مع الفرد بل إنه علاقة جماعية (٧ –٤٧). فإذا

ما دخل في علاقة مع الفرد فإنه يكون مالا مفردا وليس أموالا بالجمع، فالفرد لا يمكنه أن يجمع المال، بل أن تراكم الأموال يكون من عمل الجماعة.

٧- ويكون "المال" مضافا إلى ضمير المتكلم مرة واحدة (ماليه) أو الغائب (ماله) ست مرات ولكنه لا يكون أبدا مضافا إلى ضمير المخاطب في صيغة "مالك". وكأن الذي له المال أما أنا المتكلم بنسبة ضئيلة أو هو الغائب بنسبة كثيرة تربو على ستة أضعاف. فالمخاطب لا مال له والمتكلم له مال نسبى أما الغائب فهو الذي له كل المال تقريبا وبالتالي تكون هناك طبقات ثلاث:

١- طبقة المعدمين، وهم المخاطب، الذين لا يملكون شيئا، وهم الجماعة الحاضرة الموجودة التي تحتاج إلى من يخاطبها والتي هي مهيأة لحياة الوعي والإدراك.

٢- طبقة الفقراء، وهم المتكلم، الذين يملكون أقل القليل، وهي الطليعة الواعية التي بالقدر الذي تملك تكون في تحالف مع الطبقة الأدنى، طبقة المعدمين.

٣- طبقة الأغنياء، وهم الغائب، الذين يملكون كل شيء تقريبا، والذين يكونون طبقة مناهضة لطبقتي المعدمين

والفقراء، فالطبقة المتوسطة إذن أقرب في تحالفها إلى طبقة الفقراء منها إلى طبقة الأغنياء.

فإذا ما أضيف "المال" إلى ضمير المتكلم (ماليه) فإنه يشير إلى استقلال شعور الإنسان عن المال. وأن قلة المال أو كثرته لم تؤثر في وعي الإنسان "ما أغنى عنـى ماليـه" (٦٩ :٢٨).

وإذا ما أضيف إلى ضمير الغائب (ماله) فإنه مـرة يكون فاعلا (٣ مرات) ومرة يكون مفعولا بـه (٣ مـرات) ولكنه لا يكون مجرورا أبدا مما يدل على أن احتفاظ الفـرد الغائب بماله بصورة ثابتة لا يؤخذ منه شيء هو أمر غيـر طبيعى. فالمال لا يسكن بل هو في حركة دائبة منـه وإليـه طبقا لنشاط الإنسان وفعله. وفي حالة كونه فاعلا فإنه يكون قيمة سلبية ولا يكون بديلا عن شعور الإنسان واستغلاله ولا عن عمله ونشاطه "ما لم يـزده مالـه وولـده إلا خسـارا" (٧١ :٢١) أو "وما يغنى ماله إذا تردى" (٩٢ :١١) أو "مـا أغنى ماله وما كسب" (١١١: ٢). وفي حالة خلود الإنسان لا يكون بما جمع من مال بل أيضا بما عمـل بالمـال وكيـف استثمره "يحسب أن ماله أخلده" (١٠٤ :٣). فإذا ما تم الإنفاق

منه رغبة في دفع المال وتحريكه فإن هذا الإنفاق يكون فـي صورة نفاق ورياء، تسكينا للجماهير أو مزايدة في الـدين أو تأجيلا لثورة، هذه "كالذي ينفق ماله رئاء الناس" (٢ :٢٦٤)، ولكن السبيل إلى الإنفاق هو إعطاء حق الآخر من المال في الزكاة "الذي يؤتى ماله يتزكى" (٩٢ :٢٨).

٨- أما لفظ "المال" المضاف إلى ضمير الجمع فـي صيغة الجمع (٤٧ مرة) فإنه يضاف إلـى ضـمير المـتكلم مرتين (أموالنا)، وإلي ضمير المخاطب ١٤ مرة (أمـوالكم) وإلي ضمير الغائب ٣١ مرة (أموالهم) مما يـدل علـى أن المتكلمين ليس لديهم أموال وأن المخاطبين يأتون في الدرجة الثانية ولكن الغائبين هم الذين يكتنزون الأمـوال (٢-١٤-٣١). هناك إذن طبقات ثلاثة:

١- طبقة الفقراء، وهم نحن، المتكلمـون، الـذين لا يملكون مالا تقريبا إلا في أقل القليل، فالمال لا يوجـد فـي أيدي من يطالبون به، ومن لا مال لهم هم الـذين يتكلمـون، وطلب المال حق لمـن لا مـال لـه. وحتـى فـي هـذين الاستعمالين، مرة يكون المال مرفوعا ليدل علـى اسـتقلال الشعور عنه "شـغلتنا أموالنـا" (٤٨ :١١)، ومـرة يكـون

مجرورا إعلانا عن المشاركة في الأمـوال "أن نفعـل فـي أموالنا ما نشاء" (١١ :٨٧).

٢- الطبقة المتوسطة، وهم أنتم، المخـاطبون الـذين يملكون بعض الأموال. فالتوجه بالخطاب إلى الحاضـرين ضرورة من المتكلمين الذين لا يملكـون شـيئا. فالخطـاب الاجتماعي كلام ممن لا مال له إلى من لـه مـال. وفـي استعمال هذه الصيغة يأتي مرة اللفظ فاعلا أو مبتدأ (أربـع مرات) لإثبات استقلال الشعور عن المـال، وأن المـال لا يكون بديلا عن قيمة الشعور الممثلة في الجهد والنشاط "إنما أموالكم وأولادكم فتنة" (٨ :٢٨)، (٦٤ :١٥). كما أن المال ليس سبيلا للرقي والتقدم بالضرورة بل قد يؤدى إلى التخمة والترف "وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفـى" (٣٤ :٣٧). وكل مشروع يجعل من كثـرة المـال وسـيلة للرفاهية والترف وبديلا عن الالتزام بمبدأ والدفاع عن قضية يكون مشروعا مفلسا "يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله" (٦٣ :٩). ثم يظهر اللفظ مرة أخرى مفعولا به (٥ مرات) مبينا حق الآخر فـي المـال وعـدم الاعتداء على أموال المحتاجين، وعدم أخذها زورا وبهتانـا،

سرقة ونصبا واحتيـالا بالتلاعـب بالأسـعار أو باحتكـار الأسواق، "ولا تأكلوا أموالكم بيـنكم بالباطـل" (٢ :١٨٨)، (٤ :٢٩)، فذلك اكتناز للمال، وإضافة مـال إلـى مـال، وتجميع لرؤوس الأموال "ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا" (٤ :٢)... وكما تبدو أهمية استثمار المـال دون صياغة، واستثماره فيما هو منـتج ولـيس فيمـا هـو مستهلك ضائع، فضياع المال في الاستهلاك سفه، واستثماره في الإنتاج زيادة ونماء. "ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما" (٤ :٥) فقيام المال بالاستثمار، وضياع المـال بالاستهلاك. فإذا ما حدث الاستثمار بنشاط الإنسان وجهـده ينمو المال ويكثر، ويصبح الأجر مطابقا للجهد "وأن تؤمنـوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم" (٤٧ :٣٦). وأخيرا يظهر اللفظ أيضا مجرورا (٥ مرات) للتأكيد مرة ثانية على ضرورة عدم استغلال رأس المال لجهد الآخـرين، وعلـى إرجاع رأس المال للإنسان وإلا صادرته السلطة الشـرعية "وإن تبتم فلكم رءوس أمـوالكم لا تظلمـون ولا تظلمـون" (٢٧٩:٢)، وذلك من أجل إعادة استثمار المال بلا استغلال لجهد الآخرين "إن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسـافحين"

(٤ :٢٤). وأفضل استثمار للمال هو بذله في قضية عامـة تهم مصالح المسلمين وعلى رأس القضايا جميعـا، الجهـاد "وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم" (٩ :٤١)، "وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم" (٦١ :١١) فذاك هو الاختبار الحقيقـي لطريقة استعمال الإنسان للمال "ولتبلون في أموالكم وأنفسكم" (٣ :١٨٦).

٣- طبقة الأغنياء، وهم الغائبون الذين يملكون المال والثروة كالملاك الغائبين، والمهـربين، وأصـحاب رؤوس الأموال، وهم الطرف المقابـل للطبقـة الفقيـرة والطبقـة المتوسطة، وهم الذين يشار إليهم بإصبع الاتهام، بأنهم كنـزة الأموال. ومن حيث الاستعمال يأتي لفظ "أموالهم" مرفوعا (٥ مرات) للإشارة إلى أن كنز المال ليس بـديلا عـن جهـد الإنسان ونشاطه وعمله "لن تغنى عنهم أمـوالهم" (٣ :١٠)، (٣ :١١٦)، (٥٨ :١٧)، وإلي أن كثرة المال لا تدل علـى قيمة في ذاتها "فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهـم" (٩ :٥٥)، (٩ :٨٥). ويأتي اللفظ مرة أخـرى منصـوبا (١٢ مـرة) للإشارة إلى استحالة أخذ أموال اليتامى، وهـم المحتـاجون، وأن من يكنزون الأموال إنما قد كنزوها حتما مـن أمـوال

المحتاجين "وآتوا اليتامي أمـوالهم" (٤ :٢) أو "ولا تـأكلوا أموالهم إلى أموالكم" (٤ :٢) أو "فـادفعوا إلـيهم أمـوالهم" (٤ :٦) أو للحث على إنفاق المال وعدم اكتنازه، وضـرورة سيولته واستثماره، فالمال للمحتاج، والمال للإنفاق "مثل الذين ينفقون أموالهم" (٢ :٢٦١)، (٢ :٢٦٥) أو "الـذين ينفقـون أموالهم في سبيل الله" (٢ :٢٦٢). هذا الإنفـاق مـن أجـل قضية، ومن أجل تحقيق هدف والحصول على نتيجة "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم" (٩ :١١). فإذا حـدث ذلك أتت أموال الأغنياء إلى من ينفقها فـي سـبيل الغايـة "وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم" (٣٣ :٢٧). أما الإنفاق من أجل التظاهر الاجتماعي أو من أجل المزايدة في الـدين وادعاء التقوى، أو من أجل الحصول على مصلحة أكبر فهو نفاق ورياء "والذين ينفقون أموالهم رئاء النـاس" (٤ :٣٨). وكذلك الإنفاق من أجل هدم المبدأ وإعاقة تطبيقه ومن أجـل استغلال الناس واستبعادهم فهو مقاومة للحق واستعمال المال ضد الأمانة وليس من أجلها "إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله" (٨ :٣٦). وأخيرا يأتي اللفظ مجرورا من أجل بيان سيولة المال وحركته وعدم ثبوته وسكونه فـي

خزائن أصحاب المال. فالمال للإنفاق من أجل القضية "وبما أنفقوا من أموالهم" (٤ :٣٤)، والمال للجهاد فـي سـبيل الله وليس تكسبا بقضايا الـدين "والمجاهـدون فـي سـبيل الله بـأموالهم" (٤ :٩٥)، "وفضـل الله المجاهـدين بـأموالهم" (٤ :٩٥)، "وجاهـ ـدوا بـ ـأموالهم" (٨ :٧٢)، (٩ :٨٨)، (٤٩ :٢٥)، "وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم" (٩ :٢٠)، "أن يجاهدوا بأموالهم" (٩ :٤٤). والذين لن يجاهـدوا بـأموالهم ستضيع أموالهم إما بالخسائر الطبيعية أو بثورات المعـدمين ضدهم "ربنا اطمـس علـى أمـوالهم" (١٠ :٨٨). المـال للمشاركة، وهو ملك للجميع، لكل فرد حق فيه. "والذين فـي أموالهم حق معلوم للسائل والمحـروم" (٧٠ :٢٤)، "وفـي أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم" (٥١ :١٩). وذاك أمر تشريعي وليس متروكا للصدقة أو للزكاة أو للإحسان "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتـزكيهم بهـا" (٩ :١٠٣). فمـال الملاك الغائبين هو في نهاية الأمر مال الجماعـة لا يجـوز لأحد أن يستحوذ عليه أو أن يمتلكه.

ثانيا: تحليل المضمون.

وينتهى تحليل المضـمون، تحليـل معـاني الآيـات بصرف النظر عن صورتها إلى نفـس النتيجـة السـابقة. ويمكن حصر هذه المعاني في مجموعات ثلاث:

١- المال مال الله يورثه لمـن يشـاء مـن عبـاده الصالحين. فملكية المال في الإسلام لله وحده، وضعه الله بين إيدينا وديعة نصرفه فيما أمر الله له أن يصرف، للمحتـاجين والفقراء، أي لمن لا مال لهم، "وآتوهم من مـال الله الـذي آتاكم" (٢٤: ٣٣)، المال وديعة بين يدي الإنسان لا يجوز له الاستحواذ عليه "فإذا آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم" (٤: ٦). ويتم نقل المال إلى المحتاج علنا، فذاك حقه العلني "فإذا دفعتم إليهم أموالهم فاشهدوا علـيهم" (٤: ٦). فحركـة المال ليس فيها سر، ولا تتم عن طريق التسرب أو الخفاء أو ما يسمى بلغتنا عن طريق "التهليب". فالمال مال الله يوجـه إلى الآخرين، وليس إرثا أو احتكارا أو ملكا لأحد. حركـة المال وانتشاره تخضع لقوانين اجتماعية وليست حقا مكتسـبا لفرد دون فرد، فإذا ما خضع المال لهذه القوانين أصبح فـي

يد الجماعة التي تستثمره لصالح الجماعة "وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها" (٣٣ :٢٧). وبتعبير آخر، المال مشاركة بنص القرآن "وشاركهم في الأموال" (١٧ :٦٤) وليس استحواذا. المال يتحرك بين الأفراد كتحرك الماء بين الأواني المستطرقة طبقا للحاجة وليس من أجل الزيادة، وطبقا للاستثمار وليس من أجل الاكتناز. فإذا ما حاول أحد أو جماعة وقف حركة المال تدخلت السلطة الشرعية وفكت حصار المال. وأخذت حق الآخرين فيه "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها" (٩ :١٠٣)، والصدقة ليست إحسانا أو تصدقا أو تفضلا بل هي حق للآخر في مال الفرد، وإعادة بناء لشعور الفرد وعودته إلى وضعه الطبيعي، وقضاء على اغترابه عن المجتمع وانحرافه عن القانون الطبيعي للمال وهو حركته الاجتماعية، وهو ما يسمى بلغة الأخلاق أن الصدقة طهارة للنفس وتزكية لها. والزكاة نفسها في العبادات هي تأكيد على حق الآخر في المال "ويتجنبها الأشقى الذي يؤتى ماله يتزكى" (٩٢ :١٨). وليس المقصود منها رشوة اجتماعية وسياسية حتى يترك الإنسان بماله يفعل ما يشاء ما دام قد دفع ٢,٥% من ماله

المخزون الذي مر عليه الحول دون حركة، بل المقصود هو التأكيد على حق المجتمع في المال وعلى ضرورة اسـتثماره دون خزنه واكتنازه. بل أن حق الآخر في مال الفرد نـص صريح لا يحتمل تأويلا أو تخريجا "والذين في أموالهم حـق معلوم للسائل والمحروم" (٧٠ :٢٤)، ومرة أخـرى " وفـي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم" (٥١ :١٩). ومشاركة الأموال بين الناس، وحق الآخر في مال الفرد هو الغاية من العبادات وعلى رأسها الصلاة، والصلاة إحساس بالآخر غير المتعين وهو الله، ومشاركة المال هو إحساس بالآخر المتعين وهو الذي لا مال له "أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء" (١١ :٨٧).

لذلك استحال أن يضيف الغني إلـى أموالـه مـال الفقير، أو أن يأخذ من له مال حق من لا مال له " ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم أنه كان حوبا كبيرا" (٤ :٢) حتـى لا يتراكم رأس المال وحتى يظل المال سائلا بين أيدي النـاس، متحركا في الجماعة. فإضافة مال الآخر إلى مال الفرد إثـم وعدوان. وظلم وبهتان "لتأكلوا فريقا من أموال الناس بـالإثم وأنتم تعلمون" (٢ :١٨٩). فالإثم والزور والبهتان والبطلان

ليس في العبادات وحدها بل أيضا في خروج المال على نظام استعماله وعلى مساره الاجتماعي " ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل" (٢ :١٨٨)، أو "يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل" (٤ :٢٩). فالإيمان مساو لاستعمال المال حسب الشرع، وحركة المال بين الناس دون استحواذ تعبير عن الإيمان.

ولا فرق في الاستحواذ على أموال الناس بين رجال الدين ورجال الدنيا، بين السلطة الدينية والسلطة السياسية، فكلاهما قد يوقفان حركة المال "إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل" (٩ :٣٤)، وهو ما يفسر تاريخيا باستمرار تواطؤ السلطتين الدينية والسياسية على أكل أموال الناس مما يسبب الثورة الاجتماعية التي تعيد الحركة إلى المال.

والآخر هو الفقير المحتاج الذي لا عائل له، الممثل باليتيم. فاليتيم هو الذي فقد عائله ولم يعد له سند إلا من الجماعة. هذا اليتيم له حق في ماله، إن كان له مال، وهو حق الحاجة والفاقة، ولا يمكن الاقتراب من ماله، فالمال يستعمل عند الحاجة، الحاجة هي التي تحدد الملكية، وليست

الملكية هي التي تحدد الحاجة. لا توجد ملكية مجـردة بـل توجد حاجة ملموسة يجوز عندها استعمال المال وتصـريفه "ولا تقربوا مال اليتيم" (٦ :١٥٢)، (١٧ :٣٤). وأكل مـال المحتاج الذي لا عائل له هو أكل للنار في البطون أي كسب حرام "إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فـي بطونهم نارا" (٤ :١٠). ومن يفعل ذلـك يسـتبدل الخبيـث بالطيب، والحرام بالحلال "وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبـدلوا الخبيث بالطيب" (٤ :٢).

ويتم استثمار المال بالجهد والنشاط وبالعمل، فالمـال إمكانية حركة ونشاط، وسيلة للإنسان كي يظهر بهـا قـواه، ويحقق بها إمكانياته. ولكن المال لا يولد المال. ولهذا حـرم الربا لأنه أكل لأموال الناس بالباطل، وزيادة في المال بـلا جهد أو عمل أو كد أو نصب "وأخذهم الربا وقد نهوا عنـه وأكلهم أموال الناس بالباطل" (٤ :١٦١). فزيادة المال كما لا تعني نماء الإنسان كيفا، وذلك لأن النشاط هو الـذي يغيـر الكيف "وما أتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله" (٣٠ :٣٩). فالربا استغلال لحاجات الآخرين، وتكـاثر في المال بلا زيادة مقابلة في الإنتاج، وتشرب الأموال مـن

المحتاجين إلى الذين لديهم فائض في الأموال. والتوبة مـن الربا تعني استرداد الفرد لرأسماله وإرجاع ربح المال إلـى المستدين "وإن تبتم فلكـم رءوس أمـوالكم لا تظلمـون ولا تظلمون" (٢ :٢٧٩). استثمار المال إذن يتم بنشاط الإنسان، وبعرقه وكده "أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسـافحين" (٤ :٢٤)، ويتم الاستثمار بالترشيد والتنظير وحسن التصرف "ولا تؤتوا أموالكم التي جعل الله لكم قياما" (٤ :٥). فالمـال من أجل القيام أي الإنتاج والزيادة وليس من أجل الاستهلاك والنقصان. فإذا كان الربا أجرا بلا عمل فإن نشاط الإنسان قد يكون عملا بلا أجر لأن نشاطه يهدف إلى تحقيق رسالة ولا يهدف إلى تحقيق ربح. فالربح ليس هو الدافع على النشـاط بل الدفاع عن قضية، والانتصار لمبدأ "يا قوم لا أسالكم عليه مالا إن أجري إلا على الله" (١١ :٢٩). فإذا عمل الإنسـان من أجل قضية، تحقيقا لهدف، وتأدية لرسالة فإنه لن يعدم ما يقيم به حياته "وأن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسـألكم أموالكم" (٤٧ :٣٦).

٢– تأكيدا على المشاركة في الأموال، وتطبيقا لحركة المال في المجتمع، كلما ذكر المال ذكر الإنفاق له، والجهـاد

بل والبذل منه في سبيل الله أي في سبيل المصلحة العامـة، وخدمة للقضية التي بها عموم البلوى كما يقول الفقهاء. "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبـة أنبتـت سـبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضـاعف لمـن يشـاء" (٢ :٢٦١). والإنفاق لا يعني الصدقة بل يعنى استثمار المال وذيوعه وحركته وعدم اكتنازه أو خزنه "ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة" (٢ :٢٦٥). فالإنفاق هنا أيضا لا يهدف إلى الربح بل إلـى خدمة القضايا العامة. ويتم هذا الإنفاق سرا وعلانية فقط بغية الشهرة أو الحصول على مصلحة أكبر "الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانيـة فلهـم أجـرهم عنـد ربهـم" (٢ :٢٧٤). فما أكثر الإنفاق الذي يتم رياء ونفاقا أو من أجل إلحاق الأذى والإضرار بالآخرين واستغلال لهم، على عكس "الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم" (٢ :٢٦٢). وفـي الإنفـاق يتميز فرد عن فرد، ويتفاضل مؤمن عن مؤمن، فالتفاضـل والتمايز ليس في قدر المال بل في قدر الإنفاق أي المساهمة بالمال من أجل المصلحة العامة. وبهذا المعنى وحده يفضـل

الرجال والنساء بما أنفقوا من أموالهم "بما فضل الله بعضـهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم" (٤ :٣٤). أمـا الإنفـاق ضد المصلحة العامة وصدا عن سبيل الله فهو الكفر بعينـه " إن الذين كفروا ينفقون أمـوالهم ليصـدوا عـن سـبيل الله" (٨ :٣٦). فالكفر ليس هو الكفر النظري بل هو كيفية إنفاق المال في تخريب الذمم والضمائر، رشوة للناس، وفي غرس قيم الترف والنعيم التي هي أبعد ما تكون عن قيم النضـال، وتحقيق الرسالة.

وإنفاق المال هو جهاد في سبيل الله مقـرون بجهـاد النفس، "انفروا خفافا وثقالا، وجاهـدوا بـأموالكم وأنفسـكم" (٩ :٤١). والجهاد بالمال وصف لواقع مثل "وتجاهدون فـي سبيل الله بأموالكم وأنفسكم" (٦١ :١١). كمـا هـو تقريـر لسلوك ماض "إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم" (٨ :٧٢). كما هو أمـر فـي الحاضـر. فالجهاد بالمال لا يعرف وقتا ولا زمنا. والذي يريد التشـبه بالرسول فليفعل بالجهاد والمال وليس فقط بإقامـة الشـعائر وإطالة اللحى "لكن الرسول والذين معه جاهـدوا بـأموالهم وأنفسهم" (٩ :٨٨). والجهاد بالمال يتم عن اقتناع وليس عن

ريبة في نتيجة الجهاد ومآل المال، فالعمل التـاريخي عمـل طويل، والاستثمار التاريخي قد لا يبدو في التو وللحظة "ثـم لم يرتابوا وجاهـدوا بـأموالهم وأنفسـهم فـي سـبيل الله" (٤٩ :١٥) كما أن الإيمان بالقضية إيمان يقيني لا ريبة فيـه حتى يتم الجهاد بالمال عن يقين أيضا. ويكون الجهاد بالمال على قدر الطاقة، وقليل المال يعظم بتكرار البذل والعطاء من الآخرين "لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليـوم الآخـر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم" (٩ :٤٤). وكما يتفاضل النـاس بالإنفاق فإنهم يتفاضلون أيضا بالجهاد بالمـال "لا يسـتوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون فـي سبيل الله بأموالهم وأنفسهم" (٤ :٩٥). فالتفاضل لـيس فـي الطبقات الاجتماعية أو في المناصب الإدارية أو في الوجاهة الاجتماعية بل في الجهاد بمال الفرد في سبيل القضية العامة، التحرر للبلاد المحتل، والتنمية للبلـد المتخلـف "فضـل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة" (٤ :٩٥). وقد يصل حد الجهاد بالمال إلى الجهاد بكـل المـال عـن طريق تركه كلية والسعي في سـبيل الله تحقيقـا للرسـالة، ودفاعا عن القضية، فالإنسان لا يرتبط إلا بالهـدف "الـذين

أخرجوا من ديـارهم وأمـوالهم يبتغـون فضـلا مـن الله" (٥٩ :٨). وهنا لا يكون فقد المال خسارة بل يكون وجـودا للذات، وانتصارا للمبدأ، ودفاعا عن الحـق، وإعلانـا عـن استقلال الإنسان "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة" (٩ :١١١).

٣- بعد التأكيد على شيوع المال، وعلـى ضـرورة الإنفاق له والجهاد به، تأتي الحقيقة الثالثـة وهـي إعـلان استقلال الشعور الإنساني. فالذي يحب المال مدان لأنه يربط شعوره بشيء آخر غير القضية "وتحبون المال حبـا جمـا" (٨٩ :٢٠). فإذا ما أحب الإنسان المال أكثر مـن التزامـه بالمبدأ ودفاعه عن القضية انهار البناء الاجتماعي وتوقفـت حركة التاريخ "قل إن كان... وأموال اقترفتموهـا وتجـارة تخشون كسادها... فتربصوا حتى يأتي الله بأمره" (٩ :٢٤). فالشعور السوي هو الذي ينفق المال ويجاهد به علـى حبـه للمال "وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامي والمساكين" (٢ :١٧٧). وهو الشعور الذي لم يغتر بالمال ولم يرضخ له.

والمال ليس قيمة في ذاته بل قيمته من الجهد المبذول في استثماره "الذي جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلـده"

(١٠٤ : ٢–٣) أي في استقلال الشعور عن المال. كمـا أن المال ليس بديلا عن التصور الصادق للحياة، فالمال لا يغني من الإدراك والمعرفة وإلا لأصبح الإنسان "غنـى حـرب"! "أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا" (١٩ :٧٧). فالكم ليس بديلا عن الكيف. والموضوع لـيس بـديلا عـن الذات، والمادة ليست بديلا عن الشعور. والمال لا يعصم من الانهيار، فالبناء لا يتم إلا بالكيف "ذرني ومن خلقت وحيـدا وجعلت له مالا ممدودا.. سأرهقه صعودا" (٧٤ : ١٢–١٧). المال ليس بديلا عن بناء الشعور واتجاهه، وجمع المـال لا يعني بالضرورة زيادة الوعي أو قيمـة العمـل أو تطـور المجتمع. ونقص المال ليس نقصا في القيمة نظرا لاسـتقلال الشعور عن المال "ونحن أحق منه بالملك ولم يؤت سعة من المال" (٢ :٢٤٧). فالمال في حركة دائبة، يقل ويكثـر، ولا يثبت على حال معين، هو شيء عارض محض لا تتوقـف عليه قيمة الإنسان. قلة المال إذن قـد تعنـي عظـم قيمـة الشعور، واستقلال الإنسان "إن ترني أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى يؤتيني خيرا من جنتك" (١٨ :٣٩). بل أن نقص الأموال قد يكون وسيلة لازدهار الشعور، وطريقة لإعـلان

استقلاله، وشحذا لهمته، "ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال" (٢ :١٥٥). فنقص المال دافع لحركـة الجماعة وإشارة بالبنان إلى من لديهم المال الفائض "لتبلون في أموالكم وأنفسكم" (٣ :١٨٦). فذلك جزء مـن التجربـة الاجتماعية. وبالتالي يستحيل الفقر الدائم كما يستحيل الغنـى الدائم.

وكما أن نقص المال لـيس بـديلا عـن اسـتقلال الشعور، فإن كثرة المال لا تعني بالضرورة استقلال الشعور وقيمة عمله، إذ الكم لا يغنى عن الكيف"فقال لصاحبه وهـو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا" (٣٤:١٨). المال مجرد زينة للحياة أي شيء عارض في مقابل الشعور وهو الشيء الثابت الجوهري "المال والبنون زينة الحياة الدنيا" (٤٦:١٨). المال كالنسل مظاهر خارجية للحياة "اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد" (٢٠:٥٧). وكما يكون نقص المال شحذا للشعور تكون زيادة المال ضياعا للشعور، ولتمثله للمبـدأ والتزامـه بالقضـية "أمددناكم بأموال وبنين وجعلنـاكم أكثـر نفيـرا" (٦:١٧). وتكون كما بلا كيف" ويمددكم بأموال وبنـين ويجعـل لكـم

جنات" (١٢:٧١). فكثرة المال قد تعني النهاية والفناء كمـا حدث الآن في مجتمعات الوفرة والرفاهية "أيحسـبون أنمـا نمدهم من مال وبنين نسارع لهم في الخيـرات" (٥٥:٢٣). وبتعبير قرآني، قد تكون كثرة المال فتنة كما أن قلة المـال ابتلاء "واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنـة" (٢٨:٨). وقـد تصبح كثرة المال نقمة لا نعمة إذا ما اعتبرها صاحبها بديلا عن العمل، وقيمة في ذاتها."عتل بعد ذلك زنـيم أن كـان ذا مال وبنين" (١٤:٦٨). وكلمـا زاد المـال زادت الخسـارة بزيادة الطغيان، والعمى الذهني "ربي إنهم عصوني واتبعـوا من لم يزده ماله وولده إلا خسـارا" (٢١:٧١). وقـد كـان فرعون كثير المال ولكن هذه الكثرة لم تغنـه عـن العقـل والفضيلة "إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحيـاة الدنيا" (١٨٨:١٠). فكثرة المال وكثرة النسـل مـا هـي إلا مظاهر في الدنيا لا يجوز الحكم عليه طبقـا للجـوهر "فـلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم" (٥٥:٩). كثرة المال قد تزيد من قسوة القلب وتبعد الإنسان عن طريق الوعي والفضيلة "ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم" (٨٨:١٠).

والمال ليس سبيلا للخلاص، وليس بديلا عن العمل الصالح، فالكم لا يغني عن الكيف، والموضوع ليس بديلا للذات، والمادة لا تغنى عن المعنى، والشيء ليس بديلا عن النشاط "يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتي الله بقلب سليم" (٨٨:٢٦). المال ليس بديلا عن الوعي"أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا" (٧٧:١٩). والمال ليس بديلا عن الرؤية الصادقة والإدراك السليم والحس البديهي" إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا" (٣: ١٠، ١١٦). واستهلاك المال لا يغني الإنسان عن بذل طاقته في العمل الصالح "يقول أهلكت مالا لبدا" (٦:٩٠). ولن يستطيع المال حفظ صاحبه من السقوط والتردي "وما يغني عنه ماله إذا تردى" (١١:٩٢).

والمال كالسلطان لا يغنيان عن العمل الصالح "ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانيه" (٦٩: ٢٨ –٢٩). والتاريخ شاهد على انهيار الشعوب التي اعتمدت على قوة المال وحده "كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا" (٦٩:٩). لن تغني كثرة المال أو النسل من الانهيار والسقوط، فقوانين التاريخ وحركة المجتمعات ثابتة " وقالوا

نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين" (٣٥:٣٤). بـل إن صاحب المال لا يستطيع أن يتقرب بماله أو أن يترقى بما يكتنز. فالصعود الاجتماعي من حيث الغنى لا يقابله صـعود معنوي من حيث القيمة "وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى" (٣٧:٣٤). لذلك يحذر القرآن دائما من رضوخ الشعور للمادة، وينبه على خطورة نزوله عن استقلاله أمـام المال "شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا" (١١:٤٧) أو قبول المال رشوة بديلا عن نقاء الضمير والالتزام بالمبدأ "أتمدونن بمال" (٣٦:٢٧). ويأتي هذا التحذير بصيغة الأمـر "يأيهـا الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكـم عـن ذكـر الله" (٩:٦٣).

هذه المعاني الثلاثة هي التي يدور حولهـا مفهـوم "المال" في القرآن، المال حق لله، وحق الآخر، وحق استقلال الشعور الفردي عنه.

وفي النهاية، يمكننا استنتاج الآتي:

١- الطريق اللارأسمالي للتنمية في البلاد الناميـة هو الطريق الذي ينبع من تراثهـا القـديم، ومـن وجـدانها القومي، ومن قيمتها وعاداتها وتقاليدها، وهو فـي الغالـب

التراث الديني، ومن ثم وجب إعادة تفسيره على نحو يساعد قضية التنمية، ويخدم مصالح الأغلبية.

٢- المال مال الله وليس ملكا لأحد، ولكن للإنسان حق التصرف وحق الانتفاع وحق الاستثمار، فإذا ما استغل الإنسان الآخر أو احتكر أو اكتنز فإن من حق السلطة الشرعية استرداد الوديعة. لذلك من حق السلطة الشرعية التأميم والمصادرة للصالح العام. فملكية المال أقرب إلى الجماعية منها إلى الفردية.

٣- المال حركة اجتماعية بين أفراد الجماعة، لا يجوز اكتنازه أو احتكاره أو الاحتفاظ به بل هو مال سائل للاستثمار لمصلحة الجماعة. ومن حق السلطة الشرعية التدخل لمنع تكديس المال أو اختزانه دون استثمار.

ماذا تعني: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؟

في هذا الشهر الكريم. شهر رمضان الذي تزداد فيه عواطفنا الدينية اشتعالا، ونعبر عنها في مظـاهر خارجيـة عديدة بالإكثار من النوافل، والمشاركة في الموالد، والزيـادة في أنوار المآذن والمساجد، وتسبيح الله وحمده بالتمتمات في الطرقات، وحمل المسبحات في وسائل النقل العامة، ونهـر المفطرين والازدراء بهم، والتكالب على شراء مسـتلزمات شهر رمضان من بضائع مستوردة، بعد تدبير الدولة العملـة الصعبة لهذا الغرض، والإفطار الراقص والسحور. في وسط هذا كله يتريث المتأمل منا في دينه، ويفكـر فـي أصـوله، ويحصي أركانه، فيجد أن أول ركن من أركان الإسلام هـو الشهادة، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله كمـا هو معروف في الحديث المشهور"بني الإسلام على خمس..." وهي الشهادة التي نطلقها قبل كل صلاة، والتـي أصـبحت عنوان المسلم. فإن قالها عصم دمه وماله، ودخل في زمـرة الجماعة، وأصبح فردا في الأمة له ما لها من حقوق، وعليه ما عليها من واجبات، والتي أصبحت شعارا على أعلام كثير من الدول التي لها تاريخ إسلامي. ثم يسأل نفسه ماذا تعنى:

أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله بالنسبة للعصر الحاضر[؟]

هي عبارة مركبة تتكون من ثلاث عبارات بسيطة: أولا–أشهد أن. ثانيا- لا إله إلا الله. ثالثا- وأن محمدا رسول الله.

أولا: ماذا تعنى الشهادة؟

يظن الناس خطأ أن الشهادة تعني مجرد قول، فإذا ما لفظ الإنسان الشهادة فهو مسلم. ومع أن هذا التفسير هو الذي أخذه المرجئة من الفرق الكلامية، وأبو حنيفة من الفقهاء إلا أنه يجعل إعلان الشهادة إعلانا مجانيا بلا ثمن، وقولا فارغا بلا مضمون. فما أسهل أن ينطق الإنسان بالشهادة باللسان دون أن يعنيها بالفكر أو يشهد بها بالوجدان أو أن يصدقها بالعمل. وهذا هو حالنا جميعا عندما نسمعها قبل كل صلاة في الآذان، وعندما نرفع إبهامنا ناطقين بها ونحن راكعون في التشهد في آخر الصلاة، وعندما نرى جنازة في الطرق العام، وعندما نرى مصيبة وقد حلت بفرد أو جماعة، وعندما نميز أمتنا عن غيرها من الملل.

[؟] كتب هذا المقال لجريدة "الأهالي" عام ١٩٧٨.

فإذا كنا أكثر جرأة. وأكثر التزاما، وأكثر استنارة، فإن القول قد يصحبه فكر، فنعني بعد النطق بالشهادة بأن الله موجود، وبأنه واحد، ولكن هذا الفكر المسطح الذي يجعل من الألوهية قضية إثبات أو نفي أو مجرد قضية عددية تشير إلى أن الله عدده واحد لا تزيد عن القول المجرد، فهي فكرة مجردة أيضا لا مضمون لها، فكلنا نعلم أن الله واحد، ولكن ما هي متطلبات هذه المعرفة؟ وماذا تعني هذه المعرفة بالنسبة للشعور وكيان الفرد؟ وماذا عن أثرها في العالم الخارجي؟ لا شيء، فهي معرفة جرداء عرجاء، ولو كنا نعلم جميعا أن الله واحدا لما أشركنا به شيئا، ولا يعني الشرك إثبات أن الله عدده اثنان أو أكثر بل يعني الإشراك في الدوافع والغايات، وكثير منا تحركه دوافع الهجرة إلى الخارج أو الكسب غير المشروع في الداخل، أو البحث عن الجاه والسلطان، أو الجري وراء الجنس المكبوت. فمعرفة أن الله واحد هي معرفة العجائز إن لم تتحقق متطلباتها.

فإذا كنا أكثر التزاما، وأبعد نظرا، وأعمق شعورا، أصبح للشهادة معنى يحياه الإنسان، ويشعر به، ومن ثم تكون المعرفة بأن الله موجود وواحد أكثر التصاقا بحياة الإنسان

ووجدانه، يشعر بمعنى العبارة، ويحس بمضمونها، ويدرك أثرها في النفس، فإذا قال الشهادة فإنه يعنيها ويشعر بها. ولكن يظل أيضا هذا الفهم على مستوى العجائز لأنه لا يحقق مطلبا في الخارج، ولا يتجاوز عالم الإنسان الداخلي. يظل الله كدافع شعوري مطويا، مكنونا، مخزونا، حبيسا في النفس، لا يدفع ولا يحرك، ولا يبعث ولا ينشط، وكثيرا ما تزيحه الدوافع الحسية الأكثر التصاقا بحياة الناس المباشرة، فيتحرك الإنسان بدافع الكسب أو الشهرة أو الجنس أو الخوف أكثر مما يتحرك بدافع الألوهية، وكثيرا ما تزاحمه هموم الحياة اليومية فيتحرك سعيا وراء الرزق والمواد الغذائية المدعمة من الدولة أكثر مما يتحرك بالألوهية الدفينة.

فإذا كان التزامنا واضحا، وكنا نبغي دفع الثمن الذي يتطلبه قول"لا إله إلا الله"، وكنا أكثر التصاقا بالواقع، وأكثر التحاما بمشاكل الجماهير، وأكثر استعدادا للتضحية، وأشد جرأة، وأقل خوفا، وأكثر نقاء وطهارة، وأقل انغماسا في الوظائف والروتين، تتحول الشهادة من الداخل إلى الخارج، فلا تكون قولا فحسب، ولا معنى فقط، ولا شعورا

وكفى، بل تكون عملا يتحقق به هذا القول بالفعـل، ويحيـل معناه إلى واقع، ويتحول الشعور من رضى واسـتكانة إلـى حركة ونشاط، وتنطلق الدوافع الحبيسة والطاقـات المعطلـة وتنصرف في الواقع تجرف ما يصدها، وتعيد البناء، وتتحول الجماهير إلى حركة في التاريخ. وهذا ما عني بـه الفقهـاء والمصلحون الاجتماعيون عندما فرقوا بين توحيـد النظـر وتوحيد العمل، وأن الثاني هو حـق الأول ومضـمونه، وأن انهيار المسلمين يحدث إذا ما أخذوا توحيد النظـر وتركـوا توحيد العمل، وإن صلاحهم وتقدمهم وفلاحهم إنما يأتي بدفع ثمن التوحيد ألا وهو العمل.

فالشهادة إذن لا تعني فقط القول أو التشهد بل تعني أن يكون الإنسان حاضرا في جماعة ويشهد على عصـره، ويقول هذا مرض أقضي عليه، وهـذا فقـر فـي مجتمـع الأغنياء، وهذا احتلال لأراضى المسلمين، وهذا تخلف لـدى خير أمة أخرجت للناس. فالشهادة من "شـهد" أي الإعـلان، والدحض، والفضح، والإثبات، والنفـي، وأخـذ الموقـف، والانتصار للحق. تعني الشهادة رؤية أحوال العصر والحكم عليها بأحكام الله. فإذا شهد الإنسان علـى عصـره بـالقول

وبالعمل وفضح الانفصام بين الفكر والواقع، وأظهر المسافة بين كلام الله والأوضاع الاجتماعية، ومات دون غايته فإنـه يصبح شهيدا، فالشاهد على عصره هو الشهيد في عصـره، والشهيد عند قوم هو الشاهد على أحوالهم. وبلا مسـاومة أو إعلان لإنصاف المفردات. الشهادة إذن هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل مكان حل فيه الإنسان. وفي كـل جماعة يحط عليها، وأن يغير الإنسان المنكر باليد أي الفعل، وبالقول أي الجهر بالحق، وبالقلب حتى يظل شعوره طاهرا نقيا، وحتى لا تفسـد الضـمائر والـذمم أمـام الرشـاوى والإغراءات أو التهديدات والتلويح بالعقوبات.

ثانيا- ماذا تعني: لا اله إلا الله؟

من الناحية اللغوية الصرفة وتركيب الجملة، العبارة منفية بلا ومستثناه بإلا، وإذا أردنا معرفة معناها كما يقـول علماء اللغة وينصحون، وكما تعلمنا في المدارس نسقط النفي ونسقط الاستثناء. فإذا فعلنا ذلك مع عبـارة "لا الـه إلا الله" وأسقطنا لا ثم أسقطنا إلا كان لدينا "إله الله" أو"إله إله" أو"الله الله" وهذا يسمى في لغة المنطق تحصيل حاصل، إذ أننا نجعل الموضوع محمـولا، والمحـول موضـوعا أو أن نكـرر

الموضوع مرتين أو المحمول مرتين. وفي كل الحالات لا تفيد العبارة شيئا على مستوى النظر أو المعنى.

ولكن العبارة تدل على موقف عملي، وبتعبير أدق تدل العبارة على فعلين من أفعال الشعور يقوم بها المؤمن، فأفعال الإيمان كلها أفعال شعورية. الأول فعل الفرض في قول الإنسان "لا إله"، أن يرفض الإنسان كل آلهة العصر المزيفة، وأن ينفيها، ويفضحها، ويدمغها، ويقضي عليها باليد واللسان والقلب، فتلك شهادته عليها. وكل عصر له آلهته، وآلهة عصرنا هي المال، والسلطة، والجاه، والجنس، وغيرها، وهي آلهة لأنها تمثل أقوى الدوافع فينا. فالكل يبحث عن المال، ويجري وراءه لاهثا، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، ولا يراعي الإنسان في ذلك قانون، ولا يرعى حرمة، لا تهمه إلا العملات، والسمسرة، والمضاربة، والتحايل على القانون، والتهرب من الضرائب، والسعي لدى الولاة من أجل تراخيص الاستيراد والتصدير، والاتجار في السوق السوداء. وقد يبحث آخرون عن السلطة، حبا في السيطرة، ورغبة في التحكم في رقاب الناس، فيتزلفون إلى الحكام سعيا وراء المناصب، ويبررون قراراتهم إسراعا

منهم في التأييـد، ويبـاركون خطـواتهم، ويثنـون علـى أشخاصهم، ويجعلون أنفسهم مداحين ومنشدين، انتظارا للمن والسلوى، وكثيرا ما تطول قوائم الانتظار. وقد يبحث فريـق ثالث عن الشهرة، ويتوق إلى أخذ المراكز الأولـى، وإلـى تصدر المجالس حتى تتحقق ذاتيته المنسية، ويكثر الحـديث عنه في أجهزة الإعلام، ويضحي بالمصلحة العامة من أجـل تأكيد أدوارهم المدعاة، ويقضون على الوحدة الوطنيـة مـن أجل قيادة تبحث عن دور. وقد يبحث فريق رابع عن تحقيق رغبة جنسية مكبوتة، ويعبر عن ذلك في الإشارات المستمرة إلى الجنس في أحاديثنا، وفي نكاتنا الشـعبية، وفـي ذكـر شارع الهرم بملاهيه ولياليه، وفي الإكثـار مـن الحفـلات الراقصة، وإثارة المشكلات القانونية حول القبلات العلنية أو في فرض الرقابة عليها في الإعلانات الدعائية، أو عدها في الأفلام حرصا على الرواج، أو المبالغة في التعفف والتـأفف والاشمئزاز، والتشدق بالطهارة والإعلان عن التمسك بالدين، وفرض الحجاب، وعدم لمـس المحـارم حتـى لا ينـتقض الوضوء، وعدم مجالستهم حتى لا يحضر الشيطان!

فإذا ما استطاع الإنسان بفعل الرفض هذا القضاء على آلهة العصر، ويا ليته يعيش حتى يقضي على واحد منها فقط، قام الشعور بالفعل الثاني "إلا الله" وأثبت حقيقة إيجابية وهي أنه يوجد إله حق هو الله، مبدأ عام شامل يتساوى الجميع أمامه، وبالتالي لا يمكن لأحد أن يفسر الله لحسابه الخاص، فالمبدأ العام الشامل يعم الأفراد جميعا، ولا يمكن لأحد أن يجعل الله يعمل لحسابه الخاص، فالمبدأ الشامل لا تحيز فيه ولا موالاة لأحد على حساب آخر. فإذا ما اعتبر أحد أن الله يعمل لحسابه الخاص فتكبر وسيطر على رقاب الناس فإنه يصبح آلها من آلهة العصر وجب القضاء عليه، وإنزاله من على عرشه المزيف، فكيف يجعل الإنسان نفسه إلها؟

فعلى المسلم الذي يقول "لا إله إلا الله" بدل المرة عشرات المرات كل يوم أن يرفض ثم يقبل، ويرفض آلهة العصر المزيفة، وبلغة العصر أن يكون ثائرا رافضا للأوضاع القائمة التي يدعي فيها الأفراد الألوهية باستحواذهم على السلطة وتركيزهم الأموال في أيديهم، ثم يقبل الانتساب إلى مبدأ يتساوى الجميع أمامه أي أن يكون بانيا لمجتمع

جديد لا طبقية فيه ولا سيطرة ولا تحكم فيه. فلا يوجد هدم بلا بناء، ولا يوجد بناء بلا هدم، ولا يوجد سلب بلا إيجاب، ولا إيجاب بلا سلب. مهمتنا إذن في النقد الاجتماعي وبيان عورات العصر ومآسيه ثم إعادة بناء الأمة طبقا لمبادئ الحرية والعدل والمساواة.

وهذا هو معنى التوحيد الذي تشير إليه شهادة أن لا إله إلا الله. يعنى التوحيد التحرر الوجداني من كل قيود قاهرة للإنسان حتى يصبح الإنسان حرا في قراراته وسلوكه وأفعاله. كما يعني أيضا المساواة الاجتماعية، فالكل بشر متساو أمام مبدأ واحد، لا فرق بين أبيض وأسود، حاكم أو محكوم، كبير أم صغير، قوي أم ضعيف. ويعني ثالثا التكافل الاجتماعي إذ لو حدث وظهرت فروق بين الطبقات فإن واجب الأمة إعادة البناء الاجتماعي من جديد حتى يبقى المجتمع اللاطبقي هو الدليل الوحيد على أن الناس سواسية كأسنان المشط، والثورة المستمرة على إقامة مجتمع العدل والمساواة.

يلزم في عصرنا إذن أن نقول "لا" ثم أن نقول "نعم". نقول "لا" لآلهة العصر فهذا معنى "لا إله"، ثم نقول

"نعم" للمبدأ الواحد الذي يتساوى أمامه الجميع فهذا معنى" إلا الله". ومن ثم تكون روح عصرنا الذي يبارك ويؤيد، ويقول آمين آمين، ليس في الإمكان أبـدع ممـا كـان، روحـا لا يرضاها الإسلام، وليس من روح الله. ولكن روح الإسـلام والذي تنبع من روح الله هو روح الرفض الممثـل فـي "لا إله"، أن يعيش الإنسان في عصره رافضا أي ناقدا، ناصحا، جاهرا بالحق، داحضا للباطل، والشهيد هو الذي يقول كلمـة الحق في وجه الحاكم الظالم.

ليتنا نوفي"لا إله إلا الله" حقها بأن نعطيها مضمونها كلمة كلمة، وألا يكف المسلم عن أن يقول"لا"، فما أكثر آلهة العصر، وقد يموت المسلم ولم يوف بعد "لا" حقها!

ثالثا: ماذا تعنى الشهادة الثانية"وأن محمدا رسول الله"؟

ويظن الناس خطأ أن محمدا رسول الله تعنى تعظيم الأنبياء وعلى رأسهم محمد وتبجيله بشخصه، والحديث عنه، وذكر محامده وفضائله. بل إنه في كثير من الأحيان تطغـى الشهادة الثانية "وأشهد أن محمدا رسول الله" علـى الشـهادة الأولى "أشهد أن لا إله إلا الله" ويكثر الحـديث عـن حـب محمد، وحب آل البيت، وشفاعة محمد على نحو لا يرضـاه الإسلام، وبطريقة مستحدثة لم يعرفها الصحابة الأوائل. وفي أحسن الأحوال يوضع "الله" و"محمد" كل منهما فـي إحـدى الشهادتين، "الله" في "لا اله إلا الله""ومحمد" في"محمد رسـول الله" والحديث عنهما على مستوى واحد، كمـا حـدث فـي عقائدنا المتأخرة عندما أصبح قطبا التوحيد الله ومحمـد أي الإلهيات والنبوات، بل وأضاف المتأخرون، فـي عصـور تخلفنا وانهيارنا، ضمن العقائد التي يجب على كـل مسـلم معرفتها أسماء أولاده ذكورا وإناثا وأسماء آبائـه وأجـداده وأسماء زوجاته. وفي أحسن الأحوال تبقى الشفاعة جزءا من العقائد الأشعرية التي ورثناها، يبتهل الشيخ ويطلب شـفاعة محمد، ويبتهل المسلمون وراءه ويطلبـون أيضـا شـفاعة

الحبيب، وطلب الشفاعة يأتي من قوم لا يثقون بأعمالهم، وليس لهم قيمة من ذواتهم، ويعتمدون على الواسطة في تسيير أمورهم. وقد قوى الصوفية هذا التيار بتركيزهم أيضا على شخص محمد، وحديثهم عن الحقيقة المحمدية، الخالدة، الأزلية، الأبدية التي منها خلق كل شيء، الأرض والسماء، والأنهار والبحار، والنباتات والأشجار، والإنسان والحيوان. ونزيد على ذلك الاحتفال بالمولد النبوي، والتركيز على شخص محمد وننسى قولة أبي بكر "من كان يعبد محمدا فإن محمد قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت". هذا بالإضافة إلى الهبوط الطبيعي في وعي الناس، وحرصهم على تشخيص الحقائق وتمثيلها في الأشخاص، فالوحي هو الله، والإسلام هو محمد.

وكل هذا ليس هو المقصود بالشهادة الثانية "أشهد أن محمدا رسول الله"، فما المقصود إذن؟ تعني هذه الشهادة الثانية الإعلان عن نهاية تطور الوحي واكتماله في الوحي الإسلامي، وأن الوحي الإسلامي هو آخر مرحلة من مراحل طويلة متتالية ظهر فيها الوحي على فترات طبقا لدرجات الوعي الإنساني وتقدمه، وطبقا للوضع الاجتماعي لكل

جماعة يظهر فيها الوحي، وطبقا للمرحلة التاريخية والوضع الحضاري الذي يمر به كل مجتمع. فعندما كانت الإنسـانية في مهدها كانت في حاجة إلى وحى يلائم طبيعتها وعلـى مستواها الفكري والنفسي، فجاء الوحي قائما على الترغيـب والترهيب، والوعد والوعيد، وكان مقياس التدين، وبرهـان الإيمان هو طاعة القانون المطلقة مثل قوانين الطعام لتربيـة الإنسان على السيطرة على نفسه عن طريق السيطرة علـى البدن ومحاولة الإنسان الاستقلال عـن الطبيعـة، وتجـاوز غرائزه الأولى ودوافعه واحتياجاته، وقوانين السـبت التـي يراعى فيها الإنسان التشبه بالله وتخصيص جزء من حياتـه له، والكف عن العمل والبيع والشراء وإشعال النار وتحريك الأشياء إعلانا بأن الإنسان له صلة بالله يوما فـي الأسـبوع وإن كان في الأيام الستة الأخرى منغمسا في العالم، وقانون الطهارة إعلانا حسيا على أن الإنسان قد عقد مع الله عهـدا وميثاقا مكتوبا بالدم على أن يكون مطيعا له خاضعا لقوانينه ومؤمنا به ولو أن البعض حاول تفسير الميثـاق علـى أنـه اختيار لشعب معين ووعد له بالأرض والغنم والنصر إلـى أبد الآبدين. كانت مهمة الوحي في هذه المرحلة شـد انتبـاه

الإنسان إلى وجود الله وقدرته المطلقـة المسـيطرة علـى قوانين الطبيعة وعلى مسار التاريخ حتى يتحرر الإنسان من سيطرة قوى الطبيعة عليه ومن سيطرة القوة السياسة علـى مقدراته وأن يكون الإنسان هو المسيطر على الطبيعة وهـو الأساس في كيان الدولة. لذلك أجرى الله المعجزات ، وتدخل في سير قوانين الطبيعة حتى يثبت بالدليل الحسـي المباشـر وجوده وقدرته. وهذه هي مرحلة الوحي اليهودي.

وقد نجحت التجربة مع البعض"وإذ قال رجل مـن آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقـد جاءكم بالبينات من ربكم.."، ولكنها لم تنجح عند الأغلبيـة. فقد غضب موسى على بني إسرائيل ودعا علـيهم بالتيـه، وظلوا في عبادة العجـل، والجـري وراء الـذهب والمـال والحظ، وظل الشعور الإنساني على مستوى الطبيعة المادية، خاضعا لها دون أن يتحرر منها ويتجاوزها.

فإذا ما شب الإنسانية عن الطوق، وكبـر الطفـل، ووصل إلى مرحلة المراهقة المتأخرة، يقل الجانب الحسـي ويزداد الجانب العاطفي، ويصبح الإنسان حالما، آملا ناسجا من خياله عالما أفضل، ويصبح قادرا علـى إدراك الأمـور

بحدسه، وإحساسه بها بوجدانه، فيأتي الوحي مرة ثانية كـي يرتقي بالإنسان لا عن طريق الترغيب والترهيب، والوعـد والوعيد وفرض القوانين، بل عن طريق الحـب والتـراحم والعطف والتقوى والطاعة والتواضـع والإحسـان، يكـون الإنسان في هذه الفترة حالما ناظرا إلى عالم آخر ليس هـو هذا العالم، وملكوت هو ملكوت السماوات لـيس هـو هـذا الملكوت الذي نعيش فيه، ملكوت الأرض، عالم يختلط فيـه الخيال بالتمني، والحلم بالواقع، وما هو كائن بما ينبغـي أن يكون. ويكون التدين أساسا ليس عملا من أعمال الجـوارح بل عمل من أعمال القلب، ويغلـب العفـو علـى العقـاب، والعطاء على الأخذ، والروح على الجسد، والـداخل علـى الخارج، والسلام على الحرب.

وقد نجحت التجربة عند البعض"ولتجـدن أقـربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلـك بـأن مـنهم قسسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون". ولكنها ظلت محدودة لم تؤد إلا إلى إيمان الأبطال والقديسين والشهداء كـرد فعـل على مجتمع لا يؤمن إلا بالقوة والبطش والسيطرة. بالإضافة إلى أن خلاص الفرد لابد وأن يؤدي إلى خلاص الجماعـة

وإلى تأسيس الدولة وهو ما لم يتم بعد، فقد كان يكفي اكتشاف ملكوت السماوات وكما قال السيد المسيح "مملكتي ليست في هذا العالم".

فلما شبت الإنسانية وبلغت مرحلة النضج والرجولة جاءت المرحلة الثالثة من مراحل الوحي الكبرى، والمرحلة الأخيرة تجمع بين القانون والحب، والعفو والعقاب "وأن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين". ويجمع بين الحس والوجدان في العقل، ولا يتطرف في جانب التجربتين معا، ملكوت الأرض وملكوت المساء، فالإنسان موجود بين هذين العالمين.

تعنى "أشهد أن محمدا رسول الله" إذن أن الإسلام هو آخر مرحلة من مراحل تطور الوحي وأن ذلك يعنى بالتحديد الحقيقتين الآتيتين:

١- أن الإنسان ليس في حاجة إلى وحي جديد فقد اكتمل عقله، وأصبح قادرا على الإدراك والتمييز، فالعقل قادر على أن يصل إلى كل ما أعطاه الوحي من حقائق، وهو قادر على فهمها وتفسيرها وتطبيقها والاستفادة منها في الحياة العملية. وأن أية محاولة الآن لجعل العقل قاصرا عن

الإدراك، وادعاء الإلهام والمدد من السماء أو العين الباطنـة التي تدرك الحقائق الربانية مباشرة لهو ادعاء باطل يهـدف إلى فرض الوصايا على عقـول النـاس، اسـتغلالا لهـا، وتوجيها إياها إلى ما تريده قوى التسلط والطغيان. ومن ثم فلا مجال للخرافة أو السحر أو الكهانة أو العرافة أو الفـال، فكل ذلك مضاد لعمل العقل وتدبيره واستدلاله وبرهانه. ولا مجال للجهل وللأمية فذاك أيضا نفي للعقل وهـدم لـه، ولا مجال أيضا للظن أو التقليد أو التشكك والحيرة والتذبذب بين الأمور، فالعقل قادر على الوصول إلى اليقين وإلـى حسـم الأمور، وباستطاعته الإبداع والخلق واكتشاف الجديد.

إنه ليكفي الإنسان أن يتبع فطرته الصادقة، فالإسلام دين الفطرة ، وكل شيء زائد عليها ليس منها، وكل شـيء أقل منها يكون ناقصا والفطرة أكمل منها، وأن أي محاولـة لجعل فطرة الإنسان ناقصة، دنيئة، خسيسة، مخطئة، تهـدف في الحقيقة إلى فرض الوصايا على الإنسان من حاكم يأخذ برقاب الناس حتى يمنع شرورهم ويوجههن إلى الخيـر أو من مخلص للناس من خطاياهم ما دامت الخطايا في لحمهـم

ودمائهم. ومن ثم يفقد الإنسان استقلاله العقلي، ويتبع السلطة الدينية أو السياسية، وهذا ما لا يرضاه الإسلام.

٢-أن الإنسان قادر بإرادته على تحقيق كلمـة الله على الأرض، وعلى حمل الأمانة التـي رضـي الإنسـان بإرادته الحرة أن يحملها "أنا عرضنا الأمانة على السـماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منهـا وحملهـا الإنسان...". وليس في حاجة إلى معونة خارجية في صورة معجزة أو غيرها، فالله لم يعد يتدخل في سير قوانين الطبيعة كما كان الحال في مراحل الوحي السـابقة "ومـا منعنـا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون". وأن أيـة محاولـة لفرض الوصايا على أفعال الإنسان من حيث التوجيه والأمر له هي في حقيقة الأمر محاولة للقهر وللتسـلط. فـافتراض عجز الإنسان وعدم قدرته يعطي الحاكم الحق فـي فـرض الرقابة عليه، كما أنها حجة الاستعمار القـديم فـي فـرض حمايته على الشعوب لأنها غير قادرة علـى حكـم نفسـها بنفسها. أن الإيحاء للإنسان بأنه عاجز يجعلـه يلجـأ إلـى وسائل السحر والكهانة، والحجاب والاتصال بالأوليـاء كـي يحيل ضعفه قوة، كما أن الإيحاء للشعب بأنه غير قادر على

أخذ مصيره بيده يفرض عليه الوصـايا إلـى الأبـد مـن الاستعمار الخارجى أو من نظم القهر والسيطرة الداخلية.

أن الإنسان قادر على تحقيق كلمة الله على الأرض، وهو مسئول عن ذلك، وقد عهدت إليه الأمانة، وتقبلها هـو بمحض اختياره، فهي مسئوليته وحده. ولذلك تنجح تجربـة الوحي هذه المرة في تحقيق استقلال الإنسان عقـلا وإرادة، وفي إقامة دولة أي نظام اجتماعي يعيش فيه الناس. وقد نجح محمد رسول الله في ذلك ولم يكتف بأن يكون شـهيد الحـق كغيره من الأنبياء والرسل السابقين. فـنفس المهمـة التـي حاولها الأنبياء السابقون ونجحوا فيها لدى أفراد قلائـل دون غالبية الناس، حاولها محمد رسول الله ونجـح فيهـا لـدى الأغلبية، مما يدل على أن الوحي في آخر مرحلة له قد حقق بغيته ألا وهي إعلان استقلال الإنسان، يصبح خليفة الله على الأرض، أمينا على الرسالة، ومحققا للدعوة بعـد أن تحـرر وجدانه من كل مظاهر القهر من قـوى الطبيعـة أو الـنظم الاجتماعية المسيطرة.

تعنى إذن "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" أشهد أن الإنسان حر مستقل، له عقل وإرادة، وأنني هو ذلك الإنسان!

مقالات في اليسار الديني

(أ) محمد، الشخص أم المبدأ؟

في هذه المناسبة الكريمة، المولد النبوي الشريف، يحق لنا أن نقول كلمة الحق إذ "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال". وكلمة الحق في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر الذي يعيش فيه جيلنا هو أننا نعيش في شعورنا محمدا بن عبد الله، رسول الله وخاتم النبيين بطريقة مخالفة للشرع نبه عليها محمد بن عبد الوهاب وحذر منها. وقد ترسبت هذه الطريقة من تراكمات تاريخية طويلة من العلوم الإسلامية القديمة التي عظمت محمد كشخص وتناسته كمبدأ، وكرمته كرسول على حساب الرسالة. والدليل على ذلك:

١- أصبح محمد في علم أصول الدين الذي صاغت الأشاعرة عقائده محور العقيدة مع الله. فعقائدنا خمسون، اثنان وأربعون في الله، وثمانية في الرسول. كلها في صفاته: الأمانة، والفطنة، والتبليغ، والصدق، ومنع أضدادها مثل الخيانة والتهور والكتمان والكذب، وتركنا العقائد كمبادئ

وأصول عامة مثل التوحيد، والعدل، والحسن والقبح العقليين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أصل المعتزلـة. أخذنا الشخص وتركنا المبدأ. *

٢- وفي التصوف أصبح محمد عقيـدة مشخصـة كذلك "الحقيقة المحمدية" التي تجعل محمدا قديما، كائنا قبـل الخلق، مشاركا لله في الصفات، منه خرج الكون، وصـدرت أشعة الشمس، وسطع نور القمر. ومنه نزل المطر، وسـار السحاب، وهبت الرياح. وأصبحنا نقول في محمد ما يقولـه النصارى في المسيح. وبالرغم من رفض فقهائنا القدماء هذه العقيدة إلا أنها ظلت مسيطرة حتى الآن على عقائد الصوفية المعاصرة.

٣- وقد تنسب الشريعة الإسلامية أحيانا خطأ إلـى محمد فيقال الشريعة "المحمدية" وهى الشريعة الإسلامية التي بلغ بها الرسول "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليـك وإن لـم تفعل فما بلغت رسالته"، وانتهزها المستشرقون فرصة فسموا الإسلام كله المحمدية والمسلمين المحمديين أسـوة بالمسـيح والمسيحية والمسيحيين.

---

* كتب هذا المقال لجريدة "الأهالي" عام ١٩٧٨.

٤- وضعنا اسم محمد على حوائط المساجد مع الله، وأحيانا مع أسماء الخلفاء الراشدين مع أنه لا يجوز وضع أية لوحات على حوائط المساجد حتى ولو كانت أسماء الأنبيـاء والخلفاء. بل وكتبناها على عربات اليد لدى الباعة المتجولين وعلى المركبات العامة وفي المطاعم الشعبية، وكتبناه علـى قطع بلاستيك نعلقها في العربات. وإذا كنا أغنياء كتبناها مع "ما شاء الله"، والمصحف، والقرآن على رقائق مـن ذهـب نحلي بها الأعناق والصدور.

٥- كما أننا قد حولنا زياراتنا لمكة وهي المقصـد الأساسي للحج، كعبة إبراهيم، أبي الأنبياء، والمسلم الحنيفـي الأول، وجعلناها زيارة إلى قبـر الرسـول، وهـو غيـر المقصود من الحج. فالإسلام قد حرم بناء المساجد على قبور الأنبياء والأولياء "ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر"، وهو ما نبهت عليه الحركة الوهابية أيضا والتي نشأت في الحجـاز لهذا السبب، بما في ذلك قبر الرسول.

٦- أن المدائح النبوية التـي تكثـر فـي أجهـزة الإعلام: أعنا يا رسول الله، أغثنا يا رسول الله، يا حبيبي يا رسول الله، يا شفيعي يا رسول الله، سيدي يا رسـول الله..

الخ تجعلنا نقف على أبواب الوساطة والشفاعة التي حرمها الفقهاء ومنعها المعتزلة من قبل والتى قاومتها معظم الاتجاهات الإصلاحية الحديثة.

٧- أن احتفالاتنا بالمولد الشريف على طريقة الصوفية: السير في المواكب، رفع البيارق، إطلاق البخور، الضرب بالدفوف، التمايل بالأجسام، الأناشيد والسماع، إقامة السرادقات، مد الموائد... الخ قد ورثناها من عصور التخلف. فقد كانت الاحتفالات والمواكب وسيلة الحكام لإضفاء الهيبة على نفوسهم وهم يتصدرونها، رغبة منهم في السيطرة والتحكم في رقاب العباد. بل قد تبدأ الاحتفالات بالنصر قبل معارك النصر، والاحتفالات بالجلاء قبل إتمام الجلاء.

٨- أن ما يحدث في الموالد من مظاهر مصاحبة، مظاهر البغي والفسوق، ونقل الأمراض، وتكلفة الدولة ما لا طائل لها به من حيث توفير المواد الغذائية مثل السكر بالعملة الصعبة، والاتجار بالحلوى من أصحاب رءوس الأموال بهدف الربح والاستغلال ووقف الشحاذين على

أبواب المساجد وطرقهم أبواب المنازل تجعل الدين الشـعبي قد طغى على الدين الشرعي.

كل ذلك يرجعنا إلى القرآن الكريم لنعرف ما هـي الصورة الشرعية لمحمد فيه وهل يسمح القرآن بكـل هـذه المظاهر للتشخيص، تشخيص الرسالة في الرسول، وتـرك الرسالة كمبدأ؟

والحقيقة أن القرآن أشار إلى الرسول على أربعـة أنحاء:

١- آيات بها مخاطبة مباشرة بكاف المخاطـب أو ضمير المخاطب مثل"وإنك لعلى خلق عظيم" أو "ونرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها"... الـخ. وهـى لا تشير إلى محمد الشخص بل إلى المخاطب العام أي إلـى نموذج الوعي الإنساني الذي يدخل الوعي الشامل في حـوار معه. الوعي الإنساني يسأل والوعي الشامل يجيب. وقد يكون السؤال باللفظ أو بالحركة فكلاهما دلالة.

٢- آيات بها ذكر للرسول مثل" يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك..."،" يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون

في الكفر.." وهي كلها تعنى الرسول كحامل للرسالة ولـيس الرسول بشخصه.

٣- آيات يذكر فيها النبى مثل"يا أيها النبي حسـبك الله ومن اتبعك من المؤمنين"، "يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال.."،"يا أيها النبي جاهد الكفار والمنـافقين وأغلـظ عليهم.." وهي نداءات كلها توجهات عملية الغـرض منهـا توجيه الأمة وليس تكريم الرسول بشخصه.

٤- آيات يذكر فيها محمد وهى لا تتجاوز أربعـة آيات من بين آلاف الآيات التي تكون مجموع القرآن الكريم وهى:

(أ)"وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسـول أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين" (١٤٤:٣)، وتدل الآية على أن الشخص فان، والرسـالة باقيـة، وأن محمـدا ميت، والإسلام قائم، وبالتالي لا يمكن التضحية بالمبادئ من أجل الأشخاص. فالقرآن يهاجم عبادة الأشخاص، هذا الـداء الذي ينتشر في معظم الثورات خاصة في البلـدان الناميـة

والذي يهدد معظم الأيديولوجيات عندما يضـحي معتنقوهـا بالمبادئ من أجل الأشخاص.

(ب) "ما كان محمد أبا أحد مـن رجـالكم ولكـن رسول الله وخاتم النبيـين وكـان الله بكـل شـيء عليمـا" (٣٣:٤٠). وتعني الآية أن الشخص لا يـورث، ولا يمكـن لأحد أن يدعي انتسابه إليه بخلافة أو وصية. محمد رسـول الله، بلغ الرسالة وعلى الأجيال حملها ونشرها وتحقيقها على حد سواء. رسالته نهاية تطور الوحي واكتماله في الرسـالة العامة.

(جـ)"والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بمـا نزل على محمد، وهو الحق من ربهم كفر عـنهم سـيئاتهم، وأصلح أعمالهم" (٤٧:٢). وتشير الآية إلى أن محمدا لـيس هو الشخص بل المبدأ، هو الرسالة المنزلة ولـيس الرسـول المنزل إليه، هو الحق المتبع وليس الحقيقة المحمدية.

(د)"محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم" (٤٨:٢٩). وتعطي الآية درسا فـي الوحـدة الوطنية في الداخل في مواجهة الخارج. فهنـاك طريقـان: الأول محمد والذين معه أي المؤمنون، أهل الوطن الواحـد

الذين يتراحمون فيما بينهم، لا يطغى فريق على فريـق، ولا يدعي أحد الإيمان والوطنية ويكفر الباقي ويخونه. والثـاني جبهة وطنية واحدة في مواجهة الأعداء. أشداء على الكفـار دون التقرب إليهم، والسعي لهم، والجري وراءهم وأخـذهم أولياء من دون الله، يبتغون لديهم نصرا.

السؤال إذن: أيهما أحق أن يتبع: محمد الشخص أم المبدأ؟

(ب) مصر بين الأمان والطغيان:

إن حب مصر ليس وليد الظروف، وليس نابعا من شمسها الدافئة، وسمائها الزرقاء، وأرضها الخضراء، كمـا تعلمنا في المدارس. بل هو حب نابع من إيماننا بـالله ومـن قراءتنا لكتابه. فمصر مذكورة في القرآن الذي نتلـوه آنـاء الليل وأطراف النهار. فلا إيمان إلا بمصر، وكل مهاجر من أرض مصر فإنه يترك إيمانه وراءه. فكيف ننـزع القلـب والأحشاء؟ فما هي صورة مصر في القرآن؟

ذكرت مصر خمس مرات فـي القـرآن الكـريم بصرف النظر عن معنى "مصر" هل هي مصر الدولة التـي

نعيش فيها أم مصر القطر والمكان المنخفض؟ وقد يكون هذا التداخل بين الخاص والعام هو إحدى صفات مصر.

١- مصر بلد الاستقرار والسكن، ومكـان للعـيش والحياة، يأتيها الناس، ويتخذونها قبلة ومقرا. "وأوحينا إلـى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيـوتكم قبلة" (١٠:٨٧). يسكنها الأنبياء وذووهـم، وتعـيش فيهـا القبائل، وتعمرها الشعوب. صحراء تحتـاج إلـى تعميـر، وأرض تستدعي البناء عليها من أهلها. إن تركناها بلا تعمير استعمرها غيرنا، واستوطن فيها، وبنى فيها البيوت، وأقـام المستوطنات، وأنشأ فيها المزارع، وشيد فيهـا المعسـكرات لأن أهلها لم يستقروا فيها، ولم يبنوها، ولم يحولوهـا إلـى كتل بشرية تحمي حدودها، وتمنع غزوها، وتصد العـدوان عليها.

٢- مصر بلد الأمان، فلا حيـاة دون أمـان، ولا استقرار دون أمن. "فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويـه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين" (١٢:٩٩). كان يوسف في مصر آمنا، ودخل أبواه مصر آمنين. ولا يعني الأمن في مصر إنشاء أجهزة للأمن تقضي على أمن المواطنين بل أن

يشعر الإنسان أنه يعيش في بلد آمن، آمن على نفسه، آمـن على أهله، آمن على عمله ومستقبله، آمن على قوله وفعلـه، آمن على فكره ورأيه. والأمن ليس فقط هو الأمن الغذائى بل الأمن الفكري والأمن السياسي.

٣- مصر بلد الكرم والسخاء، يجد فيهـا الغريـب موطنا له ومستقرا، مواطنا لشعبها، ابنا لأسرها. "وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنـا أو نتخذه ولدا" (٢١:١٢). ليست مصر إذن بلد الدخلاء عليهـا الذين يأتون لسلب ثوراتها، ونهب أرضها، والاستيلاء علـى خيراتها، وتهريب أموالها، واستهلاك دخلهـا، والاسـتحواذ على مدخراتها. لا يعني الكرم بيع ماء النيل، ورهـن قنـاة السويس، وإهداء قطعة من الساحل الشمالي، فالعطيـة مـن نتاج مصر وعرق مصر وليس من أرض مصر أو ثـروات مصر.

٤- مصر بلد الزراع والنمـاء، ومصـدر الخيـر والرخاء. لما ضاق بنو إسرائيل بشظف العيش، وملوا الطعام الواحد سألوا موسى البقول والقثاء والفول والعدس والبصل. فقال موسى"أهبطوا مصر فإن لكـم مـا سـألتم" (٦١:٢).

فمازالت مصر بوفرتها ومحصولها مطمع من تضـيق بهـم الأرض، ومن تعز لديهم مصادر المياه. فمصر هي ريفهـا وقراها، وشعبها هو فلاحوها ومزارعوها.

٥– وأخيرا، مصر بلد الطغيان يتحكم فيها فرعون. يمتلك كل شيء فيها، أرضها وأنهارهـا، نيلهـا وشـعبها، ويحتقر مواطنوها "ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون" (٥١:٤٣). وكأن مأساة مصر ليست في مسـتقرها وأمنهـا وكرمها وخيرها بل في نظامها السياسي الذي يقوم على حكم الفرد وإذلال الشعب، واحتقار المواطنين.

(جـ) الشورى في الإسلام:

لقد كثر الحديث من قبل عن الشورى في الإسـلام كلما أراد المسلمون الفخر بتراثهم المجيد وبالـدين الحنيـف وبالشريعة الغراء، أو كلما ضاق بهم العصر ذرعا ووجـدوا في الشورى متنفسا لمآسيهم وضيقهم. ولقد ذكر القرآن لفـظ "شور" ثلاث مرات. الأولى ليجعل التشاور أسـاس الحيـاة العائلية "فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما" (٢٣٣:٢) أي أساس الجماعة الصغيرة. وفي المرتين الثانية والثالثة يذكر اللفظ مشيرا إلـى الحيـاة الاجتماعيـة الكبيرة أي في الحياة السياسية في "وأمرهم شـورى بيـنهم" (٣٨:٤٢) كتقرير واقع فعلي للمسلمين. فالشورى من طبائع الأمور، وفي "شاورهم في الأمر" وهو أمـر إلهـي إذا مـا سارت الأمور ضد الطبيعة. *

---

* كتب هذا المقال لجريدة "الأهالي" عام ١٩٧٨. وقد أقمته على الحجج النقليـة دون العقلية أو الاجتماعية وكأنني فقيه قديم. وكان أبرز هذه النصوص والشـواهد ذاتهـا جزءا من النضال ضد التسلط والطغيان. وقد اتبعت أيضا المدرسـة السـلفية هـذه الطريقة، توجيه النص نحو الواقع مباشرة قديما عند أحمد بن حنبل وابن تيمية وابن القيم وحديثا عند محمد بن عبد الوهاب ورشيد رضا.

وقد بين الحديث النبوي فضائل الشورى. فقال عليه الصلاة والسلام: "إذا استشار أحدكم أخـاه فليشـر عليـه". فالشورى واجبة عند السؤال، والتخلـي عنهـا أو الصـمت والكتمان لا يجوز كالشهادة سواء بسواء، وقال عليه الصلاة والسلام:" المستشار مؤتمن إن شاء أشار، وإن شاء لم يشر". فالشورى أمانة في عنق المستشار، عليه أن يشير إن عـرف وألا يشير إن لم يعرف. كما قال عليـه الصـلاة والسـلام: "المستشار مؤتمن. فإذا استشير فليشر بما هو صانع لنفسـه". فالشورى ليست للآخر دون الذات، وليست للغير دون الفـرد بل هي أولا تطبيق على النفس قبل الآخرين. وقال أيضا: "ما تشاور قوم قط بينهم إلا هداهم الله لأفضل مـا يحضـرهم"، وفي لفظ: "إلا عزم الله لهم بالرشد أو الذي ينفع". فالشـورى تحضر ما هو أفضل عند الناس، وما هو أعقل وأنفع لهم لأن الشورى أخذ لاعتبار المجموع، وضمان لعدم سيادة الهـوى والانفعال أو تغلب المصلحة الشخصية. ولذلك قال الرسول: "إن أمتي لن تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم اختلافا فعلـيكم بالسواد الأعظم". فالاختلاف في الرأي طبيعـي، واخـتلاف الأئمة رحمة بينهم، واجتماع الأغلبية على رأى يجعله أقرب

إلى الصواب. والرأي الصحيح هو الذي يجمع عليه أبو بكر وعمر لقول الرسول: "لو أنكما تتفقان على أمر واحد ما عصيكما في مشورة أبدا". فالجمع بين مثالية أبى بكر وواقعية عمر هو الرأي الصائب الذي لا يضحي بالواقع من أجل المثال أو بالمثال من أجل الواقع.

ولم يكن الرسول مسيطرا ولا جبارا وكما وصفه القرآن: "لست عليهم بمسيطر" (٢٢:٨٨)، "وما أنت عليهم بجبار" (٤٥:٥٠). كان الرسول يشير على الناس حتى لقد قال عنه أبو هريرة "ما رأيت أحدا أكثر مشورة من رسول الله". لقد شاور الرسول أصحابه في الحرب وفي السلم، في أمور الدنيا والمعاش. راجعه أصحابه، وتقبل رأيهم فيما لم يأته فيه وحى. فالحرب خدعة، والناس أعلم بشئون دنياهم. ولما سأل علي الرسول: ماذا نفعل بعدك إن وقع لنا أمر فقال:"أجمعوا العابدين من أمتي واجعلوه بينكم شورى، ولا تقضوا برأي واحد".

وتبعه الخلفاء الراشدون في سنته، ولم يحيدوا عنها. قال عمر: "الرأي الفرد كالخيط السحيل، والرأيان كالخيطين المبرمين، والثلاثة الآراء لا تكاد تقطع"، فمعارضة الرأي

بالرأي فضـل، وتعـارض الآراء أفضـل. وقـال عمـر أيضا:"الرجال ثلاثة: رجل ذو عقل ورأي فهو يعمل عليـه، ورجل إذا أحزنه أمر أتى ذا رأي فاستشاره، ورجـل حـائر بائر لا يأتي رشدا، ولا يطيع مرشدا". والعقل يجمـع عليـه الناس، فإن غاب الرأي وجبت المشورة. أما سـيادة الهـوى وغياب الشورى فتخبط وضياع. وقال أيضا:"صاحب الحاجة أبله لا يرشد إلى الصواب فلقنوا أخاكم وسددوا صـاحبكم"، وذلك لأن صاحب الحاجة يريد الحصـول عليهـا، ويكـون مأخوذا بها مما يدفعه إلى عدم تقدير الأمور. ومن ثم وجبت الشورى والنصح. وقال عمر:"من دعا إلى إمارة نفسـه أو غيره من غير مشورة من المسلمين فـلا يحـل لكـم أن لا تفعلوه". وقال أيضا: "لا خلافـة إلا عـن مشـورة". وقـال علي:"الاستشارة عين الهداية. وقد خاطر من استغنى برأيه". والمشورة لابد أن تكون عند من هو أهل لها كما قال طلحة: "لا تشاور بخيلا في صلة، ولا جبانا في حرب، ولا شابا في جارية". فالمشورة لابد أن تكون عند من تجرد عن المصلحة والهوى. فلا يستشار حاكم في حكم، أو تاجر في سلعة. وقيل أيضا: "لا تشر على مستبد ولا على وغد ولا على لحوح ولا

على معجب ولا على متلون" فالمستبد يشير بالاستبداد، والوغد يشير بالرذيلة، واللحوح يشير بما يسعى جاهدا إليه، والمعجب يشير بما يزهو به، والمتلون يشير حسب الحاجة والظرف. وقد قيل أيضا: "خف الله في موافقة المستشير فالتماس موافقته لؤم، وسوء الاستماع منه خيانة". فإعطاء المشورة لابد أن يكون بناء على خوف من الله وإلا كانت موافقة المستشير لؤم وخيانة. وقال أبو الحسن البصري: "اعلم أن من الحزم لكل ذي لب أن لا يبرم أمرا، ولا يمضي عزما إلا بمشورة ذي الرأي الناصح، ومطالعة ذي العقل الراجح". وقال عمر بن عبد العزيز: "إن المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة لا يضل معهما رأي، ولا يفقد معهما حزم". وقال لقمان الحكيم لابنه: "شاور من جرب الأمور فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء وأنت تأخذه مجانا".

والمشورة لا تعني طلب الرخص والسلطات الاستثنائية فقد قيل: "من طلب الرخص من الأخوان عند المشورة، ومن الأطباء عند المرض، ومن الفقهاء عند الشبه فقد خدع نفسه". المشورة تكون من أجل العزائم وليس من

أجل الرخص، ولتحقيق المبدأ العـام ولـيس للاسـتثناء أو العزل. هذا في حالة المشورة الفردية كما هـو الحـال فـي سؤال المفتي من أجل الاجتهاد في الأحكام. أمـا المشـورة الجماعية التي تتعلق بالصالح العام فإنها تتطلب أمورا ثلاثة: الأول: أنه لا يجوز الفصل بـرأي شخصـي فيمـا يتعلـق بالصالح العام. فمصلحة الجمهور تحتاج إلى رأي الجمهور. والثاني: أنه لا يجوز التعدى على حقوق الآخرين، فمصلحة الآخر مقدمة على مصلحة الفرد. والثالث: أنها مسئولية عامة كالولاية العامة وليست مجرد اجتهاد شخصي بناء على رأي أو هوى، هي جزء من المؤسسات العامة في الدولة.

وعند أبى الأعلى المودودي تتطلب آيات الشـورى في القرآن الكريم عند تطبيقها في الولاية العامة عدة أمور.

١- الحرية الكاملة في التعبير عـن الـرأي، وأن يتوجه المستشارون إلى ولي الأمر إذا ما بدر منه خطـأ أو تقصير. فإن رأوا الخطأ لا يصلح ويستقيم عزلـوا قـادتهم وأولي أمرهم واستبدلوا غيرهم لأن تصريف أمور الناس مع سد أفواههم وتكبيلهم وتركهم دون علم بها إنمـا هـو كفـر

صريح. وقد فصل الفقهاء قديما وظيفة الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكر بداية بالنصيحة حتى العزل ثم الخروج.

٢- مسئولية تصريف أمور المجتمع على كاهل من يتم اختياره برضا الناس لا ذلـك النـاتج عـن الإرهـاب والتخويف أو المشـترى بـالطمع والحـرص أو المتحقـق بالتزوير والخداع والدجل. فالإمامة كما يقول الفقهـاء عقـد وبيعة واختيار. ولا تجوز الإمامة بالشـوكة أي بالاسـتيلاء على السلطة بالقوة حتى ولو استتب الأمن.

٣- اختيار من يصلحون على ثقة الشعب للتشـاور مع القائد ويخرج عن هؤلاء من يفوزون بتمثيل الشعب عن طريق الضغط والإكراه والنفوذ وشراء الثقـة والأصـوات بالمال والرشاوى أو بالتزوير والخديعة والمكر والتحايل.

٤- أن يشيروا بما يمليه عليهم علمهـم وإيمـانهم وضميرهم، وأن ينالوا حرية الرأي كاملة تامة وإلا فسـوف يشيرون بما يخالف ضميرهم وإيمانهم وعلمهم خوفا أو طمعا أو تحيزا أو مراعاة لمصلحة جماعة ما فيصبح الأمر خيانـة وعذرا وتبريرا لسلطة الحكام وقراراتهم.

٥- التسليم بما يجمـع عليـه أهـل الشـورى أو غالبيتهم. أما أن يستمع ولي الأمر إلى آراء جميـع أهـل الشورى ثم يختار ما يراه هو نفسه بحرية تامة فإن الشورى في هذه الحالة تفقد معناها وقيمتها الشورى إذن ملزمة للحاكم وإلا كانت مجرد زخرفا من القول.

والخلافة في الإسلام ليست بملك ولا سلطة وإنمـا هي رعاية عامة للأمة لإقامتها على الشرع الحنيـف، وردع القوي عن الضعيف في الداخل، وصـيانة الإسـلام ودفـع المعتدي من الخارج. وهـى لا تنعقـد إلا بـإرادة الأمـة، والسلطان الذي يؤتاه صاحب الخلافة هو من الأمة لا سلطان له عليها إلا منها. ولما سأل عمر: أملك أنا أم خليفة؟ قال له سلمان: إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقـل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة. وقال له آخر: الخليفة لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا في حق. والمالك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا.

والخليفة لا يتولى إلا بمشورة المسلمين. وفي هـذا خطاب أبى بكر المشهور: "إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. أطيعـوني مـا

أطعت الله فيكم، وإن عصيت فلا طاعة لي علـيكم". وقـال عمر:"إني لم أزعجكم إلا أن تشتركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم فإني واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون بـالحق. خالفني من خالفني، ووافقني من وافقني، ولسـت أريـد أن تتبعوا الذي هواي".

والرقابة على الخليفة واجـب علـى المسـلمين ، وتذكيره بالشرع وتقويمه بعد النصيحة واجب على العلمـاء. وفي ذلك يقول أبو بكر:"إذا رأيتموني استقمت فاتبعوني، وأن رأيتموني زغت فقوموني". وكذلك قال عمر"مـن رأى فـي اعوجاجا فليقومه". فقال له أحد: "لو رأينـا فيـك اعوجاجـا لقومناه بسيوفنا". فقال: "الحمد لله الذي جعل في هذه الأمـة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه". ولقد تعرض عثمـان لأشـد أنواع النقد وأقذعها ولم يحاول أن يسكت أحدا بقوته وسطوته ونفوذه بل كان يرد دائما على ما يوجه إليه من اعتراضـات على مسمع من الناس ومرأى. وكذلك قابل علي تجريحـات الخوارج له في عهده بصدر رحب. وحدث أن قبض علـى متهم فأحضروه إليه وكانوا يكيلون له السباب علنا حتى أقسم أحدهم أمام الناس لأقتلن عليا. ومع ذلك أطلق سراحهم وقال

لرجاله أن يردوا عليهم بما شاءوا من القول لكنه لـم يتخـذ ضدهم إجراء عمليا؛ لأن المعارضة بالقول واللسان ليسـت جرما يستحق أن يقبض عليهم به.

لم يكن التاريخ إذن في مراحله الأولـى إلا تحققـا للمبادئ العامة للشورى. فالمثال ليس خارج التاريخ بل واقع فيه. وفرق بين هذه الشورى القديمة وبين مجلس الشـورى حديثا. اختلفت المسميات وأن اتفقت الأسماء! [1]

---

[1] اعتمدنا في ذلك على دراسة لأبي الأعلى المودودي أظنها "الشورى في الإسـلام" ووجدت في المسودتان الأولى الإشارة إلى صـفحات ٣٥-٣٦، ص ٩٣، ٩٤، ص ٢١٨-٢١٩.

(د) الجهاد

تحليل لفظي من القرآن

ورد لفظ الجهاد في القرآن حوالي أربعين مرة، بمشتقاته وصيغه المختلفة: "جاهد، جاهداك، جاهدوا، تجاهدون، يجاهد، يجاهدوا، يجاهدون، جاهد، جاهدهم، جاهدوا جهد، جهدهم، جهادا، جهادة، مجاهدون، مجاهدين". وتدور كل هذه الصور حول معنى واحد هو بذل الوسع والمجهود وتحمل المشقة في ذلك، فالجهد مشقة، والجهد طاقة، الجهد وسع الطاقة، والجهد بلوغ غاية. *

وتحليل لفظ "الجهاد" في القرآن يبين لنا المعاني الآتية:

١- الجهاد فعل أوحد:

الجهاد فعل أوحد لا يمكن مقارنته بأي فعل آخر يساويه حتى ولو كان فعلا شرعيا، فالجهاد أول الأفعال

* كتب هذا المقال عام ١٩٦٧ عندما أتى لي مندوب "منبر الإسلام" طالبا مساهماتي الفكرية وعارضا مبلغا من المال يعادل في المقال الواحد مرتبي ثلاث مرات. ولما كتبت له مقالاتي الثلاث الأولى وعاد يرتعش كتبت له هذا المقال الرابع والأخير. فطلب صراحة الكتابة في موضوعات الصبر، والتوكل، والورع، والتقوى، والرضا، والخوف. ففهمت. أنظر "قضايا معاصرة" الجزء الأول، في فكرنا المعاصر ص ١٦٥-١٧٦، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٦.

الشرعية وجامعها كلها. ومهما قيل في أفعال التكليـف مـن حلال وحرام وواجب ومندوب ومكروه فإن الجهاد أم هـذه الأفعال أي هو الواجب وجوبا محضا، إن لم يكن هو التكليف نفسه، إذن لا يوضع الجهاد مع فعل آخر حتـى ولـو كـان مندوبا أو واجبا لأن الجهاد يند عن تصنيف التكليف والخيار بين أفعاله: "أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سـبيل الله" (التوبـة:١٩). وهو الدافع الإنساني الذي هو أقوى من كل دافع آخر، بل هو الدافع الذي يمحى أمامه كل دافع آخر ويذوب فيه: "قـل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحـب إليكم من الله ورسوله وجهـاد فـي سـبيله فتربصـوا..." (التوبة:٢٤). فلا يكفرن عن الجهاد إلا الجهـاد ولا مكـان للقانعين الراضين بين المجاهدين.

٢- الجهاد امتحان واختبار:

جهد بالرجل أي امتحنه واختبره، فالجهاد امتحـان واختبار، وهو الكفيل بإظهار المؤمن من المنافق، الصـادق من المرائي. فالله يمتحن العبد في إيمانه بدرجـة اسـتعداده

للتضحية الفعلية، ولا كسب ولا نصر إلا بعد هذا الاختبـار: "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا مـنكم ويعلم الصابرين" (آل عمران:١٤٢). الجهـاد إذن تمحـيص للإيمان واختبار لرسوخه ولن يترك الإنسان لقوله وما يتشدق به دون تمحيص واختبار:"أحسبتم أن تتركوا ولما يعلـم الله الذين جاهدوا منكم" (التوبة:١٦). فليس كل من ادعى الجهاد مجاهدا، وليس كل من دعي إلى الجهاد مجاهدا، فقد يكـون كلاهما أول الناكصين. إنما الواقف في الخطب، الثابت فـي البلاء هو المجاهد حقا: "ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم" (محمد:٣١).

٣- الجهاد حرية الإيمان:

الجهاد هو رأس الإيمان وحريته تنطلق منه تلقائيـا دون إذن أو سماح وإلا فهو النفاق والرياء. فالمؤمن مجاهـد بالطبع لأن إيمانه يأبى عليه القعود والتخاذل والتحجج وتلمس الأعذار:"لا يستأذنك الذين يؤمنون بـالله واليـوم الآخـر أن يجاهدوا" (التوبة:٤٤). فالإيمان تقدم والنفاق تراجع، والجهاد سبق والرياء تقاعد: "فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسـول الله وكرهوا أن يجاهدوا" (التوبة: ٨١). والمؤمن لا ينهـزم

ولا يستسلم بل يجاهد. فالجهاد والانهزامية ضدان، والمجاهد والقاعد طرفا نقيضان:"فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة" (النساء: ٩٥). والجهـاد حـق علـى المؤمنين عامتهم وخاصتهم، شراذمهم ووجهائهم. فـالمؤمن الذي لا يربطه بهذا العالم إلا لقمة خبزه وسترة جسـده هـو السباق للجهاد، أما وجيه القوم المتثاقل بالأحمال وبما كنـز وجمع وملك وتمالك فهو آخر المجاهدين: "وإذا نزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم" (التوبة:٨٦). لذلك، استنفر القرآن الناس للجهـاد: "انفـروا خفافا وثقالا وجاهدوا بـأموالكم وأنفسـكم فـي سـبيل الله" (التوبة:٤١) حتى يستطيع كـل مـؤمن أن يبـرز إيمانـه ويوضحه بالفعل. والاستنفار حالة حرب واستعداد له وتهيئة سبله. ولذلك أيضا يربط القرآن الإيمان بالجهاد، كلما ذكـر الإيمان ذكر الجهاد: "تؤمنون بالله ورسوله وتجاهـدون فـي سبيل الله" (الصف:١١). فالجهاد هو الذي ينبثق من الإيمـان الراسخ لا من إيمان مزعزع مشكوك فيه، فالمجاهد الواثـق من قضيته أثبت وأصلب في القتال:"إنما المؤمنـون الـذين آمنوا بالله ورسوله ثـم لـم يرتـابوا وجاهـدوا بـأموالهم"

(الحجرات: ١٥). والإيمان قد يحتم الهجرة وتـرك الأهـل والوطن لفتح ميادين أخرى له في مكان آخر، وهـذا جهـاد كذلك، فالمؤمن يجاهد في كل مكان، وقد جعلت لـه الأرض ميدانا: "إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسـهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئـك بعضـهم أوليـاء بعض" (الأنفال:٧٢). كذلك،"والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم" (الانفال: ٧٥).

٤- الجهاد بذل وفداء:

لا يوجد جهاد من عدم، إنما الجهـاد هـو جهـاد بشيء، بالمال وبالنفس، فالمجاهد هو الذي يعطي ولا يأخـذ، وهو الذي يهب ولا يسأل، وهو الذي يضحى بما معه، لا من يتطلع إلى غيره، فالجهاد بـذل لا مكسـب، وتضـحية لا احتراف، ومن يعمل يعمل لله دون جزاء من الناس. المجاهد هو الذي يهب ماله ونفسه لا الشحيح بورقه وبحياته:" الـذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله" (الأنفال:٢٠). ولا يطلبن من أحد فوق طاقته وكذلك لا يقبل من مؤمن أقل من طاقتـه. فالجهـاد حسـب الوسع والطاقة، فجهاد المفكر حسن النصيحة، وجهاد العامل

إتقان عمله، وجهاد المعلم صدق قوله، وجهاد القائـد حسـن استشهاده، وجهاد الحاكم عدل حكمه، فالجهاد نيـة وموقـف وعمل: "والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سـخر الله منهم" (التوبة: ٧٩).

٥- الجهاد تأكيد للشخصية:

الجهاد جهاد للنفس أولا، وهو تحقيـق للشخصـية الإنسانية وتأكيد لإرادتها وفعلها، وهو السبيل للحفاظ علـى هذه الحياة التي وهبها الله لها: "ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين" (العنكبوت: ٦). الجهاد إذن فيـه مصلحة العباد وتهيئة سبلهم وليس ضياع أو موت أو عـدم. ويتم الجهاد بحرية كاملة وعن علم، فلا يجبرن أحـد علـى التضحية وإلا ذهب متثاقلا يجر أقدامه أو قاتل مزعزعـا لا يدرى من أمره شيئا، يتم الجهاد إذن عـن رؤيـا واضـحة لقضايا الجهاد وهي القضايا المصيرية التي تجتازها الأمـة الإسلامية. الجهاد جهاد عن وعي، ومن جاهد غير واع كان مخاطرا بالهزيمة :"إن جاهداك على أن تشرك بي ما لـيس لك به علم فلا تطعهما" (لقمان: ١٥). وأجهد نفسه تعني أبرز موقفه وأوضح فكره. والجهاد لا يـدعو إلـى الخـوف أو

التخوف:"ويجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومـة لائـم" (المائدة: ٥٤)، بل إن الجهاد مدعاة للثبات وارتبـاط الجـأش والغلظة على الكافرين:"يأيها النبي جاهد الكفـار والمنـافقين وأغلظ عليهم" (التوبة:٧٣). فلا توان في الجهاد ولا انتظار، ولا تهاون ولا مصالحة، الجهاد هو الجهاد الكبيـر، الجهـاد العام الشامل الذي ينهض فيه المسلمون للدفاع عن أوطـانهم ومقدساتهم:"فلا تطع الكـافرين وجاهـدهم جهـادا كبيـرا" (الفرقان:٥٢).

٦- الجهاد حق الله:

كما أن الجهاد هو حق الإنسان، هو حق الله أيضا، لا ابتغاء ثناء أو مديح أو مكسب أو مغنم، بل لإعلاء كلمـة الله ولتأكيد شرعه:"وجاهدوا في الله حق جهاده" (الحج:٧٨). فكما أن الزكاة حق المال، والصلاة حق الشهادة، فالجهاد حق الله، ومن لا يجاهد فإنه يسقط حـق الله مـن حسـابه، وأي حق!:"إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغـاء مرضـاتي" (الممتحنة:٦٠). ويتم ذلك بأخذ الوسائل والسبل لـذلك، فـلا جهاد بدون خطة وعتاد مادام هناك المجاهدون فـي سـبيل الله:"اتقوا الله وابتغوا إليه الوسـيلة وجاهـدوا فـي سـبيله"

(المائدة:٣٥). فبمقدار ما يتهيأ العدو للقاء بمقدار ما نسـتعد للقائه بوسائله وسبله. بعد ذلـك يفـتح الله علـى المـؤمنين وينصرهم نصرا مؤزرا. فالجهاد هو سبيل الهداية، وطريـق الحق:"والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا" (العنكبـوت:٦٩)، وسبيل الجهاد هو الطريق إلى بيت المقدس أولـى القبلتـين وثالث الحرمين.

(هـ) الصبر

لقد بدأت قيم جديدة تغزو نفوسنا، ونربـي عليهـا شعوبنا. والحقيقة أنا في غنى عنها لأنها كامنة في النفـوس. تعمل فينا، وتؤثر في سلوكنا، ولا نستطيع لها دفعـا. ومـن أمثال ذلك"الصبر". فقد ورثناه عن الصوفية وغنيناه، وضربنا به الأمثلة، واستشهد به الآباء والأجداد، وعلقنا على حائطنـا "الصبر مفتاح الفرج".

صحيح أن القرآن الكريم يذكر فضيلة الصبر (١٠٣ مرة) ولكننا نسيء تأويله، ونجعله يسير على وتيرة واحـدة لإعطاء معنى واحدا هو الاستكانة والقبول والرضى وعـدم الثورة أو الغضب أو الرفض. الصبر في القرآن ليس قبـولا للضيم، وتحملا المهانة والأذى، وجرحا للكرامة الوطنية بل هو صبر وعزيمة، "فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل" (٣٥:٤٦). ولابد أن يسبقه جهاد، "ثم جاهـدوا وصـابروا" (١٦: ١١٠). ويتلوه الرباط،"اصبروا، وصابروا، ورابطـوا" (٣: ٢٠٠). فالصبر ليس ضعفا أو استكانة، "وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحـب الصـابرين" (٣: ١٤٦). والصـبر لا يكون إلا في الحرب والقتـال "والصـابرين فـي البأسـاء

والضراء وحين البأس" (١٧٧:٢). ويكـون نتيجـة للعمـل والجهاد،"ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصـابرين" (٣: ١٤٢)، والصبر هو أن تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيـرة، "إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين" (٨:٦٥)، "فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين" (٨١:٦٦). وليس صبر الكثير على القليل، والأغلبية على الأقلية.

وفي نفس الوقت، يبين القرآن أيضا أن أمام الحقائق الدامغة فالصبر لا فائدة منه، ولا يرجى منه شـيء،"سـواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنـا مـن محـيص" (١٤:٢١). وعذاب الجحيم لن يفيد الصبر منه شيئا، " اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم" (٥٢:١٦). كما أن الصبر يجوز مع الذين يرجى منهم شيء، "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه" (١٨:٢٨)، وليس علـى الأعداء الذين يتربصون بالمسـلمين. الصـبر إذن موقـف مؤقت، حركة سلبية، اختمار لوقت الفورة والغضب، وتغيـر الموازين، وانقلاب القوى.

كما يبين القرآن أن الصـبر لا يصـح فـي كـل الحالات، فالصبر على الباطل باطل،" وإن كاد ليضلنا عـن

آلهتنا لولا أن صبرنا عليها" (٤٢:٢٥). كذلك لا يمكن الصبر على جهل وعدم معرفة بالأمور، "وكيف تصبر على ما لـم تحط به خبرا" (٦٨:١٨). بل إن لفظ الصبر والضجر منـه هو فاتحة العلم، وبداية المعرفة، وطريـق الفهـم، "سـأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا" (٧٨:١٨). والأنبياء أنفسهم يضيقون بالصبر ذرعا، "إنك لـن تسـتطيع معـي صـبرا" (٦٧:١٨). والشعب الذي يتضرر من الصبر يحصل على ما يريد، "وإذ قلتم يا موسى لن نصـبر علـى طعـام واحـد" (٦١:٢). بعد ذلك أعطى الله بني إسـرائيل خيـر مصـر. وأخيرا يضيق القرآن ذرعـا بالصـبر لأن الصـبر شـيمة الكافرين في تحملهم عذاب النار، "فما أصبرهم على النـار" (١٧٥:٢).

(و) الحب

إننا ندعو إلى الحب بيننا، ونريد إقامة مجتمعنا على الحب. ونتصور الحب على أنه تخل عن الحقوق، وترك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنحب السارق والسمسار، ونعشق الحارس والجلاد، تصورنا الحب على طريقة الانفتاح، سداح مداح، بلا شروط وبلا مقابل. ويتضح ذلك في أغانينا بالاستمرار في الحب بالرغم من الهجران، فنقبل الضيم والهوان باسم الحب. ويغذي الصوفية ذلك في النفوس، فنستشهد بأقوالهم. صحيح أن القرآن تحدث عن الحب، وجعل الحب فعلا من أفعال الله ولكننا كعادتنا نأخذ من القرآن ما نريد ونترك ما لا نريد، ونؤمن ببعض الكتاب، ونكفر بالبعض الآخر.*

* كتب هذا المقال أيضا لجريدة "الأهالي" عام ١٩٧٨ في الوقت الذي كان يروج فيه حاكم مصر في ذلك الوقت لقيم الحب والإيمان وأخلاق القرية والطاعة لرب الأسرة وكبير العائلة. وكان الغرض منه إثبات العكس أي شرعية ألا يحب الإنسان بل وأن يكره مثل الله تماما. وكان تحت العنوان آية "إن الله لا يحب كل مختال فخور".وهذه صياغة ثانية من المسودة الأولى كتبت في خريف ١٩٨٧.

لقد ذكر القرآن أن الله يحب (ست عشر مرة). فالله يحـب التـوابين، والمتطهـرين، والمتقـين، والمحسـنين، والصابرين، والمتوكلين، والمقسطين، والذين يقـاتلون فـي سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص. ولكنه ذكر أيضـا أن الله لا يحب (ثلاثا وعشرين مرة) أي أن الله لا يحب أكثر ممـا يجب. فالله لا يحب الكفر والإثم،"والله لا يحب كل كفار أثيم" (٢٧٦:٢). ولا يحب الخيانة والإثم، "إن الله لا يحب من كان خوانًا أثيما" (١٠٧:٤). والخيانة إثم وكفر، "إن الله لا يحـب كل خوان كفور" (٣٨:٢٢). والله لا يحب الخـائنين، "إن الله لا يحب الخائنين" (٥٨:٨). والله لا يحب الفرحين بأنفسـهم، "إن الله لا يحب الفـرحين" (٧٦:٢٨). كمـا أنـه لا يحـب المختالين الفخورين بأنفسهم زينة ولباسا، أناقـة ومظهـرا، صورة وإعلاما، "والله لا يحب كل مختال فخور" (٤: ٣٦). والله لا يحب الجهر بالسوء، والهجوم على الآخرين، والنيـل من إيمانهم ومن وطنيتهم، "لا يحـب الله الجهـر بالسـوء" (١٤٨:٤). والله لا يحب الفسـاد، "والله لا يحـب الفسـاد" (٢٠٥:٢). كما أنه لا يحب الإسراف، وتجديـد القصـور، وتبذير الأموال، "إنه لا يحب المسـرفين" (١٤١:٦). والله لا

يحب الاعتداء،"إن الله لا يحب المعتدين" (٢:٢٩٠). فإذا كان الله لا يحب الكفر، والإثم، والخيانة، والعجب بالنفس، والعجز، والاستكبار، والجهر بالسوء، والفساد، والظلم، والاعتداء. فكيف يحب الإنسان هكذا بلا تمييز بين موضوعات الحب؟ الحب سهل وعدم الحب صعب، فالإيجاب أسهل على النفس من السلب. لا يوجد حب بلا عدم. كلاهما واجهتان لعملة واحدة.

كما يذكر القرآن أن الحب قد يكون وهما وخداعا، "عسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم" (٢:٢٢٦). كما أنه قد يكون لسراب خادع ووهم باطل، "لا أحب الآفلين" (٦:٧٦)، وقد لا ينتج عنه عمل صالح بل قد يؤدي إلى العصيان، "وعصيتم بعدما أراكم ما تحبون" (٣:١٥٢). لذلك يركز القرآن على أن الحب ليس على الإطلاق بل هو مشروط بالطاعة وبالعمل الصالح، "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله" (٣:٣١). فالحب علاقة متبادلة بين طرفين، وليس من طرف واحد، "ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم" (٣:١١٩). وهى علاقة بين الإنسان والإنسان أو بين الإنسان والله، "فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه" (٥:٤٥). كما أن

شرطه الإنفاق، "لن تنالوا البر حتى تنفقـوا ممـا تحبـون" (٣:١٥٢). "وآتى المال على حبه ذوي القربى والمسـاكين" (٢:١٧٧)،"ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا" (٨:٧٦).

والأكثر من ذلك فإن القرآن يدين الحـب الـذي لا يوضع في محله. فالحب يتحدد بموضوعه وليست بصورته. فلا يستطيع الإنسان أن يحب الضلالة والعمـى، "فاسـتحبوا العمى على الهدى" (٤١:١٧). ولا يستطيع أن يحب الكفـر، "لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفـر علـى الإيمان" (٩:٢٣). ولا يحب العاجلة تاركا الباقية، "إن هؤلاء يحبون العاجلة" (٧٦:٢٧)، ولا يحب الدنيا، "وذلـك بـأنهم استحبوا الدنيا على الآخرة" (١٦:١٠٧). ولا يحب الشهوات، "زين للناس حب الشهوات من النساء والبنـين" (٣:١٤). ولا يحب الفاحشة، "إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الـذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة" (٢٤:١٩). ولا يحب المال، "وتحبون المال حبا جمـا" (٨٩:٢٠). ولا يحـب أن يحمد بما لم يفعل، "ويحبـون أن يحمـد بمـا لـم يفعلـوا" (٣:١٨٨). ولا يحب أن يتخذ أندادا لله، "ومن الناس من يتخذ

من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله" (١٦٥:٢). ولا يحـب التكاسل والاتكال وملكية العقار، "ومساكن ترضونها أحـب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله" (٢٤:٩).

إنما الحب المطلوب هو للإخوان الذين هاجروا من ديارهم أي لجماعة المؤمنين الذين يجتمعون فيما بينهم علـى هدف، ويكونون حزبا، "ويحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا" (٩:٥٩). الحب للسجن عندما تدعو الحاجة دفاعا عن شرف الكلمة وكرامة الوطن، "قـال رب السجن أحب إلى مما يدعونني إليه" (٣٣:١٢).

(ز) الكراهية

يحاول فكرنا السياسي في هذه الأيام تعليل كل ما يحدث في واقعنا من قلق اجتماعي ورفض لسياستنا الاقتصادية بالكراهية والحقد والضغينة وغياب المحبة والآلفة! فإذا ما تخلصنا من الكراهية تخلص واقعنا من كل مآسيه، وتخطينا بأمان وسلام عنق الزجاجة عام ١٩٨٠ ثم انتقلنا إلى عالم الرفاهية عام ٢٠٠٠، منزل ومرسيدس لكل مواطن! وتؤثر فينا هذه الدعوة لما عرف عن شعبنا من كرم وحب وسلام. وعلى فرض صحة هذا التعليل يظل السؤال هو: كراهية من، وكراهية ماذا؟ صحيح أن القرآن يندد بالكراهية، كراهية المجرمين والكافرين والمشركين للحق، ولكنه أيضا يندد بكراهية الناس للجهاد بأموالهم وأنفسهم، "وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله" (٩:٨). كما ينبه القرآن على أننا قد ننخدع فنكره شيئا وهو خير لنا، "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم (٢:٢١٦) حتى لا نقع فريسة للوهم والخداع، ونعيد الحساب باستمرار.

وينبه القرآن أيضا على شيء نغفل عنـه، ونصـم آذاننا دونه وهو كراهية من؟ وكراهية ماذا؟ فبعض النـاس تجب كراهيته عن حق. والله نفسه يكره جهاد المنافقين، "كره الله انبعاثهم فثبطهم" (٤٦:٩). وكره خروجهم للقتـال لأنهـم يخرجون بلا حماس ولا اقتناع، يبغون الإضرار بالمؤمنين. كما أن الله في نفس الوقت الذي حبب إلينا الإيمان كره إلينـا الكفر والفسوق والعصيان، "وكره إلـيكم الكفـر والفسـوق والعصيان" (٧:٤٩). فكراهية الكفر واجبة، وكراهية الفسوق فرض، وكراهية العصيان أمر. ولكن الأهم من ذلـك هـو كراهية من يأكل لحم أخيه ميتا، "أيحب أحدكم أن يأكل لحـم أخيه ميتا فكرهتموه" (١٢:٤٩). بل إن التكوين الصوتي لفعل "فكرهتموه" يدل على شدة الكراهية. فكـل مـن السمسـار والمضارب يأكل لحم أخيه لأنه يتكسب بلا جهد. والمرتشي يأكل لحم أخيه لأنه يأخذ مالا بغير وجـه حـق. وقـابض العمولات يأكل لحم أخيه لأنه يختلس على وجـه شـرعي، ويأخذ أجرا مضاعفا، مرة من عمله ظاهرا ومـرة أخـرى يزيد عليه مئات المرات باطنـا دون تناسـب بـين الجهـد والكسب. أن من يتهرب من الضرائب، ومن يتاجر بـأقوات

الناس، ومن يكسب أضعاف أثمان السلع، ومن يختلس المال العام، كل منهم يأكل لحم أخيه فوجبت كراهيته بأمر الله. وكل من يدعو إلى لفظ الكراهية فإنه يريد للغير أن يأكلوا لحومنا فوجبت كراهيته وكراهيتهم.

وينبه القرآن أيضا على أننا نحب بعض ما نكره، وأن الكراهية عامل إيجابي. فقتال الأعداء مكروه للنفس ولكنه واجب، "كتب عليكم القتال وهو كره لكم" (٢:٢١٦). والأم تحمل وليدها وتضعه كرها، "ووصينا الإنسان لوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها" (٤٦:١٥)، ولكنه محبب إلى النفس. والمؤمن قد يكره أيضا عن حق، "وأن فريقا من المؤمنين لكارهون" (٨:٥).

الكراهية إذن ليست شرا على الإطلاق. بل قد تكون خيرا مثل كراهية الظلم والنفاق والطغيان، وكراهية القعود والتخلف عن القتال، وكراهية الاستغلال والاحتكار والاكتناز. وإذا كان الله يحب ويكره فلماذا يحب الإنسان على الإطلاق، وتحرم عليه الكراهية[1]؟

---

[1] كانت هناك محاولات أخرى لاستئناف هذه التحليلات للقيم السائدة التي تروجها أجهزة الإعلام بمعانيها السلبية من أجل إعادة بنائها ارتكازا على معانيها الإيجابية ثم

ح- الصلاة والنفاق

الصلاة فعل من أفعال الإنسان العادية التي يقوم بها في حياته اليومية. فهي إذن موضوع دراسة للسلوك الإنساني في شتى صوره. كذلك النفاق أحد مظـاهر هـذا السـلوك الإنساني. ونجد في الآيات القرآنية نفس الوصـف للصـلاة والنفاق، والإيمان والنفاق مثل: "يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا

توقفت بسبب عدم تحمس جريدة "الأهـالي" لاسـتئناف المشـروع. وكانـت أهـم الموضوعات كالآتي مصنفة طبقا للميادين الرئيسية:

١- السياسة: التقدم والتأخر، التخلف والمتخلفون، القعـود، والقاعـدون، الإصـلاح والإفساد، القتال، الفوز، العرب والعروبة، سيناء، الحرب والإسلام، الأعداء.

٢-الاقتصاد: الترف والمترفون، الغنى والأغنياء، الفقر والفقراء، التجارة، الـربح، الثمن، الأجر، الجوع، الإسراف، الكسب، المال، المتاع، الرزق.

٣-الأرض: التراب، الأرض، الطين، الزرع، العمل، الحديد.

٤- الاجتماع: الإنسان، الأمة، البشر، الدرجات والمراتب، الظلم والعدل، المسـكن، الجهل، السفه والغفلة، السر والعلن، الترشيد، الفقه، التفكر، القرآن، الواقع، السـؤال، الحزب والبرهان، القوة والضعف، اليأس والقنوط، الوهن، الدين، الإسلام، الحاكمية، الأقلية والأغلبية.

٥- الفكر: ثورة أم إصلاح؟ الإنسان والتاريخ، التعصب، ثورة الأنبياء.

والمنهج المتبع كان واحدا وهو "تحليل المضمون" اعتمادا على معاني هذه الألفاظ في القرآن الكريم وتصويبها نحو الواقع. أما في الموضوعات الفكرية فكان الاعتماد فيها على التنظير المباشر للواقع.

الصلاة وأنتم سكارى" (٤٣:٤). وكأن الصلاة لا صلة لها بالسلوك، هذه نقرة وتلك نقرة أخرى. ومثل:"وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى" (٤: ١٢٤)،" ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى" (٥٤:٩) وكأن فعل الصلاة ثقيل على النفس، يقوم به المصلي بلا حماس أو وازع، مجرد أداء واجب أو أمر بلا اقتناع. ومثل: "وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية" (٩٢:٨) مثل معظم صلوات الناس اليوم. * أما الإيمان والنفاق فالشواهد عليهما كثيرة يذكرهما القرآن في وصف سلوك الإنسان عندما يؤمن بالله فقط ساعة الشدة والضرر ولا يعرفه إلا في المصائب، فإذا كشف الله الضرر ترك إيمانه كأن لم يؤمن بالامس! "وإذا مس الإنسان الضرر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن

* كتب هذا المقال في فترة الشهادة الأولى بعد هزيمة ١٩٦٧، فترة " قضايا معاصرة"، بالموازاة مع "التفكير الديني وازدواجية الشخصية" (الجزء الأول، في فكرنا المعاصر ص ١١١–١٢٧). وهو أيضا محاولة لوصف الدين الشعبي في مقابل الدين الشرعي، وتحليل نفسي للصلاة كما يمارسها بعض الناس في الحياة اليومية والتي تجعل البعض الآخر رافضا ممارسة العبادات على أنها نوع من الطقوس والشعائر والأشكال الخارجية. والمقال لم يتم، وهذه صياغة ثانية من الفقرات الأولى تمت في خريف ١٩٨٧.

لم يدعنا إلى ضر مسه" (١٠: ١٢)، "ثم إذا كشـف الضـر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون" (١٦: ٥٤)، "وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون" (٣٠:٣٣)، "وإذا مس الإنسـان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كـان يدعو إليه من قبل، وجعل لله أندادا ليضل عن سـبيله" (٣٩: ٤٩). والشواهد على ذلك كثيرة وواضحة لكل قارئ للقرآن. والتجربة الإنسانية تؤكد هذه الشواهد النقلية. والقرآن يصف بعض التجارب الدينية فعلا وإيمانا. فما هي أواصر القربـى بين الصلاة والنفاق بناء على هذه التجارب؟

يقع التشابه بين التجربتين في انفصام القول والعمل. فالمنافق يقول غير ما يعتقد. القول عنده ليس تعبيـرا عـن مضمون شعوره بل إيهام لمستمعه بما يرضيه أي أنه يعبـر عن شعور الآخر ليحوز رضاه أو ثقته أو لينال مغنما منـه. هو لا يقول شيئا لأن القول يصدر أساسا عن قصد، وقصـد المنافق يكمن بينه وبين نفسه دون أن يعبر عنه. والمصـلي أيضا قوله منفصم عن عمله. والتمتمة التي يقوم بهـا يقـول شيئا من غير مضمون لإيهام مستمعه بالصوت. أما ما يحسه

ويشعر به فهو لا يعبر عنه أبدا. وقد يطغى عليـه فيشـرد ذهنه. وهو في هذا الشرود أصدق لأنه يعبر تعبيرا شـعوريا عما يحس به في باطنه وعما يوده ويرجوه قاضيا على القول الذي لا يعبر عن باطنه أبدا.

والمنافق له قصد مزدوج. له قصده الذي يعبر عن جوهره وماهيته وهو ما يخفيه، ولا يظهره إلا فـي حياتـه الخاصة وبين المنافقين. وقصد آخر يتبناه، يحاول أن يعيشه وهذا القصد الوهمي هو الذي يعبر عنه فـي قولـه عنـدما يتحدث. والمصلي أيضا له قصد مزدوج. فالقصد الخفي الذي يعبر عن جوهره هو الصلاة بحكم العادة، لرؤيـة الآخـرين ولكي يراه الآخرون. هو حب الثناء، والرغبة في الاطمئنان الاجتماعي وعدم الشذوذ عن المألوف. وهو خوف مما يظنه الناس على أنه مرذول، وقد يكون خوفا طبيعيا مما قد يلحق به إن تخاذل من آثار لا يرضاها على نفسه، آثار مباشرة أو غير مباشرة. أما القصد الآخر الذي يوهم به فهو ما يسـميه الإيمان. ففعله يصدر عن قصد وعن اعتقاد عادة وخوفا ثـم يوهم بهذا القصد المركب المتبنى.

وللمنافق شعور مزدوج يظهر في سلوكه العام قولا أو عملا أو شعورا. فهو يقول غير ما يعتقد، ويعتقد غير ما يقول. وإذا حللنا شعور المصلى لوجـدناه أيضـا شـعورا مزدوجا. فالمصلي يحيل علـى مسـتويين، مسـتوى عـام ومستوى خاص، فهو شعور عادي غير موجه على المستوى العام، يفعل دون أن يكون هناك أساس نظري لفعله إلا أساس العادة. ثم يقتطع من هذا الشعور جزءا آخر يوجهـه علـى أساس غامض يظنه أفضل وأسمى من باقي الشعور. ويصدر عنه فعل أيضا بحكم العادة. ويظنه فعلا إراديا مبنيـا علـى قصد حاضر يعيشه صاحبه في اللحظة. والذي يحدد ظهـور أحد المستويين أو الآخر هو رؤية الناس له ومـدى تحقيـق مصلحة له إذا ما كان موضوعا لهذه الرؤية ويعيش المنـافق في عالمين، عالم الظاهر وعالم الباطن، العالم المرئي والعالم اللامرئي، عالم الشهادة وعالم الغيب، عالم العلن وعالم السر. يكون وجودا في أحدهما ويظهر عكس ذلك للناس. وكـذلك يعيش المصلي في عالمين: الداخل والخارج، الروح والبدن، الدين والدنيا، الله والعالم. يوجد في أحدهما ويظهر للناس أنه يعيش في الآخر.

والسؤال الآن: إذا كانت الصلاة هي تدبر لما يقال كلمة كلمة أي اتفاق القول مع الشعور فكيف يمكن تحقيق هذه الوحدة في كل عمل وفي كل لحظة حتى يكون الإنسان مصليا صادقا، يقوم بالصلاة من حيث هي مضمون لا من حيث هي صورة، ويعيش في عالم واحد لا في عالمين، وعلى مستوى واحد لا على مستويين، يوجد بين قوله وعمله، بين داخله وخارجه، بين دينه ودنياه؟ كيف يعيش الإنسان صريحا، صادقا مع النفس وفي العالم حتى ولو اتهمه الآخرون الذين يجمعون بين الصلاة والنفاق؟

ط- أحكام السوق

عرض كثير من الفقهاء قديما لأحكام السوق. ووضعوا فيها ليس فقط ما يتعلق بالبيع والشراء والتسعير والغش بل أيضا أحكام الذهاب إلى السوق والسير فيه والذهاب إلى الحمام ونظافة الطرقات وأوضاع محلات اللهو وآداب الطريق. ومع ذلك فالموضوعان الغالبان هما التسعير والغش. وباقي الموضوعات مقتطفات هنا وهناك. *

---

* كتب هذا المقال لجريدة "الأهالي" عام ١٩٧٨ وكانت الغاية منه إعادة عرض الفقه القديم بناء على الأوضاع الاقتصادية للعصر. وهذه صياغة ثانية من المسودة القديمة

تبدأ أحكام السوق بتحـريم الاحتكـار. وقـد قـال الرسول: "الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون" وقال أيضا: "لا يحتكر إلا خاطئ". فالاحتكار منع للتداول، ومصادرة استثمار الآخرين، وتحويل الملكية إلى استئثار وتملك وليس مجـرد استثمار وتصرف. فإذا وقع احتكار فالتسعير واجب. ويحـد لأهل السوق حد لا يتجاوزونه مع قياس النـاس بالواجـب. وترك السوق بلا تسعير يجعله عرضة للاحتكـار وغـلاء الأسعار والربح الفاحش. والسلطان هو الذي يسعر وليس الله وإلا كان الله يسعر من أجل السلطان وكان السلطان يسـعر ويدعى أنه تسعير الله. وقال أبو حنيفة أنه لا ينبغي للسلطان أن يسعر على الناس إلا إذا تعلق به حق ضرر العامة. فـإذا رفع إلى القاضي أمر المحتكر ببيع ما فضل عن قوته وقوت أهله على اعتبار السعر في ذلك. فنهاه عن الاحتكـار. فـإن رفع التاجر فيه إليه ثانيا حبسه وغرره على مقتضـى رأيـه زجرا له أو دفعا للضرر عن الناس. فإن كل أرباب الطعـام يتعدون ويتجاوزون القيمة تعديا فاحشا وعجز القاضي عـن

كتبت في خريف ١٩٨٧ (أنظر أيضا: يحيى بن عمر: أحكام السوق، تحقيق حسـن حسنى عبد الوهاب، نشر فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع. وهناك نشرة أخرى للدكتور محمود علي مكي، مجلة المعهد المصري، مدريد ١٩٥٦).

صيانة حقوق المسلمين إلا بالتسعير حينئذ يكون بمشورة أهل الرأي والبصيرة، وإذا تعدى أحد بعد ما فعل ذلـك أجبـره القاضي. فإذا كانت حاجة الناس لا تقضى إلا بالتسعير العادل سعر عليهم تسعير عدل. ولابد من العلم بالسعر قبـل البيـع والشراء. فقد نهى النبي عند البيع والشراء الذي جنسه حلال حتى يعلم البائع بالسعر وهو ثمن المثل، ويعلـم المشـترى بالسلعة. ومن المنكرات تلقي السـلع قبـل أن تجـيء إلـى السوق لما فيه من تغرير البائع فإنه لا يعرف السعر فيشتري منه المشتري بدون القيمة. ولذلك أثبت النبي الخيار. كمـا لا يجوز البيع والشراء بثمن للمماكس وبثمن آخر لغير المماكس (الفصال في الأسعار) فليس لأهل السوق أن يبيعوا للمماكس بسعر والمسترسل الذي لا يماكس أو هو جاهل بالسعر بأكثر من ذلك السعر لقول الرسول:"غبن المسترسل ربا". كما نهى الرسول عن بيع حاضر لباد لقوله: "دعوا الناس يـرزق الله بعضهم من بعض" أي لا يكون له سمسارا لما في السمسـرة من ضرر المشترين فإن المقيم إذا توكل للقادم في بيع سلعة يحتاج الناس إليها، والقادم لا يعـرف السـعر ضـر ذلـك المشتري.

فإذا ما تبين أن في السلعة غشا فسخ البيـع لقـول الرسول: "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بيعهما". فالغش محرم في البيع والشراء لقول الرسول" من غشنا فليس منا"، وقوله أيضا "لا يسرق السارق حين يسرق وهو مـؤمن". وينهـى المحتسب عن المنكرات مثل تطفيف المكيال والميزان والغش في الصناعات والبياعات والديانات: "ويل للمطففين الذين إذا كالوا على الناس يستوفون أو كالوهم أو وزنوهم يخسـرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثـون ليـوم عظـيم" (٨٣ :١-٥). وأيضا "أوفوا الكيل، ولا تكونـوا مـن المخسـرين" (٢٦: ١٨١).،"وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسـطاس المسـتقيم" (١٧: ٣٥)،"ولا تنقصـوا المكيـال والميـزان" (١١:٨٤)، "فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم" (٧: ٨٥)، "وأوفوا الكيل والميزان بالقسط" (٦:١٥٢).

والغش على أنواع. يدخل في البيوع بكتمان العيوب وتدليس السلع مثل أن يكون ظاهر المبيع خيرا من باطنه كما قال الرسول "أفلا جعلته فوق الطعام حتـى يـراه النـاس". ويدخل في الصناعات مثل الذين يصنعون المطعومات مـن

الخبز والطبخ والعدس والشواء وغيـر ذلـك أو يصـنعون الملبوسات كالخياطين وغيرهم أو يصنعون غير ذلـك مـن الصناعات فيجب نهيم عن الغش والخيانة والكتمـان. ومـن هؤلاء الكيماوية الذين يغشون النقود والجواهر والعطر وغير ذلك فيصنعون ذهبا أو فضة أو عنبرا أو مسكا أو جواهر أو زعفرانا أو ماء ورد أو غير ذلك يضاهون بـه خلـق الله. وتدخل في المحرمات العقود المحرمة مثـل عقـود الربـا والميسر مثل بيع الفرء وكحبل الحبلة والملامسـة والمنابـذة وربا النسيئة وربا الفضل وسائر أنواع التدليس. وتدخل فـي ذلك المعاملات الربوية سواء كانت ثنائية إذا كان المقصـود بها جميعا أخذ دراهم بدراهم أكثر منها إلى أجل. فالثنائية ما يكون بين اثنين مثل أن يجمع إلى القرض بيعا أو إجـارة أو مساقاة أو مزارعة طبقا لقول الرسول "لا يحل سلف أو بيـع ولا شرطان في بيع ولا ربح ما لم يضمن، ولا بيع ما لـيس عندك" مثل أن يبيعه سلعة إلى أجل ثم يعيدها إليه، "من باع بيعتين في بيعة فله أوكسهما أو الربـا". والثلاثيـة مثـل أن يدخلا بينهما محلا للربا يشتري السلعة منه آكل الربـا ثـم يبيعها المعطي لربا إلى أجل ثم يعيدها إلى صاحبها يـنقص

دراهم يستفيدها المحال. هذه المعاملات منها ما هـو حـرام بإجماع المسلمين مثل التي يجري فيها شرط لذلك أو التـي يباع فيها البيع قبل القبض الشرعي أو بغير الشروط الشرعية أو يغلب فيها الدين على المعسر فإن المعسر يجب انتظـاره. ولا يجوز الزيادة بمعاملة ولا غيرها بإجماع المسلمين.

وهكذا ذكر الفقهاء القـدماء نمـاذج مـن الغـش والتدليس في الأطعمة القيمة مثل الخبط قبل الغربلة، وخلـط الدهون بالزيت، وبيع الفواكه قبل أن تطيب، وخلـط الخبـز بالحجارة، والقمح الطيب مع القمح الخبيث، وخلـط اللحـم السمين باللحم الهزيل، وخلاط اللحم مع الفؤادات والبطـون، وخلاط اللبن بالماء، والعسل الطيب بالعسل الرديء، كل ذلك أمثلة قديمة لها ما يقابلها في عصرنا الحديث من الغش فـي الأطعمة وتوريد الأطعمة الفاسدة التـي تجـاوزت تـاريخ صلاحيتها، أو استيراد الأطعمة التـي لفظتهـا المجتمعـات الأوروبية أو التي تصدرها للحيوانات لأنها غيـر صـالحة للاستهلاك الآدمي، واستيراد الأطعمة التـي بهـا مخـاطر الإشعاعات النووية أو الملوثة بالأمراض مـا دمنـا شـعوبا جائعة تأكل كل شيء لسد الرمق وعدم الموت جوعا.

وإذا كان القدماء أيضا قد تكلموا في السوق كظاهرة اجتماعية، طريق اللباس فيه، والسير في طرقاته بالكعب العالي مع رنة الخلخال، ورش طرقه وكنس الطين، وإهراق الماء أمام الدور فإن السوق حاليا مكان لتهريب الأموال، والسوق السوداء، وتجارة الرقيق الأبيض، وأطنان الأوساخ، والمجاري الطافحة، وشق الجيوب، وعقد الصفقات المريبة، والأطعمة المملوءة بالأوبئة من الباعة المتجولين، والصبية الضائعين، والشرطة المرتشية التي تفرض الأتاوات على فقراء البائعة لتتركهم يحتلون الأرصفة، ولحارس مواقف السيارات، ولباعة المسابح والبخور والأذكار والأوراد والمصاحف، ولمقاهي الأدباء، ولأركان الشذوذ الجنسي، وربما أيضا للمبدعين في المستقبل وللزعماء، وللحركات الوطنية والمقاومة الشعبية.

فهل يمكن صياغة أحكام السوق كما ورثناها من القدماء طبقا لظروف العصر الذي نعيش فيه؟ هل نكتفي بالصلوات وإقامة الشعائر في المساجد والزوايا داعين الله النجاة وراغبين في الآخرة وساعين إلى الجنة وسط الأسواق

أم ننظف الأسواق ونجعلها قابلة لأحكام الشرع؟ وهل الـ دين في شعائر الزوايا أم في شرائع الأسواق؟

معارك اليمين واليسار في الفكر الديني

(أ) عندما يزايد اليمين في الوطنية... والدين!!

ردا على ما نشر بصفحة (الرأي للشعب) بجريـدة الأخبار بتاريخ ١٩٧٦/٤/٢٥ بعنوان: (عندما يرفع تنظـيم اليسار المصحف والإنجيل) بقلم الأستاذ أحمد موسى سـالم نقول: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينـوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين).

وكيف لم يذكر اليسار كلمة الله وقد بـدأ مشـروع برنامج التجمع الوطني التقدمي الوحدوي كله بالآية الكريمة "بسم الله الرحمن الرحيم"؟ وهل كل من ذكر كلمة الله قد نال الإيمان أو أخذ بها صكا للجنة؟

ألا يعلم الأخ الكريم أن النطق بالشهادتين وإن جعل صاحبها مسلما فإنه لا يكفى أن يجعله مؤمنا أو محسنا لأن ذلك لابد له من التصديق بالقلب والعمل بأوامر الله؟ "يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون"؟

وكثير ممن يذكرون اسم الله اليوم يتـاجرون بـه ويأخذونه شعارا للمزايدة وستارا للإبقاء علـى الأوضـاع

القائمة أو لتبرير السلطة أو لخدمة الأمير أو طلبا لشهرة أو بحثا عن منصب. ولقد "كبرت كلمة تخرج من أفـواههم إن يقولون إلا كذبا". ألا يعلم الأخ الكريم أن الحديث عـن الله في علم أصول الدين كله على وجه التقريب؟ وهـل تـذكر الشريعة الإسلامية كلمة الله أم تكتفي بلفظ "الشارع"؟

وقد حرم فقهاء المسلمين ومتكلموهم وعلى رأسـهم وأبو حنيفة والشافعي وابن حنبل الحديث في الله، كما حرم ابن حزم وصفه بذات أو بصفة، ولا يفعل إلا مدع مزايدا لا يرعى للفظ حرمة ولا للاسم قدسية.

وهل كان اليسار أبدا موضع شـبهة وقـد كانـت الأديان كلها بلا استثناء دعوات يسارية من أجـل تغييـر الوضع القائم إلى وضع أفضل أقرب إلى التقوى الباطنية والعدالة الاجتماعية وأرعـى لـروح الأخـوة والمسـاواة والتراحم؟

وكيف أكرر ما علمناه دوما ومـا لا يحتـاج إلـى إثبات من اشتراكية الإسلام. فرسالات السماء كلها دعوات تقدمية، ولا يوجد نبي إلا وله هذه الدعوة للتغير والإصلاح الاجتماعي في بنى قومه.

واليسار تجمع لكل القوى الوطنية والتقدمية بما فيها اليسار الماركسي، واليسار الـديني، واليسـار الليبرالـي، واليسار الوطني، واليسار التلقائي، ويسار المثقفين. واليسار الديني يكاد يكون هو القاسم المشترك بين جميع قوى اليسار بما فيها اليسار الماركسي، فالدين عند ماركس كما يمكـن استغلاله بواسطة الطبقات الغنية من أجل استغلال الطبقات الفقيرة فإنه يمكن أيضا مساعدة الطبقـات الفقيـرة علـى التحرر الاجتماعي كما عرض ذلك انجلز فـي"المسـيحية البدائية" وكما عرض لذلك في"حرب الفلاحين في ألمانيا في القرن السادس عشر" بقيادة الراهب البروتستانتي تومـاس مونزر الذي قاد الفلاحين ضد أمراء الإقطـاع باسـم الله. وهل كان عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعمر بن عبد العزيز، وأبو ذر الغفاري، وجمال الدين الأفغـاني، إلا من دعاة اليسار؟ ليس اليسـار إذن مناخـا ماركسـيا بـل الماركسية هي منـاخ يسـاري، فاليسـار أعـم وأشـمل، والماركسية إحدى قواه.

وإذا كانت الماركسية تحليلا علميا للواقع فإنها نهاية المطاف، وإذا كان الإسلام تحليلا علميا للواقع فهو أيضـا

نهاية المطاف، فالنظرة العلمية للواقع هي الأقدر على إصهار قوى اليسار فيها، والنظرة الأشمل والأكمل هي أكثر النظرات علمية، فالمحك ليس هو الشعار بل مقدار صدق الفكر في الواقع بالتحليل والتغيير. والباب مفتوح لكل المذاهب والأفكار.

وكيف لا تعني هذه الكلمات أي معنى: الرسالات، النظرة العقلانية، الاستنارة، الطاقة الخلاقة، الاجتهاد، الشورى، الديمقراطية، المنهج العلمي، حرية الاعتقاد، تحرير الضمير الإنساني، التكافل الاجتماعي؟ فأي معنى إذن تشير إليه الكلمات؟ أليس مثل هذه الكلمات، ما أصبح فيما بعد علم أصول الدين أو علم التوحيد. ألا يهتز لها وجدان الناس عند سماعها؟ ألا تعبر عن مطالب عصرنا واحتياجاته؟ وهل يعيب الفكر استعماله أكثر الكلمات شيوعا بين الناس؟ ومنذ متى كان الفكر ادعاء وتعالما وإتياننا بغريب الألفاظ؟ إذا أتى اليسار بالسهل قيل لا معنى له وشائع، وإذا أتى بالصعب قيل ادعاء وتعالم وجدل! كيف تموت هذه الكلمات أو لا تعطي التزاما محددا؟ أليست الشورى والديمقراطية ضد كل مظاهر التسلط والطغيان،

وهو ما عانينا منه كثيرا؟ أليس الانتصار للعقل ضد كل مظاهر الخرافة في فكرنا القومي وحياتنا العامة وسلوكنا اليومي؟ أليس المنهج العلمي في البحث والتفكير ضد أساليب الإيهام والخداع وطرق الشعوذة والسحر والكهانة التي مازالت تسيطر على قطاعات عديدة من جماهيرنا؟ أليست حرية الاعتقاد تحريرا للضمير الإنساني ضد كل مظاهر الإرهاب الفكري والقسر العقائدي والتعصب الطائفي الذي تتساقط من جرائه المئات كل يوم؟ أليست الوحدة الوطنية ضد مظاهر التفرقة ودعاة الفتن وفتاوى إهدار الدماء وحرق الدور وقتل الأبرياء؟ أليس استلهام الشريعة الإسلامية كمصدر أساسي للتشريع ضد استعارة القوانين وقصورها عن الدفاع عن مصالح الناس، وضد الفهم الضيق للشريعة وقصرها على قانون العقوبات؟ أليس التكافل الاجتماعي بين أبناء الأمة الواحدة ضد الاستغلال والتفاوت الطبقي بين الأغنياء والفقراء وهو ما نادت به رسالات السماء ومازلنا نسعى إلى تحقيقه؟ كل ذلك ليس له معنى، وكلمات تموت "تنساب كالظل، وتومئ كالسراب" وكان الإنسان إن لم يناد بقطع يد السارق ورجم الزاني

وتحريم الخمور لا يكون لكلماته أي معنى، ولا يكون مسلما!.

وكيف لم يؤخذ هذا الفهم للدين وللتراث ركيزة لبرنامج اليسار؟ أليست الديمقراطية نابعة من الشورى؟ أليست التنمية هي السبيل للعدالة الاجتماعية؟ أليس القطاع العام منعا للاحتكار والاستغلال وتحقيقا للملكية العامة لوسائل الإنتاج كما دعا الرسول؟

أليس التعاون تحقيقا لأوامر الله؟ أليس التعليم تنفيذا لأوامر الدين؟ أليس تحرير الأرض جهادا مقدسا، وواجبا على كل مسلم ومسلمة؟ أليس توحيد الأمة العربية خطوة من أجل توحيد الأمة الإسلامية؟ أليست سياسة عدم الانحياز "لا شرقية ولا غربية"؟ أليست شعوب آسيا وأفريقيا التي جسدها مؤتمر باندونج هي الشعوب الإسلامية باصطلاحات السياسة الدولية؟ في أي شيء يتراجع اليسار إذن عن الالتزام العملي بالدين؟ ألا يفسر الدين من أجل صالح الأغلبية، وهي جماهيرنا الفقيرة؟ وما العيب أن يكون الإيمان طاقة لصالح السلوك السوي؟ أليست المصلحة

أساس الشرع؟ أليس رعاية الصلاح والأصلح أصلا من أصول الدين؟

وما العيب في أن تكون العقلانية هي السلطان أو الإمام؟ ألم يدع القرآن إلى العقل؟ ولماذا يكون معناها في القرآن الكريم "أن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" أو يكون معناها في تراثنا الاعتزالي، النظر والبحث والتفكير؟ وما العيب في أن نحتكم للعقل في أمور الدين؟ ألم يتفق علماء أصول الدين المسلمون على أن الحجج النقلية كلها حتى ولو تضافرت ظنية وأنها لا تكون يقينا إلا بالحجة العقلية؟ ألم يتفق علماء أصول الدين من المعتزلة على أن العقل هو أساس النقل؟ ألم يقل فقهاء المسلمين وعلى رأسهم ابن تيمية السلفي بموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، وأن القدح في العقل قدح في النقل؟

أن عقلانية ديكارت لا تحتاج إلى مدد من السماء وأن ديكارت لم يستعمل هذه الألفاظ إلا حرجا من رجال الدين المسيحي. أما في الإسلام فلا حرج من أن يكون العقل هو مقياس الحق والباطل. أما عقلانية سبينوزا فهي عقلانية المعتزلة والطبائعيين وعلى رأسهم معمر وثمامة

والنظام والجاحظ، العقل الذي يتفق مع قوانين الطبيعة. أما العقلانية الماركسية فهي أيضا عقلانية علماء أصول الـدين التي فيها يكون العقل مرتبطا بـالحس والتجربـة، وهـى عقلانية علماء المسلمين وأهل التجريب منهم. وكيـف لـم تعكس التجربة وجود الله؟ ألم يقل الفلاسفة بإمكانية الحدس والاتصال المباشر بالحقائق؟ ألم يتحدث العلماء عن مستقبل الإنسان وعن أن الرغبة في عالم أفضل هي أهم ما يميـز الإنسان بتجاوزه وتعاليه ومفارقتـه؟ أن العقلانيـة ليسـت مفهوما ماركسيا بل أن الماركسـية هـي أحـد المفـاهيم، فالعقلانية هي أساس الوحي، ودعامة تراثنا، وهى ما نرجو أن نرسي عليه حياتنا.

وما العيب في أن يكون تراثنا الديني جهدا بشـريا عبقريا صنعه أعلام تاريخنا في إطار التعاليم الكلية والعامة للدين الحنيف، أن التراث شيء والوحي شيء آخر. الوحي من عند الله أما التراث فهو من صـنع علمـاء المسـلمين واجتهاداتهم، فالمزايدة على نسبة الوحي إلى الله إهدار لقيمة الوحي الإسلامي الذي هو من عند الله وفي نفـس الوقـت تلبية لمطالب الناس. وما العيب في أن يكون التراث صورة

من صور"عبقرية أمتنا أسهمت بها في إضافة صفحات مشرقة إلى التراث الإنساني الموحد العظيم"؟ أليس تراثنا جزءا من تراث طويل التراث السامي القديم، أقدم صور التراث وأشملها؟ أليس الوحي الإسلامي آخر مراحل الوحي منذ آدم عليه السلام حتى محمد على الصلاة والسلام؟

وهل كان من يدافع عن الأمة العربية لغة وثقافة وتراثا وحضارة وتاريخا وعبقرية يكون بعثيا؟ ألم يفخر نبينا بأنه عربي وبأن لسانه عربي؟ ألم ينزل الوحي بلسان عربي مبين؟ وهل لو كانت مصر في علاقة طيبة مع البعث أكان يصبح كل شعور عربي تهمة بعثية؟ إن استعلاء السلطة على اليسار أمر مكشوف من السلطة ومن الجماهير معا، ولا ينقلب إلا على خدام السلطة وجلاديها. والذي يمن على اليسار بالحرية هو متملق للسلطة وفي نفس الوقت يستعدي السلطة عليه، وبالتالي فهو لا يؤمن بالحرية ويستكثرها على الناس ويشمئز من تمتع الناس بها.

"ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا".

(ب) **لسنا ملحدين... ولا منافقين:**

ردا على السؤال الذي وجهه إلى اليسار الأخ أحمد موسى سالم: "إن كنتم مؤمنين فأين هو البرهان؟ وإن كنـتم ملحدين فلماذا النفاق؟" الذي نشر بجريدة الأخبار في صفحة "الرأي للشعب" بتاريخ ١٩٧٦/٦/٧ أقول: لـم يكـن ردي قذيفة عشوائية موجهة إلى شخص بعينه بل كان لوضع حد لحملة تشويه اليسار، واتهامـه ظلمـا بالإلحـاد والماديـة والعمالة *.

ولا يتوتر اليسار أبدا بل إنه يقابـل هـذه الحملـة بالحسنى، ويدفع بالتي هي أحسن. ولم يبـدأ اليسـار أحـد بالعدوان، ويكتفي بالرد فـلا يتـوتر العقليـون، واليسـار أصحاب اتجاه عقلاني، لا ينفعلون.

ولا يلبس اليسار جبة الورع لأن التقوى لا تحتـاج إلى لباس، ولا يسبل عينيه بل يفتحهما على ما يدور تحت قدميه، ولا يضم المصحف إلى صدره بـل يحولـه إلـى برنامج يقدمه للناس، ولا يمني عمال مصر وفلاحيها بـل يزيدهم وعيا، ويطالب بحقوقهم، لما كانوا هـم الأغلبيـة،

---

* الأخبار ١٩٧٦/٧/٥ وقد صدرته بعنوان "جواب إلى اليمين".

أصحاب المصلحة الحقيقية. فاليسار لا يحتاج إلـى أقنعـة لأنه لا ينافق، ولا يدعى إيمانا أكثر مما لديـه، ولا يزايـد على إيمان الآخرين، "وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه".

والآية الكريمة "بسم الله الرحمن الـرحيم" فاتحـة الكتاب، مذكورة في أول مشروع برنامج اليسـار، ولكنهـا سقطت خطأ من الطبعة التي بين يدي الأخ الكريم. كما أنها تحتوى على خطأ آخر في آخرها بإضـافة توقيـع مقـرر التنظيم، فللأخ العذر فيما بين يديه.

وأين هي كتب اليسار ومقالاته التي تهاجم حقـائق الإسلام والدين، ومبدأ القومية العربية التي أسسـها الـدين والتي يدافع عنها الأخ اليوم بعد أن أنكرها بالأمس؟ إذا كان المقصود هو"الفن القصصي في القرآن الكريم" فإنه تطـوير لنظرية "التخييل" التي قال بها الجرجاني وعلمـاء البلاغـة قديما والتي تهدف إلى التركيز على البعد الأدبي والنفسـي للقصص القرآني، وأن الغاية منه ليست إعطاء أخبار مـن مضى بل أخذ العبرة والموعظة من أجل توجيه السـلوك، وهى نظرية معمول بها ليس فقط في تراثنا القديم بل فـي الفكر الديني العام وفي مناهج تفسير النصوص. وإذا كـان

القصد هو إعطاء الأسس الاقتصادية للقومية العربية فكلنا إذن ملحدون، شعوبا وقادة، عندما نبني المصلحة المشتركة التي هي دعامة الوحدة العربية بالإضافة إلى دعائم الدين واللغة والتاريخ والحضارة. فإذا ركز الخطباء على العوامل الوجدانية فما العيب في أن يركز العلماء على العوامل الاقتصادية ويستعملون لغة الأرقام؟ وفي النهاية، كل ذلك اجتهاد ورأي لا يحل لأحد تكفير قائله "ومن قال لأخيه أنت كافر، فقد باء بها".

ولا تخش على الدين شيئا، "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق"، فلن يستطيع أحد هدمه أو النيل منه.

وإذا كان الماركسيون في الغرب قد طبقوا مقاييس العقل والتجربة فألحدوا فلأنهم قد تصوروا الله مشخصا، ورأوا تسلط كنائسهم، وظنية عقائدهم، ومراسيم شعائرهم. والحمد لله لسنا كذلك لأننا نطبق نفس المقياس: العقل والتجربة ونؤمن. فالله منزه، ليس كمثله شيء، وكتابنا صحيح، وليس لدينا رجال دين، وإيماننا قائم على التصديق، وعبادتنا تنهى عن الفحشاء والمنكر.

ليس اليسار غارقا في تيه الايديولوجيات الغربيـة، بل يربط حاضره بماضيه، ويفسـر تراثنـا ودينـنـا طبقـا لحاجات عصرنا: التنمية من أجل القضاء علـى التخلـف، والاستقلال الوطني من أجل القضاء على الاحتلال، والعدالة الاجتماعية من أجل القضـاء علـى الاسـتغلال. نتأسـى بالرسول، ونهتدي بسيرة عمر بن الخطاب، وبفقه عبـد الله بن مسعود، وندعو دعوة أبى ذر، ونصلح كالأفغاني.

فنحن لسنا ملحدين ولا منافقين بل نحن مؤمنـون، وإليك يا أخي البرهان.. يكاد يجمع اليسار بكـل اتجاهاتـه على مبادئ خمسة، هي الحد الأدنى من الاتفاق فيما بيـنهم يرضاها الإسلام، وتعبر عن مصلحة المسلمين وهي:

١- عدم التسليم بالأمر الواقع، والدعوة إلى تغييره إلى واقع أفضل وما أظن أحدا منا يرضى بالأوضاع القائمة أو لا يرجو تغييرها إلى أوضاع أفضل. وقد أتـى جميـع الأنبياء لذلك فقد كان لكل نبي دعوة إصلاحية فـي قومـه، يدعوهم إلى التغيير.

٢- الحكم للأغلبية ولصالحها، فإذا كانت الأغلبيـة في مصر هم العمال والفلاحين، فالحكم لهم ويـتم تخطـيط

الاقتصاد القومي لصالحهم. وهل في هذا خروج على أوامر الدين أو ترك لشريعة الإسلام؟ ألم يقم الشرع على الحفـاظ على مصلحة المسلمين؟ ألم يرفض القرآن تركيز رأس المال كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم؟ ألم يدع الرسول: "اللهـم أحيني مسكينا، وأمتني مسـكينا، واحشـرني فـي زمـرة المساكين؟" وهل مجلس الشعب بنصفه من العمال والفلاحين مجلس ماركسي؟ وماذا نقول إذا كان من حق الأغلبية ثلاثـة أرباع المجلس بما أنهم يكونون ثلاثة أرباع الشعب؟

٣- الملكية العامة لوسائل الإنتـاج وذلـك منعـا للاستغلال والاحتكار. ألم يقل الرسول: "الناس شركاء فـي ثلاث: الماء والكلأ والنار"؟ أليس تـأميم المرافـق العامـة، ومصادرة المال المستغل من حق إمـام المسـلمين؟ وهـل قطاعنا العام خروج على مبادئ الإسلام؟ ألم يؤكد الإسـلام الملكية العامة وجعلها صفة لله"ولله ملك السـموات والأرض" دون الإنسان؟

٤- إذابة الفوارق بـين الطبقـات، وذلـك لقـول الرسول."أيما أهل عرصة(بقعة واسعة من الأرض) أصـبح فيهم امرؤ جائعا برئت منهم ذمة الله". ألم يقسـم الأنصـار

والمهاجرون أموالهم فيما بينهم؟ ألم يقل القرآن"وفي أمـوالهم حق معلوم للسائل والمحروم" ليس فقط الزكاة ولكن أكثر من الزكاة كما شرح الرسول نعم، في المال حق غير الزكاة؟ ألم يعد عمر برد فضول الأغنياء إلى الفقراء إذا مـا انقضـى الحول؟

٥- العمل وحده مصدر القيمة، وذلك رفض لكـل صور النبل الاجتماعي، والشرف الوراثي، وكـل مظـاهر الربا. فالمال لا يولد المال، ولكن العمل هو الذي يولد المال. ألم يقل الرسول: "أعطو العامل أجره قبل أن يجف عرقـه"؟ ألم ينه الرسول عن المؤاجرة، وأمر بالمزارعة أي أن يمتلك الرجل الأرض ويقعد في بيته ويترك العامل الأجير يعمل له ثم يقاسمه الإنتاج دون مشاركة منه في الجهد؟ وهل منا مـن يرضى بنظام الأجور في مصر الذي مازال يعطي المديرين أكثر مما يعطي العمال بفروق صارخة؟

أما فيما وراء ذلك من أطر نظرية فمتـروك لكـل إنسان بينه وبين ربه، فهلا شققنا على قلـوب النـاس؟ والله يتولى السرائر.

أيها الأخ الكريم، مضمون إيماننا مضمون اجتماعي كما هو الحال فـي الشـريعة الإسـلامية وفـي حركاتنـا الإصلاحية الحديثة وعلى رأسها الأفغاني. وهاهو برهاننـا. فإذا كنت ترى أننا بعد ذلك ملحدون أو منافقون فليسـامحك الله، "خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين".

(جـ) تشويه الماركسية من العقلية اليمينية فـي الصحافة المصرية: *

إن أسوأ موقف لمفكر هو تشويه الحقـائق وسـوء تأويل المذاهب عن قصد أو عن غير قصد ومثال ذلـك مـا تتناقله أجهزة الإعلام عن الماركسية بغية ابتعاد الشعب عـن الاشتراكية. وهو نقص في الأمانة الفكريـة، وخـوف مـن التغير الاجتماعي الذي يؤدي إلى ضياع المصالح الخاصـة وفقدان السلطة ومن أجل كشف هذه المواقف يمكن توضـيح الحقائق الآتية:

١- هل الماركسية في مصر هي حصان طـروادة أو هي كبش الفداء أو هي المشجب الذي يعلق اليمين عليهـا كل مآسي الناس، وهي الأخطبوط الذي يتم تحذير الناس منه، إبقاء على الأوضاع القائمة، ورفضا لوعي الناس وتفكيـرهم في أوضاعهم الاجتماعية باسم الدين وباسم الوطنية وتحذيرا من الإلحاد والعمالة؟

---

* كتب هذا المقال أيضا وقت هجوم الأخ أحمد موسى سالم على صفحات "الأخبـار" على الماركسية واتهام حزب "التجمع" بأنه ماركسي إبان الانتخابات لمجلس الشـعب عام ١٩٧٦، ولم يستأنف الحوار. فالمقصود هو التشـويش مـن الخصـوم ولـيس التصحيح. وهذه صياغة ثانية من المسودة الأولى، كتبت في خريف ١٩٨٧.

٢- الماركسية ليست موضة للشباب مثل المـذاهب الفلسفية أو الفنية: وجودية، بنائية، انطباعية، تكعيبية... الـخ بل هي نظرة علمية للواقع. المذاهب أيديولوجيا والماركسـية علم.

٣- الأمل الذي تعد به الفسلفات الماركسية تعد بـه كل الطوباويات بما في ذلك الأديان. فهذا تعبير عن وضـع الإنسان وانفتاحه على المستقبل، وليس خـداعا أو إيهامـا. ويمكن دراسة الأمل دراسة علمية كمـا هـو الحـال فـي ماركسيات القرن العشرين عند بلوخ في"مبدأ الأمـل" وعنـد جابريل مارسل في"محاولة في ميتافيزيقا الأمل".

٤- موسكو لا شـأن لهـا بالماركسـية، وهنـاك تطبيقات ماركسية عديدة لا شأن لها بموسكو مثل التطبيقـات الماركسية في الصين ويوغسلافيا وفيتنام وكوبا. بل نشـأت الخلافات في المعسكر الاشتراكي كما نشأت الخلافات مـن قبل في المعسكر الإسلامي، وتم رفـض فكـرة المحـاور، فنشأت ماركسيات تدافع عن الاستقلال الـوطني والتسـيير الذاتي، والاعتماد على النفس.

٥- الخراب والبؤس في البلاد الاشتراكية في الخمسينات من أثار الحرب العالمية الثانية ولا ضير أن تستمر بعض آثاره إلى الآن في ألمانيا الشرقية وفي بعض بلدان أوربا الشرقية وفي الاتحاد السوفيتي نفسه، وقد كان نفس البؤس في ألمانيا لولا رأس المال الأمريكي في إعادة البناء. هذا بالإضافة إلى أن حجة الواقع ليست حجة على الفكر وإلا كان كل الفقر في بلاد الإسلام حجة على أن الإسلام دين الفقر، وكان الاحتلال لبلاد الإسلام حجة على أن الإسلام دين الاحتلال، وكان التخلف في المجتمعات الإسلامية دليلا على أن الإسلام دين التخلف.

٦- مما لا شك فيه أن هناك تجاوزات في كل نظام سياسي مثل مظالم ستالين والتي لا تفترق عن"ووترجيت" و"إيران جيت" في النظام الأمريكي واغتيال كنيدي ومارتن لوثر كنج. لذلك خرجت ماركسيات القرن العشرين ترى أن الماركسية هدف والديمقراطية وسيلة. ولقد ضحى رئيس جمهورية شيلى "الليندي" بحياته دفاعا عن الديمقراطية باسم الماركسية. والأمر كذلك في فيتنام أثناء حرب التحرير وفي كوبا ويوغسلافيا وغيرها من البلدان الاشتراكية.

٧- إن "تحشيد" الجماهير لا يعبـر عـن حقـد أو ضغينة بل مجرد تعبئة للناس كسند لحقوقهم إذا ما عصـت قوى الظلم والطغيان، وعجـزت القيـادات الثوريـة عـن مواجهتها. فالنظام السياسي يتجسد في الجماهير التي تنعكس عليها كل التناقضات الاجتماعية والتي يمكن حلها بتفجير هذه التناقضات كما حدث بين المؤمنين والكفار وبين المسـلمين والروم، وبين المسلمين والفرس، "ولـولا دفـع الله النـاس بعضهم ببعض لفسدت السموات والأرض" (٢: ٢٥١).

ويمكن أيضا حلها في إطار"السلام الاجتماعي" عن طريق قوة الأغلبية في مواجهة الأقليـة المتراجعـة. فكـلا النموذجين موجودان تاريخيا، "إنا فتحنا لـك فتحـا مبينـا" (١:٤٨).

٨- مراحل التـاريخ الخمسـة هـي جـزء مـن الأيديولوجيا وليست من العلم، وهي أضعف ما في الماركسية ومرتبطة بمحاولات مشابهة في فلسفة التاريخ فـي القـرن التاسع عشر عند هيجل وكومت. وهي من أفكـار مـاركس الشاب أي ماركس الفيلسوف وليس ماركس العالم.

٩- إن القول بأن القضاء على الأديان من مخطـط ماركس إنما هو اقتباس نصف قول مشهور له "الدين أفيـون الشعب، وصرخة المضطهدين" واستعمالها مثل "ولا تقربـوا الصلاة". فالدين قد يكون عاملا للتسكين والتخدير وقد يكون أيضا دافعا للثورة والتحرير. فالدين يقوم بـالوظيفتين معـا. وهو ينطبق على تاريخ الدين في الغرب ووظيفة الدين كمـا قامت به السلطة الدينية الممثلة في الكنيسة ووظيفة الدين التي قام بها المصلحون مثل لوثر، والمفكـرون الأحـرار مثـل فولتير، والقادة الاجتماعيون مثل توماس مونزر في حـرب الفلاحين في ألمانيا في القرن السادس عشـر، وكمـا يفعـل الرهبان الكاثوليك في أمريكا اللاتينية الآن فيما يعرف باسـم "لاهوت التحرر". إن الكنائس والمساجد لا تهدم بـل تبقـى ويحافظ عليها وترمم كجزء من التراث الـوطني والتـاريخ الثقافي للشعوب. والصلاة لله في كل مكان "وأينما تولوا فـثم وجه الله" (٢: ١١٥)، "جعلت لي الأرض مسجدا طهـورا". أما هدم المساجد والكنائس، وإحراق الأناجيـل والمصـاحف واعتقال رجال الدين وإلغاء التربية الدينية لصـالح التربيـة القومية، وتدريس الإلحاد فإنها كلها أحكام تقوم على تصـور

خاطئ للدين وللماركسية على حد سواء الغرض منها تنفيـر الناس. فالدين ليس مساجد أو كنائس أو أناجيل ومصاحف أو رجال دين أو برامج دينية تعليمية. الدين هو الحياة والمجتمع والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. فبناء المـدارس والمصانع والمستشفيات من الدين، ونشر الكتـب والتـأليف الإبداعي من الدين. ولا يوجد رجال دين بل مواطنون لهـم مواقف اجتماعية في صالح الأغلبية وليسوا مبررين للإقطاع والسلطان. والتربية الدينية هي التربية القومية فالدين للوطن، وما يظن أنه الإلحاد هو في الغرب بديل عـن الأسـطورة، وعلم في مواجهة الخرافة. أن مثل هذه الشائعات القصد منها الترويج للعداء إلى النظم الاشتراكية اعتمـادا علـى الفهـم الشعائري من الناس للدين.

وبالإضافة إلى هذا التشويش والخلط تتهم الماركسية في أجهزة الإعلام وبأقلام اليمين حتـى يمكـن محاصـرة الاشتراكية والاستمرار في التحول في التوجه الوطني لمصر من اشتراكية الستينات إلى انفتاح السبعينات فيقال إن ماركس له أخطاء ست.

١- الاعتماد على بعض المراحل التاريخيـة دون البعض، وهذا بطبيعة الدراسة التي كانت متاحة في القـرن الماضي لتاريخ المجتمعات الصناعية في ألمانيـا وانجلتـرا وفرنسا. لم يدرس ماركس أسسها إلا لماما فيما عرف عنـه باسم "نمط الإنتاج الآسيوي" والذي تـم الـرد عليـه مـن الماركسيين أنفسهم قبل الرأسماليين. ولكن يمكن أخذ نمـاذج أخرى من تاريخ سائر المجتمعات شرقا وغربا. فقـد جـاء الإسلام كدين للمضطهدين. انتسب إليـه العبيـد والفقـراء والمساكين، وعاداه أشراف مكة وأغنياؤها. جـاء الإسـلام لتغيير قيم المجتمع والإنتاج. لم يأت كظاهرة فوقيـة بـدليل أسباب النزول والتطور مع الزمان بدليل الناسخ والمنسـوخ، ولم يأمر ويشرع بصرف النظر عن القدرة والأهلية. الإسلام بحث في الواقع، مثل أنماط الإنتـاج، وعلاقـات الإنتـاج، ووسائل الإنتاج. وقد سمى الأصوليون القدماء ذلك البحث في العلل، والعلل المادية المؤثرة والملائمة والمناسبة.

٢- التناقض بين الدعوة إلى التضحية والحرمـان من الحافز الديني والمبدأ الروحي وهذا التصـور الخـاطئ للماركسية إنما يقوم في الحقيقة على تصور خـاطئ للـدين

وللروح، والخلط بـين الروحانيـة الفارغـة أو الروحانيـة العرجاء وبين الروحانية الفعالة أو الروحانية المؤثرة. كمـا أنه يقوم على تصور خاطئ للماركسية واعتبارها مادية فـي حين أنها تعلي من شأن تضحية الفرد في سـبيل الجماعـة وتقدس العمل، وتدافع عن الأوطـان، وتحـرم الاسـتغلال والاحتكار، وهى كلها قيم إسلامية. فالماركسية ليست أكثـر مادية من مادية الرأسمالية، على الأقل الماديـة الماركسـية بحث في العلل المادية كما فعل الأصوليون القدماء. ولكنهـا روحية من حيث قيم التضحية والعدالة والمساواة. وهل كان جيفارا وهوشي منه وماو تسى تونج ماديين؟ أمـا الماديـة الرأسمالية فهي مقنعة ومغطاة تحت زيف من النفاق الـديني والمثالي وادعاء الروحية. وهل مقياس التدين هـو الإيمـان بالغيبيات مثل أمور المعاد وهي التـي تركهـا الأصـوليون القدماء ظنية نظرا لاعتمادها على السمع وحـده أم الإيمـان باليقينيات مثل الذات والصفات وحريـة الإرادة واسـتقلال العقل وهي الأمور اليقينية التي يمكن البرهنة على صـحتها ويقينها بالعقل؟ أليس العمل على تحرير الأرض جـزء مـن الإيمان بالله فالله هو "إله السموات والأرض"، "رب السموات

والأرض"، "وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله"؟ لماذا يكون ذلك صلحا انتهازيا بين الإسلام والماركسية ولا يكون موقف الخصم صلحا نفعيا بين الإسلام والرأسمالية؟

٣- التفسير المادي للتاريخ وبعامل واحد هو العامل الاقتصادي. وهذا إن كان صحيحا فإنه ينطبق على ماركسية القرن التاسع عشر. أما في ماركسيات القرن العشرين والتي تجد أيضا مصادرها في كتابات ماركس وفي تأويلات لينـين وماو هناك جدل بين البنيتين الفوقية والتحتية، وأثر متبـادل بينهما وأن العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية والحضارية لا تقل فاعلية وأهمية عن العوامل الاقتصادية. وهذه أيضـا مساهمات الماركسيات المتعددة في آسيا وأفريقيـا وأمريكـا اللاتينية.

٤- دكتاتورية البروليتاريا. وهـذه فكـرة شـائعة روجتها أجهزة إعلام الغربية أيضا. صـحيح أنـه حـدثت مناقشات حولها لدى أقطاب الماركسية في القـرن الماضـي ولكنها ظلت قضية خلافية. إنما الشائع أيضا والذي يستند إلى مساهمات ماركسيات القرن العشـرين هـو تحـالف قـوى الشعب، تجمع القوى الوطنية والتقدمية، وهو ليس حكرا على

الماركسية بل موجود في كل المجتمعات المضطهدة بما فـي ذلك الشيعة. فالمظلوم سيكون له المستقبل بتحرره من الظلم وانتصاره على الظالم. ليست البروليتاريا طبقة قاهرة. وكيف تكون قاهرة، ومتى تكون وهي أغلبية الشعب العامل؟ لم تعد طبقة البروليتاريا من العمال وحدهم كما كان الحال في القرن الماضي بل ضمت أيضا الفلاحين (ماو) والطلبة (ماركوزة) بل والجيوش (الثورات الوطنية في العالم الثالـث). فـالأطر النظرية للماركسية كثيرة ومتعددة بل وتصل الاختلافات بينها إلى حد التضارب والتناقض ومع ذلك تظل الماركسية كدليل للعمل الثوري. تتغيـر الأطـر النظريـة حسـب الثقافـات والعصور ومراحل التاريخ في حين يبقى العمـل الثـوري كبرنامج وطني موحد يقوم على الاستقلال الوطني.

٥- حتمية القوانين. والحقيقة أن هذا تصور القرن التاسع عشر للقانون العلمـي والقـانون التـاريخي. وفـي ماركسيات القرن العشرين هناك الماركسية البرجسونية عند جارودي، وإمكانية القفز علـى المراحـل، وعـدم رفـض تصورات الطفرة والكمون والمفاهيم الحيويـة. وأن تطعـيم الرأسمالية بالاشتراكية والاشتراكية ببعض مظـاهر النشـاط

الاقتصادي الحر لا يعنى إلغاء التناقض بين النظامين بل إقرار الحق ومحاولة إيجاد نظام متكامل ومتوازن. وأن محاولات الرأسمالية للانتعاش ليس تفتيتا للرأسمالية بل تركيز لها وتقوية لبنيتها كما هو حادث في الشركات المتعددة الجنسيات. وأن أزمات الرأسمالية ليست ذات طابع عرضي بل تدخل في صميم النظام الرأسمالي. وأن ارتفاع أجور العمال في المجتمع الرأسمالي وتحول العمال إلى طبقة متوسطة وخروجهم عن مفهوم الطبقة الكادحة لا يعنى عدم وجود تفاوت ضخم في الدخول بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال. وأن محاولات الحوار من النظم الاشتراكية مع النظم الرأسمالية لا تعنى أي تنازل عقائدي عن الاشتراكية بل رعاية لمصالح البشر وحرصا على السلام العالمي.

٦- هبوط الإنتاج بعد إجراءات التأميم. والحقيقة أن التأميم في حد ذاته ليس مسئولا عن هبوط الإنتاج بل المسئول عن ذلك سوء الإدارة، والبيروقراطية وعدم وعي العمال بدور القطاع العام وأسباب أخرى كثيرة معروفة لدى علماء الإدارة العامة. وهي كلها ظواهر عارضة لا تمس جوهر التأميم من حيث كونه وسيلة لسيطرة الشعب على

وسائل الإنتاج، وتدخل الدولـة لحمايـة الطبقـات الكادحـة ومحدودي الدخل وصغار الموظفين. أن الدولة القوية التـي تقوم على التخطيط وعلى التوجيه الاقتصادي لقـادرة علـى الصمود أمام مخاطر الأحلاف الأجنبية بالاعتماد على موارد الدولة والسيطرة عليها. أن التأميم أحـد مظـاهر السـيادة الوطنية حتى في أعتى البلاد الرأسمالية. وهو وسيلة للنضال الوطني كما حدث في تأميم قناة السويس في مصـر ١٩٥٦ وفي تأميم البترول بعد الثورات العربية. والتـأميم لا يعنـي سيطرة الدولة على الفكر والفن والثقافة وتوجيهها نحو الرأي الواحد فذلك نقل للمعنى الحقيقي للفظ التـأميم إلـى معنـى مجازي بلا قرائن ولا أدلة ولكن للتشهير وتشويه السـمعة. الإبداع الثقافي شرطه الحرية في حين أن الإنتاج الاقتصادي شرطه توجيه الدولة. وهل كان أدب جـوركي وتشـيكوف سجنا؟ ليس التأميم سدا لأبواب الرزق بل هـو عدالـة فـي الأجور وتحقيق لمسئولية الدولة فـي توظيـف الخـريجين وحماية للعمالة الوطنية. ولماذا لا يسقط عرش رأس المال أو يحد من رغبات الأفراد في الاستغلال، وتسيير الأمور ذاتيـا بفعل الجماعة؟ إن سـوء التطبيـق لنظريـة مـا لا يعنـي

بالضرورة خللا في النظرية ذاتها بل في كيفية تطبيقها. ولو صح ذلك لكانت حياة المسلمين وما يحدث فيها مـن مـآس حجة ضد الإسلام وليس له!

وختاما يمكن توضيح عدة حقائق:

١- أن من أخطر الأمور في شئون الثقافة هو غزو ثقافة مهيمنة لأخرى وبالتالي تفكير الثقافة المغزوة بقوالـب الثقافة الغازية. والمثل على ذلك تفكيـر اليمـين وتصـور للماركسية والتعبير عن ذلك في أجهزة الإعلام. فكـل مـا يتعلق بالدين، والكنيسة وتاريخ الصراع بين الـدين والعلـم، بين الدين والمجتمع إلى آخر ما هو معـروف مـن تـاريخ الغرب لا شأن للإسلام به. وإذا قيل إن الدين أفيون الشـعب في الغرب أو أنه خدعة أو أنه سيزول لا محالة (جويو) أو أنه وهم (فرويد) فإن ذلك يشير إلى حالة خاصة في تطـور الدين في الغرب وليس إلى كـل الحـالات. بـل أن كـل الاتجاهات المعارضة للدين في الغرب هي في الحقيقة مـع الدين بمفهوم الإسلام أي مع العقل، والعلم، وحرية الإنسان، وعدالة التوزيع، والمساواة في الأمور وتقدم التاريخ.

٢- إن مفاهيم مثل المادية والروحية أيضـا مثـل مفهوم الدين قد تأتى من الثقافة الغالبة وتسيطر على الأذهان في الثقافة المغلوبة. فالروح في الثقافة الغالبة ضـد المـادة، عرجاء، صورية، تستخدم كستار وغطـاء لإخفـاء المـادة وبالتالي تؤدى إلى النفاق. وسرعان ما يتم رفضـها إلـى المفهوم المضاد وهو المادة الحسـية المباشـرة الصـريحة المعادية للروح والرافضة لها. أما في الثقافة المغلوبة فقد لا توجد هذه الثنائية بين الروح والمادة بل توجد روح فعالة في المادة وفي التاريخ، ومادة نشطة خلاقة ومبدعة كمـا ظهـر عند الصوفية في التوحيد بين الحق والخلق، وعند المتكلمين أصحاب الطبائع في التوحيد بين المادة والروح في نظريات الكمون والطفرة واستحالة تعرى الجواهر عـن الأعـراض بدون جوهر، وعند الفلاسفة في نظرية قدم العـالم، وعنـد الفقهاء في البحث عن العلل المادية. فالمادية ليسـت ملحـدة لأنها أساس تراثنا القديم. وهي تصور موجود في كل تراث وليس فقط في التراث الغربي. ومن ثم تصبح كـل ثنائيـات الفكر الغربي وإشكالياته مثل: أيهما أسبق الروح أم المـادة؟ هل الروح خالق المادة أم المادة خالقة الروح؟ تخص الفكـر

الغربي وحده دون غيره. الثنائية تضع سؤال العلاقة في حين أن التوحيد يضع سؤال الفعل.

٣- ليست القضية هي تطوير الماركسية وتطعيمها بحيث تكون أكثر اتفاقا مع روح العصر، أو تسال جديد للماركسية بحيث يسهل تزويجها لدى الشعوب النامية بل الأمر هو إقامة نهضة جذرية بتفسير الدين في إحدى وظيفتيه تفسيرا جذريا لما كانت الثورة إحدى متطلبات العصر. وبالرغم من كون ذلك أيضا أحد جوانب ماركسيات القرن العشرين إلا أنه بالنسبة لنا غير دال. ليس المقصود هو التوفيق بين الإسلام والماركسية بل فهم الإسلام بما يتفق وحاجة العصر الأولى في التحرر والثورة. ليس المقصود هو إضفاء مسحة روحانية على الماركسية بل إبراز الجوانب الاجتماعية التي يتطلبها العصر في الإسلام الذي ورثناه والذي غلبت عليه الشعائر والعبادات دون المقاصد والمعاملات، وهل يصعب على الإنسان أن يكون مسلما ثائرا، مؤمنا متحررا، سلفيا مصلحا؟ أنها ليست انتقائية وإلا أعطينا الغرب أكثر مما يستحق، وأعطينا أنفسنا أقل مما نستحق. فالثورة والعدالة الاجتماعية ليست حكرا على

ماركس ولا الدفاع عن الأوضاع القائمة والتخاف سمة دائمة في المسلمين.

٤- والأغرب من ذلك كلـه هـو الإسـلام علـى الطريقة الرأسمالية، وتفسير الكون كله من خـلال التصـور الرأسمالي للعالم ! فاليابان نهضت بعـد هزيمتهـا بفضـل الرأسمالية ومآثرها، وكذلك ألمانيا وكأن رأس المال الغربـي وما أداه من تبعية مطلقة من الدولتين للمعسـكر الغربـي لا وجود له! والإسلام هو دفاع عن الأوضاع القائمـة ولـيس حركة تغيير، وكأن الإسلام يعود من جديـد علـى أكتـاف أشراف مكة وساداتها وليس تحريرا للعبيد ومساواة للفقراء! والنشاط والحركة من الصفوة أي الأقليـة النشـطة وكـأن الإسلام لم يأت لجماهير المسلمين، ولعامة النـاس، وكـأن الرسول لم يقل "اللهم أحينـي مسـكينا، وأمتنـي مسـكينا، واحشرني في زمرة المساكين!" والإسلام أتى ليؤكد الملكيـة الخاصة وحرية التجارة وكأن الاستخلاف ليس له ذكر، وحق الإمام في التأميم والمصادرة لا وجود له! أن الهجوم علـى الماركسية من اليمين في أجهزة الإعلام يكشف عن النوايـا:

التشويه المقصود للاشتراكية والإظهار غير المقصود للعقلية الرأسمالية. والجماهير واعية في كلتا الحالتين[١].

[١] انظر في هذا الجزء مقالنا "الدين والرأسمالية".

(د) تشـويه الحقـائق، واتهـام الـزور، فـأين المصلحة؟*

تحية للأخ الكريم أنه أزادنا علمـا بحديثـه عـن القنطور اليونانى"لا طلعت علي شمس يوم لم أزدد فيه علما". ولماذا القنطور اليونانى وأبو الهـول فـي مصـر رابضـا بجوارنا، يعطينا برأسه حكمة الإنسان وبجسده قوة الأسـد؟ يبدو أن الاغتراب الحضاري أصبح هو الموجه لكثيـر مـن دعاتنا، وأن معرفة الذات عن طريق الآخـر أصـبح هـو الطريق المتبع.

ومع ذلك يمكن توضيح عدة أمور، فـالعلم القليـل الواضح خير من العلم الغزير المبهم.

١- هل الخطـر فـي مصـر هـم الشـيوعيون المصريون كي يستحقوا كل هذه الحملة الشـعواء اليوميـة وعددهم لا يتجاوز أكثر من قاعة ولماذا الهجوم على شخص

---

* كتب هذا المقال عام ١٩٧٦ وقت السجال مع الأخ أحمد موسى سالم على صفحات جريدة "الأخبار" وهو يهاجم الشيوعيين الملحدين. ولم أشأ استئناف السجال لأنه تحول إلي دائرة مغلقة، خطان متوازيان غير متقاطعين، خطابات بلا حوار. وهذه صـياغة ثانية من المسودة الأولى كتبت في خريف ١٩٨٧.

بعينه؟ أن اليسار اتجاه سياسي موضوعي له وجوده كتيـار اجتماعي لا شأن له بزيد أو عمـر مـن النـاس. اليسـار المصري ليس ابتكارا من أحد بل هو وضع سياسي تحتمـه الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في مصر.

٢- وإذا كان الرأس مؤمنا، والحمد لله الذي سـجل اليسار نقطة، ويا ليت رؤوسنا جميعا مؤمنة، فـالرأس هـو المدبر للجسد، وهو المسير له، وهو المتحكم فيه. والجسد لا يكون مؤمنا أو ملحدا. الجسد موجود عند المؤمن والملحـد على السواء. وكل فعل من أفعال الجوارح هو مـن تـدبير العقل وتنفيذ الجسد. فالرأس هو المسئول.

٣- ولماذا يتخفى اليسار؟ وعلى أي شيء يتسـتر؟ ولماذا يكون لليسار نوايا بخلاف ما يعلن عنه وهو التنظـيم الشرعي في البلاد؟ ولو أتى محمولا على الأعنـاق يمثـل الأغلبية لما كان في ذلك خروج على الشرعية. إن مـا فـي قلب اليسار على لسانه. وأن اتهـام اليسـار بالازدواجيـة، والتخفي، والتستر، والسجادة الحمراء، وطاقية الإخفاء هـو في الحقيقة إسقاط من العقلية اليمينية التي تقوم على الحرص على الوضع القائم وادعاء المثالية، والعقلية الرأسمالية التـي

تقوم على دافع المصلحة كدافع وباعـث والتشـدق بالـدين كغطاء وستار. ولماذا التفتيش في الضـمائر؟ ألا يتـولى الله السرائر؟ وهل شققنا على قلوب الناس؟ ألم يقل الرسول "من قال لأخيه أنت كافر فقد باء بها" أو كما قـال؟ وهـل مـن الإسلام أن يعلن مسلم شهادته، ويثبت إسلامه، ويدفعه الناس إلى الإلحاد، ويتهمونه بالكفر؟

٤- وهذا هو بيت القصيد. أن الإسلام والماركسية متفقان في الأهداف، وهو تحقيق العدالة الاجتماعية، وإقامـة المجتمع اللاطبقي، وأن يكون العمل وحده مصـدر القيمـة، وأن يكون الحكم للأغلبية لصالحها، والملكية العامة لوسـائل الإنتاج. وقد تختلف الوسائل في تحقيق ذلك بالله أم بالدولـة، بالسلم أم بالعنف، بالقرآن أم بالسلطان. كما قد تختلف وسائل التحليل إما بتحليل النفس البشرية اعتمـادا علـى المبـادئ والأخلاق وإما بتحليل الواقع الاقتصادي اعتمادا على الكـم والإحصاء. وقد تختلف الدوافع والبواعث إمـا إيمانـا بـالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وإما إيمانا بالمبـادئ الإنسـانية العامة مثل العدالة الاجتماعية التي لا يختلف عليهـا اثنـان. وقد تختلف الأسس النظرية، وتتراوح بين مثالية وواقعيـة،

بين عقلية وحسية. والاختلاف وارد في كـل بنـاء ذهنـي إنساني سواء في العلم أو في الفلسفة أو في الدين. واختلاف الأطر النظرية بين الأشاعرة والمعتزلة بالنسبة لتصـور الله، وحرية الأفعال، والمسئولية عن الخيـر والشـر، والعقـل، والنبوة، والمعاد، والإيمان والعمل، والإمامة لم تمـنعهم أن يكونوا مؤمنين موحدين بالله ومثبتين لوجود الله وخلق العالم وخلود النفس. ليس هناك إذن توفيق بين رأس مؤمن وجسـد ملحد بل هناك اتفاق في الأهداف والغايات، واخـتلاف فـي الوسائل والمناهج والدوافع، والأطر النظرية، وهو ما يحدث في كل مذهب ونحلة وملة ودين. وإلا كفرنا فرقنا الكلاميـة جميعا. فإذا كانت الماركسية متفقة مع الإسلام في الغايات فقد كفى الله المؤمنين شر القتال. وإذا كانا مختلفين في الوسـائل والمناهج والدوافع والأطر النظرية فالواقع هو المحك. ومـن يثبت على أرض المعركة يكون له الغلبة. لا يحتاج الـرأس المسلم إلى جسد غريـب، فالإسـلام أيديولوجيـة تفـرض نظامها، وعقيـدة تمليـ شـريعتها، والنظـام الاجتمـاعي والإسلامي مستقى من التصور النظري الإسلامي. ودعوتنـا إلى إقامة المبادئ الخمسة: تغيير الوضع القائم إلى وضـع

أفضل، الملكية العامة لوسـائل الإنتـاج، إقامـة المجتمـع اللاطبقي، العمل وحده مصدر القيمة، الحكم للأغلبية والتنمية لصالحها إنما تلتقي عرضا مع الماركسية. فهناك أخوة فـي السلاح، وزمالة في النضـال. الـرأس إسـلامي والجسـد إسلامي. وقد شرع الإسلام للالتقاء مع أهل الكتـاب وأهـل الذمة وفيهم المجوس. فنحن لا نشارك الغير بل الغيـر هـو الذي يشاركنا. فأهلا بالغير إن شاركنا في الأهداف وحتى لو اختلف معنا في الوسائل. ولا ضير في الاختلاف في الأطـر النظرية فذاك موجود في فرقنا الإسـلامية وبـين فلاسـفتنا وصوفيتنا وفقهائنا ما دام هناك اتفاق في الأهـداف. ولـيس اليسار في حاجة إلى الأفكار المهيمنة فمطالب اليسار تعبـر في وضوح وبساطة عن الواقع المصري. اليسار لا يعبث بل يقيم ثقافة وطنية، ولا يتعثر لأنه يؤصل فكره ويعيد الاختيار بين البدائل في تراثنا القديم، ولا يتستر بل يعلنهـا صـراحة على الملأ. نحن نفهم الإسلام بما يتفق مع حاجات العصـر، ومن ثم فنحن فقهاء.

٥- لا حياء في العلم كما لا حياء في الدين. العلـم لا يكون ماركسيا أو رأسماليا. النظرة العلمية واحدة ولكـن

مناهج تحليل الواقع وأبنية العلم ونظرياته ومداخله مختلفـة. والاختلاف شيء طبيعي ما دام الهدف واحدا وهو السـيطرة على قوانين الطبيعة لتسخيرها لصالح الإنسان. العلم لا يكون مؤمنا أو ملحدا بل مقياس الصدق في العلم هو تطابقـه مـع الواقع. والنظم الاجتماعية لا تكون مؤمنة أو ملحدة بل هـي أيضا نظم تلائم أو لا تلائم الطبيعة البشـرية وتحقـق أو لا تحقق مصالح الناس. وهناك تفسيرات عدة للأسس النظرية، وتطبيقات عدة للأنظمة الاجتماعية ولا يوجد تفسير واحد هو المؤمن وباقي التفسيرات ملحدة أو تطبيق واحد هو المـؤمن وباقي التطبيقات هي الملحدة. تلك هي بقايا الحديث الضعيف للفرقة الناجية، إن كل فرق الأمة في النار والناجيـة منهـا واحدة.

٦- وإحقاقا للحق وليس دفاعا عن الماركسـية، أن صورة الماركسية في مصر هي الصورة التي روج لها الفكر الرأسمالي بيننا والتي هي أثر من آثار الاستعمار الثقافي في فكرنا المعاصر، صورة مذهبية معينة وهي ماديـة القـرن التاسع عشر. وقد تطورت الماركسية منذ ذلك الوقـت فـي فلسفتها وأطرها النظرية فيما يعرف باسم ماركسيات القـرن

العشرين التي تبقي على الأهداف وتختلف في الوسائل والأطر النظرية. هناك ماركسية مثالية عند ماركس الشاب، وماركسية ليبرالية عند سدني هوك، وماركسية إنسانية عند آدم شاف، وماركسية بنائية عند التوسر، وماركسية برجسونية عند جارودي، وماركسية عملية عند غرامشي، وماركسية فرويدية عند مازكوزة، وماركسية فينومينولوجية عند لوفيفر، وماركسية وجودية عند سارتر وميرلوبونتي، وماركسية هيجلية عند كوجيف. فلماذا نصر نحن على ماركسية دارون وسبنسر، وماركسية القرن التاسع عشر التي تخطئها ماركسيات القرن العشرين إلا إذا كان المقصود تشوية الماركسية عن عمد أو نكون ضحية الفكر الرأسمالي والاستعمار الثقافي أو جهلا بالماركسية، والجهل ليس أصلا من أصول الدين؟ حتى ولو كانت المادية أساسا نظريا وحيدا للماركسية كما كان الحال في القرن التاسع عشر فقد كان هذا الاختيار أيضا موجودا في تراثنا القديم عند أصحاب الطبائع، النظام، والجاحظ، ومعمر، وثمامة، وهشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي من المتكلمين وعند ابن رشد من الفلاسفة وعند أصحاب وحدة الوجود من الصوفية وعند دعاة المنطق

الحسي من الفقهاء. وكلهم موحدون مؤمنون بالله. وأن وجود بعض الجوانب الليبرالية في الـنظم الاشـتراكية، وبعـض الجوانب الاشتراكية في النظم الغربية ليس مرفوضـا مـن ماركسية القرن العشرين بل هو تأكيد لها، وتأسيس لماركسية طبقا لأهم معطيات القرن العشرين ألا وهو التحرر، تحـرر الإنسان في النظم الاشـتراكية وحـق الجماعـة وتحقيقهـا بالوسائل السلمية في النظم الليبرالية.

٧- إن اليسار لا يحتكر الثقافة بل يدعو الناس إلى حد أدنى من الاتفاق، يجعل الأرض لمن يفلحها، والمصـنع لمن يعمل فيه، والجامعة لمن يتعلم فيها، والمتجر لمن يشقى فيه، يدعو للحوار ولا يتهم بل هو باستمرار موضع الاتهـام ولا حيلة له إلا الدفاع عن نفسه. لم يفـرض اليسـار علـى مصر شيئا بل إنه اختيار أساسي يفرضه الواقع المصـري. أن هذه الحملة الشعواء ضد اليسار إنما تهدف إلى المستحيل وهو الوقوف أمام الاتجاه الشعبي العام نحو اليسار وتشويهه أمام الناس، والناس ليست في غفلة من أمرها. وكيف يبغـي اليسار التشهير بالإسلام بأن نظرياته غير قادرة على تحقيق التقدم وهو يثبت أن الإسلام هو التقدم في أسسـه النظريـة

ومساواة الخلق جميعا أمام مبدأ واحد شامل، وفي تطبيقاتـه العملية يجعل العمل وحده مصدر القيمة ويؤسـس المجتمـع اللاطبقي؟ إلى متى ستظل هذه الحملة علـى اليسـار بأنـه ملحد؟ وهل تحقق مصلحة الناس بذلك؟ هل هذا هو إشـكال مصر التي مازالت ترزخ تحت وطئة الغزاة، ومازال شعبها يناضل في سبيل لقمة العيش، والمقاومة الفلسطينية والقـوى الوطنية مهددة أمام أعيننا بالفناء؟ كفى تعمية عمـا يحـدث، وكفى تغطية لما يدور، وكفى إبعادا للأنظار عـن مشـاكلنا الحقيقية وتحدياتنا المصيرية.

إلام الخلف بينكمو إلامـا   وهذه الضجة الكبرى علاما

وفيم يكيد بعضكمو لبعض   وتبـدون العـداوة والخصاما

وأين الفوز لا مصر اسـتقرت   علـى حـال ولا السودان داما

(هـ) المعارك الأخلاقية والصراع الاجتماعي:•

يبدو أنها معركة طويلة بدأت حلقاتهـا منـذ مـايو ١٩٧١ ثم رد الفعل عليها في يناير ١٩٧٧. وليسـت آخـر حلقاتها أكتوبر ١٩٨١. فبالرغم مما يبدو على حادثة المنصة من أنها جريمة قتل يعاقب عليها القانون وهي اغتيال الرئيس إلا أن مؤامرة الصمت حول دوافعها وأسبابها ونتائجها على الأمدين القصير والطويل جريمة أعظم. فإذا كانت الجريمـة الأولى جريمة أفراد فإن الثانية جريمة نظام حكم بأكمله.

ولا يحتاج الإنسان إلى قراءة أو ذكاء كي يدرك أن المعركة الدائرة حاليا باسم الدين والأخلاق دفاعا عن"حرمـة الموت" إنما تخفي في حقيقتها الصراع الاجتماعي الخفي بين الفئة الحاكمة التي بيدها المال والسلطة وبين جماهير الشعب المدافعة عن ثورة يوليو وإنجازاتها الاجتماعية. ولما كان من

• كتب هذا المقال عام ١٩٨٢ بعد بداية نشر "خريف الغضب" للكاتب الصحفي الكبير محمد حسنين هيكل في صحف الخليج وفي جريدة "الأهالي" في مصر ثـم صـدور قرار بوقف نشر الحلقات وبداية الهجوم على الكتاب من الناحية الأخلاقية بدافع حرمة الموتى وإخفاء الدافع الحقيقي وهو الاستسلام السياسي بعد النصـر العسـكري فـي أكتوبر ١٩٧٣ . وقد أرسل لجريدة "الأهالي" في ذلك الوقت، وهذه صياغة ثانية من المسودة الأولى كتبت في خريف ١٩٨٧ .

وسائل التعمية إخفاء هذا الصـراع وإلباسـه ثـوب الـدين والأخلاق وهما المكونان الرئيسيان لـروح الأمـة وثقافـة الشعب تحاول الفئة الحاكمة اليوم الاختفاء وراءهمـا دفاعـا عن نفسها وحماية لمكتسباتها. فبعد أن تهاوى رأس النظـام يستميت الآن المستفيدون في الدفاع عن حساباتهم في الخارج وثرواتهم في الداخل ومراكزهم القيادية. الدفاع هـذه المـرة ليس عن نظام مجرد بل عن الجلد والرقبة خشـية أن تهتـز المناصب كما وقعت العروش من قبل وخشية ينـاير آخـر يكونون هم أول ضحاياه. ولقد كان الرئيس المقتول يهـددهم من قبل: تأخذون بدلين سفر، بدلا من مؤسساتكم الصـحفية وبدلا آخر من رئاسة الجمهورية ويمكـن أن أجعلـه بـدلا واحدا. وهو تهديد بسحب الرشوة! كانت السياسة المتبعة هي إعطاء كل رئيس مؤسسة صحفية أو إعلاميـة أكثـر ممـا يستحق وإلباسه ثوبا أطول منه، وإعطائه مركزا لم يكن يحلم به حتى يظل عبدا له، مستميتا في الدفاع عنه، بائعا نفسـه، مزيفا ضميره. وقد يصل عند البعض إلى حد خيانة البلاد، والرضا بالضيم والهوان.

ليت أجهزة الإعلام قـد دافعـت بـنفس الحمـاس والهوس المحموم الذي تهاجم به كتابا الآن عن شرف مصر وسيادتها على أرضها عندما كان يعلن في العـريش وعلـى أرض مصر من رئيس وزراء إسرائيل عن فتح الحدود بين مصر وإسرائيل وبجـواره رئـيس وزراء مصـر السـابق صاحب الحق في هذا الإعلان، وعندما طالب موسى ديـان بالسكنى في ميدان التحرير، وزيـارة الأزهـر والحسـين، والتسوق في خان الخليلي، وركوب تـرام الإسـكندرية ذي الطابقين ومكوثه في الدور الأعلـى رافضـا السـكنى فـي أطراف القاهرة بعيدا عن قلب مصر ولـيس متكئـا علـى رءوس الأشهاد. يا ليتها طالبت بالتريث قليلا في الاعتـراف ورئيس وزراء إسرائيل يعلن أنه ليس في حاجة إلى اعتراف أحد. يا ليتها دافعت عن حق شباب مصر ومثقفيها في رفـع علم فلسطين في معرض الكتاب ١٩٨١ وإسرائيل تشارك في المعرض تحت حماية الشرطة! يا ليتها قد طالبت بالتريث في التطبيع وفي تجارة البيض والموز والماس وفـي إصـلاح الأراضي الزراعية والمشاريع المشتركة. ليتها دافعت عـن رأي وليس عن مصلحة أو كذبت الوقائع الواردة في الكتاب

أو نظرت سياسة أو رشدت طريقا حتى تكون على الأقل جديرة بالحوار وبالنقاش. وإلى متى تستمر الأمور على هذا النحو؟ الجماهير مازالت منتظرة والأرواح ما زالت في الأعناق.

ألم يكن لعبد الناصر حرمة تدافع أجهزة الإعلام عنها؟ ألم يكن لزعماء مصر السابقين كلهم حرمة وهم الذين كان لهم شرف الدفاع عن الاستقلال الوطني وتأسيس الاقتصاد الوطني؟ وماذا عن حرمة الأحياء، واتهام الخصوم السياسيين بالكفر والإلحاد وبالعمالة والخيانة؟

إن المنهج النفسي منهج معترف به في علم النفس وفي تحليل الشخصيات التاريخية. وقد تم اغتيال جيفارا بالمنهج النفسي بعد تحليل شخصيته وسيجاره ورؤية وهجها بالأشعة تحت الحمراء وسط الأدغال. كما حللت شخصية نيكسون بالمنهج النفسي. وقد حاول علماء الاستعمار من قبل رسم صورة نفسية لعادات عبدالناصر لاغتياله والتخلص منه. ومن المسلم به علميا أن الدوافع النفسية تكمن وراء السلوك البشري.

وقد صدر قرار وقف الحلقات بعد الحلقات الأولى التي تحاول استعمال المنهج النفسي لتفسير الشخصية وسلوكها فيما بعد. لم يكن الدافع هو الأخلاق وحرمة الموتى بل إيقاف نشر الحلقات التالية التي تكشف عن التفريط في حقوق الوطن، وعدم ترجمة النصر العسكري إلى كسب سياسي، وكيف أدار العسكريون المعركة حتى النصر، وكيف أساء السياسيون إدارة المعركة حتى الاستسلام. لم يكن الهدف الحلقات الأولى بل الحلقات الأخيرة، ولم يكن الدافع الأخلاق بل السياسة، ولم يكن الحرص على حرمة الأموات بل على كراسي الأحياء.

لا يختلف في ذلك النظام في مصر عن باقي الأنظمة العربية. فالتواطؤ مشترك والمصلحة واحدة على الرغم من استسلام نظام ومقاومة ظاهرية لباقي النظم، فالدعوة إلى الصلح مع العدو الصهيوني كانت رائجة من قبل، والوصاية الأمريكية على الأنظمة العربية كانت عرفا شائعا. إنما بدأت المزايدة عندما قدم أحد الولاة الأتباع خدمات أكثر من المتوقع عند الأسياد ولدى باقي العبيد على السواء. أصبح السبق في الخيانة والعمالة شرف يناله الحكام.

وإذا كان مصير الشقيقة الكبرى التصدي في الحروب فـإن مصيرها أيضا تلقي الضربات عند الاستسلام بدلا من بـاقي الأشقاء.

ما زالت أجهزة الإعلام تختلق معارك وهمية تعمية للجماهير عن مشاكلها الحقيقية، وثرواتها المنهوبة، وغـذائها الفاسد، وأموالها المهربة منذ الهجوم على "الفتوحات المكيـة" لابن عربي في مجلس الشعب وجعله معركـة مطيـة إلـى "خريف الغضب". وهل القضية حديث مع الله أو إلـى الله أو من الله نشغل بها الرأي العام وتسيل فيها الأقلام؟ أما القـول بأن مصر وإسرائيل هما البلدان الوحيدان المتحضران وسط شعوب همجية فلا يحرك أحدا، ولا يغضب كاتبا، ولا يغلـق صحيفة، ولا يثير معركة! وكأن حرف الجر قبل لفظ أخطر على البلاد من جرها كلها تحت أقدام الصهيونية والاستعمار.

ليت أجهزة الإعلام تفكر في مستقبل مصر وفيمـا نتج عن خروجها كمركز ثقل في العالم العربي مـن تشـتت وتشرذم وضياع، وهل حرب أكتوبر هي آخر الحـروب أم بداية عصر الإمبراطورية الإسرائيلية؟ ومـاذا عـن غـزو

لبنان؟ وماذا يخبأ لسوريا والأردن والعراق والجزائر والسودان؟

ليت أجهزة الإعلام تكف عن التخوين والتكفير والاتهام. فالمركب غارق، والكل هالك. ليتها تفكر في وحدة وطنية من القوى الوطنية الرئيسية في البلاد، الأخوان والوفديون والناصريون والماركسيون، والاتفاق على برنامج عمل وطني موحد يعيد إلى الأمة استقلالها الوطني، وحريتها، وتخطيطها، وهويتها، وتقدمها، وجماهيرها. ليتها تفكر في القضية، وترى مشروعها القومي الذي بدونه تتحال مصر، وجندها غير أجناد الأرض، وشعبها مرابط إلى يوم القيامة.

(و) افتراءات ضد اليسار:

يغلف اليسار هذه الأيام خاصة في مصر، وكما كان الحال في الغرب في القرن الماضي، بظلال تجعـل النـاس غير قادرين على رؤية بريقه، وهي ظلال باهتة سرعان ما تتبدد. وافتراءات كاذبة سرعان ما تتجلى. وأهمها: *

أولا: يقال عن اليسار إنه ملحد، ضد الدين لا يؤمن بالله، ويطعن في الأنبياء. ويزيف القرآن والحديث أو علـى أكثر تقدير يستغل ذلك لمصلحته الخاصة، خوفا من النـاس، وتملقا لمشاعرهم، ونفاقا لهم. وهو قول باطل مردود فالدعوة اليسارية جوهر الدين، وأساس رسالات الأنبياء، ولا يوجـد نبي منذ آدم حتى محمد عليهما السلام إلا وأنـذر الأغنيـاء بالويل والثبور، كما فعل عيسى وطالب بحق الفقـراء، كمـا فعل النبى عاموس، وتوعد الطغاة والمستكبرين كمـا فعـل موسى، وطالب بحق الشعب في الرقابـة والمشـاركة فـي الحكم، وطالب بتطبيق الحدود علـى الضـعفاء والأقويـاء،

---

* الاهالي ١٩٧٨/٢/١.

وجعل العمل الصالح مقياس للناس جميعا لا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوى كما فعل محمد. إن كل من يشهر هذا السلاح ضد اليسار فليعلم أنه سلاح غير بتار، إنما السـلاح البتار في غير موضعه وضد مصلحة الشعب هو من يستغل الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر من أجـل التعميـة والتغطية والتستر على الأوضاع القائمة التي تضـيع فيهـا حقوق الفقراء والتي تسلب حقوق الشعب من أجـل الإبقـاء على مصالح الأقلية وامتيازاتها والدعوات الدينية اليسـارية شائعة في كل مصر، وعامة في كل دين.

ثانيا: يقال عن اليسـار أنـه مـادي وأنـه ينكـر الروحانية، وأنه يفسر الظواهر الإنسانية تفسـيرا اقتصـاديا خالصا، وأن الإنسان بدن لا نفس، وأن الواقع مادة لا فكـر، وأن الحياة دنيا لا آخرة، وأن يهلكنا إلا الدهر.. وهذا افتراء محض. فاليسار نظرة علمية للواقع. والواقـع فيـه فكـر، والإنسان جسد وروح، والعالم عالمان، عالم الشهادة وعـالم الغيب، عالم الواقع والحس وعالم الأمل والرجاء. وإذا كـان اليسار أساسا دعوة فكرية، ويحذر الجماهير بالفكر ويـدعو الناس إلى التفكير. وإذا كان اليسار أساسا دعوة إلى العدالة

الاجتماعية وإلى الدفاع عن حقوق الشعوب، وحرصا على كرامة الإنسان فكيف يكون مادية ينكر الروحانية؟ وكيف يتسنى للإنسان أن يدرك هذه المبادئ وهو بدن فقط بلا روح اللهم إلا إذا كانت روحانية عرجاء بلا مضمون، يتستر وراءها البعض ويتشدقون تغطية للمادية وتقنيعا لها.

ثالثا: يقال عن اليسار إنه فكر مستورد غير نابع من تراثنا وأرضنا ووطننا وعاداتنا وتقاليدنا، فاليسار والعمالة الفكرية شيء واحد. وهذا أيضا افتراء وبهتان وقول زور، فاليسار هو التنظير السياسي للثقافة الوطنية. والثقافة الوطنية هي التنظير المباشر لواقع الناس. فاليسار يبدأ من الواقع ولا يبدأ من الفكر. وفكره تنظير للواقع وليس فكرا منقولا. فإذا حدث اتفاق عرضا بين فكر اليسار والفكر الإنساني ازداد فكر اليسار ثقلا، وأضاف إلى التجربة الإنسانية رصيدا وطنيا. وهل انغلق تراثنا القديم على ذاته أم أضاف الفكر الإنساني، اليوناني، والهندي، والفارسي، والروماني رصيدا آخر نعتز به ونفخر به حتى الآن.وإذا كان عدو اليسار الأول هو الاستعمار الثقافي فكيف له أن يستورد فكرا يكون أحد مظاهر هذا الاستعمار؟ ألم يكن

اليسار هو الراعي للثقافة الجماهيرية والجامعـة الشـعبية؟ ولماذا لا يكون الفكر الرأسمالي مستوردا أيضا خاصة وأنـه لم ينشأ من ترابنا وأرضنا أيضا وأن واقعنا لا يختـاره ولا يفرضه؟ أن شبهة الاستيراد هذه لأكثر دلالـة علـى عقليـة الاستيراد والبضائع المستوردة التي أصبحت إحدى قوالبنـا الفكرية وإحدى موجهات سلوكنا المعاصر.

رابعا: ويقال عن اليسار بالإضـافة إلـى الأفكـار المستوردة القرارات المستوردة وكأن العمالة الفكرية تتحول إلى عمالة سياسية. فاليسار تابع لموسكو أو بكين أو لغيرهما من العواصم اليسارية وكأن اليسار لا يكون وطنيا بـالمرة. وهذا افتراء وتجن على أبرز أشكال نضالنا الوطني. فاليسار أساسا حركة وطنية ولا تصـدر قراراتـه إلا بنـاء علـى المصلحة الوطنية. وقد قامت كل حركات التحـرر الـوطني على دعوات يسارية، وكان اليسار هو الموحد لكل اتجاهات التحرر الوطني. وإذا كانت دعوات اليسار الوطني قد سادت داخل معسكر اليسار ذاتـه (الصـين، فيتنـام، يوغسـلافيا، رومانيا.. الخ) فكيف يكون اليسار خارج معسكر اليسار تابعا لإحدى أنظمته؟ لقد أصبح لليسار الوطني اليـوم (إيطاليـا،

وفرنسا) الصدارة على اليسار الأممي في حين أن الاستعمار العالمي يوحد صفوفه ويقوم على محور أساسـي، وبسـلطة مركزية توجه أذناب الاستعمار وتحرك تابعيه. والرأسـمالية العالمية المتمثلة في الشركات المتعددة الأجناس هـي التـي توجه الرأسمالية الوطنية وتبتلعها وكل ذلك لا يكون عمالة أو تبعية لأحد!

خامسا: ويقال عن اليسار أنه دعوة إلـى التغييـر بالعنف وإلي إراقة الدماء وأنه دعوة إلى الحقد والضـغينة، واستغلال فقر الفقراء، واللعب على أوجاع النـاس. وهـذا أيضا إثم وبهتان. فاليسار دعوة الأغلبية، والأغلبية لا تحتاج إلى العنف؛ لأنها تسـتطيع أن تحقـق مطالبهـا بالوسـائل الديمقراطية، وطالما ضحى اليسار بالبرنامج السياسـي مـن أجل الحفاظ على الوسائل الديمقراطية (اللندى فـي شـيلى). ووسائل الضغط مثل حق الإضراب وحـق التعبيـر تكفـل لليسار تحقيق أهدافه بالوسائل السلمية. ويفرق اليسـار بـين العنف الطفولي والعنف الثوري. فالأول ليس من اليسار بـل من الطفولة اليسارية التي يدينها اليسار والثاني هـو العنـف الذي يفرض على اليسار، عندما يهاجم كبار المـلاك أرض

الفلاحين في الريف، وعندما تطلق أجهزة الأنظمة الإقطاعية والرأسمالية النار على جماهير الشعب، وعنـدما يقـول الله: "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقـدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنـا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صـوامع وبيـع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز" (٣٩:٤٠) هنـا يظهـر العنـف الثوري كرد فعل على العنف الإجرامي في حـق الشـعب. ويكون العنف الثوري أشبه بالجهاد المقـدس. والعجيـب أن الذين يثيرون هذه الشبهة لا يدينون العنف الإجرامي البـادئ بالعدوان بل يدعون له!

فما جزاء من يفتري على اليسار كذبا؟

(ز) بريق اليسار:

حتى يكون اختيارنا السياسي قائما علـى أسـاس، وحتى لا نرفض اليوم ما اخترناه بـالأمس، وحتـى لا يـتم اختيارنا للهوى أو للمزاج أو للضغوط الخارجية، أقـول إن اختيار اليسار يحدث طبقا لمقاييس موضوعية تجعل لليسـار بريقا يستهوي الناس، ويسترعي الأنظـار. فهـو بريـق ذو مضمون مثل بريق الجواهر، وليس بريقا خادعا مثل بريـق السراب ويتمثل هذا البريق في الآتي:

١- يقوم اليسار على فكرة، وليس على سلطة، وهو اتجاه فكري قبل أن يكون اتجاها سياسيا حتى أصبح اليسـار نموذج العقائدية أو الأيديولوجية. واليسـار صـاحب فكـر، وناشر دعوة، يقرأ ويدعو الناس للقراءة، كما يدعو القـرآن. لذلك كان المفكرون يساريون بالطبع لأنهم أهل الفكر، والفكر يساري بطبعه لأن اليسار فكرة. ويشمل الفكر كل مشـتقاته من أدب وفن. وأصبح اليسار هو الوحيد القادر على إجـراء الحوار مع الاتجاهات السياسية الأخرى لأن الفكـر شـرط الحوار.

٢- يتميز اليسار بالصدق لا النفـاق، وذلـك لأن الفكر بمجرد تمثله يتحول إلى تصديق داخلي، كما هو الحال في الإيمان عندما يصدق المؤمن بما يؤمن به. فما يوجد في قلب اليساري يوجد على لسانه، وما يشعر به يفكر فيه، وما يفكر فيه يقوله، ومن ثم فلا أثر لانفصام الشخصـية التـي تحدث في الاتجاهات السياسية الأخرى عندما يجد الإنسـان نفسه موضوعا في اتجاه تحت ضغط السلطة أو تحت تـأثير الخوف. لذلك كان أصـحاب اليسـار باسـتمرار أصـحاب الصوت العالي وأول من يتلقون الضربات.

٣- يعي اليسار الالتزام بمبدأ والتضحية في سبيله، فاليسار صاحب قضـية، وحامـل رسـالة مثـل الأنبيـاء والصديقين والشهداء. وطالما قاوم اليسار وسـائل الإغـراء والضغط وعوامل الترغيب والترهيب من أجل التخلي عـن المبدأ أو تغييره، وطالما استشهد اليسار من أجل الثبات على المبدأ، وتحمل صنوف العذاب والهوان على ما نسـمع فـي قضايانا هذه الأيام. لذلك كان اليسار أقرب إلى روح الشباب روح التضحية والفداء، وكانوا زينة شباب أهل الجنة.

٤- يرتبط اليسار بالواقع، ومقياس فكره تصديق الواقع له، ومن هنا جاءت تسميته بأنه الأيديولوجية العلمية لارتباطها بالواقع. وأصبحت الواقعية في الفن والأدب وسيلته في التعبير، وهو في هذا شبيه بالوحي الذي يقوم على هذه الواقعية بتدرجه في النزول طبقا لدرجات الوعي الإنساني، ونزوله منجما طبقا لمقتضيات الواقع. ومن هنا جاءت تسميته باليسار الوطني نظرا لارتباطه بالأرض وبالتراب. وهو الوحيد الذي يملك تحليل الواقع تحليلا إحصائيا عارضا مكوناته الأساسية، ومن ثم كان قادرا على إبراز مشكلات الواقع وتقديم الحلول لها.

٥- يتجه اليسار باستمرار نحو المعارضة، وعدم التسليم بالأمر الواقع، ورفض النظم القائمة، لذلك كان اليسار أقرب إلي الجديد والتطلع نحو المستقبل في مقابل الاتجاهات السياسية الأخرى التي تريد الرجوع إلى الوراء، متطلعة نحو الماضي أو التي تريد الإبقاء على الوضع القائم، متكالبة على مكاسب الحاضر، لذلك كان اليسار ضد كل النزعات التبريرية للوضع القائم، وضد كل الاتجاهات للتسكين والتثبيت. وقد كانت رسالات الأنبياء كلها بلا استثناء دعوات

لتغيير الوضع القائم، وكان الوحي رافضا للرضى بالحياة الدنيا وحاثا الناس على النهوض وعدم الإثقال.

٦- يعبر اليسار عن نزعة غيرية في الإنسان، فالتفكير في الآخر سابق على التفكير في الذات، ومصلحة الجماهير سابقة على مصلحة الأفراد، والأغلبية صاحبة حق على الأقلية. لذلك عرف عن اليسار بأنه دعوة جماهيرية ترعى مصالح الناس، وتدافع عن حقوقهم، مهمة اليسار أشبه بمهمة فقهاء المسلمين في الدفاع عن المصالح العامة والرقابة على سير الأمور، وأن يكون حاكم المسلمين آخر من يأكل وآخر من يلبس، وآخر من يسكن.

٧-يعتمد اليسار على روح الجماعة، فالعمل الجماعي أبقى من العمل الفردي وأكثر حماية لصاحبه. ليس من شيمة اليسار عبادة الأشخاص، وادعاء البطولات، وتوهم الزعامات بل الاجتماع معا، والعمل المشترك. لذلك فإن الحزب هو عصب الجماعة. ويتفق ذلك مع ما هو معروف في طبيعتنا من روح الترابط والتراحم، وما هو مشهور في شخصيتنا القومية من عروة وثقى تظهر فوق الحصير، وعلى المصطبة، وفي الأرواح والأعياد والموالد.

٨- ينحو اليسار دائما نحو العالمية، فهو نزعة إنسانية خالصة تدافع عن الإنسان من حيث هو إنسان. لذلك كان اليسار هو التطور الطبيعي لليبرالية، والوريث الشرعة للعقلانية والتنوير. ولا تقوم العالمية على أي أساس عنصري، عرقي أو حضاري بل على المبادئ العامة الشاملة مثل حق تقرير المصير، وحرية الشعوب والعدالة الاجتماعية، والسلام.

هذا هو البريق الذي يمحو ما دونه من ظلال.

(ح) الشعارات الدينية ومضامينها السياسية:

إنه لا شك ما يحزن الإنسـان أن يـرى الأخـوة الأعداء يتصارعون وأن تتساقط الرقاب بسبب سـوء الفهـم وأن تتبدد الجهود بسبب صورية التفسير، وأن تتبعثر قـوى الأمة وتتشتت طاقاتها بلا داع بل نتيجـة بقايـا الاسـتعمار الثقافي في بلادنا، وتحقيقا لسياسة "فرق تسد".

فإن كثيرا ما يحدث في لقاءاتنا الجماهيريـة هـذه الأيام، وحياتنا السياسية وقد دب فيها النشـاط النسـبي، أن ينقسم الجمهور إلى ثلاثة أقسام: الأول يصيح "الله أكبر ولله الحمد"،" الله أكبر والعزة لله"،"القرآن دستورنا". ويهتف القسم الآخر "الله أكبر والعزة لمصر"،"اشتراكية، اشتراكية"،"تحيـا مصر"،"ناصر، ناصر". أما القسم الثالث وهو الأغلب فإنـه يكون محصورا بين القسمين الأولـين، يترقـب وينتظـر، والحيرة بادية عليه. وجدانه مع الأول. وواقعه مـع الثـاني ولكنه ينتظر لأيهما الغلبة! *

---

* الجمهورية ١٩٧٦/٨/٧.

والسؤال هو الآتي: هـل هنـاك تعـارض بـين الشعارات الدينية الأولى وبـين المضـامين الاجتماعيـة أو السياسية الثانية؟

والحقيقة أن التعارض الناشئ ينتج من خطأ شـائع يقع فيه الفريق الأول وهو التفسير الصوري الفارغ مـن أي مضمون. فشعار "الله أكبر والعزة لله" لا يعنى إلا "الله أكبـر والعزة لمصر". وهل يكره الله أن تتحرر سيناء؟ وهل ترفض عظمة الله أن تحيا مصر؟ إن الشعار الـديني لا يمكـن أن يكون فارغا بلا مضمون، ولا يمكن أن يكون له إلا مضمون من واقع من يرفع هذا الشعار. فالمصري الذي يرفع شـعار –الله أكبر– وهو محتل متخلف لا يمكن أن يعني شـعاره إلا تحرير الأرض والقضاء على التخلف بكل صوره، فإذا صاح أحد "الله أكبر" وإذا هتف آخر –العزة لمصر– فالأول يقـول بالصورة الفارغة بلا مضمون، والثاني يقـول بالمضـمون الواقعي بلا صورة. والحقيقة أنه لا توجد حقيقة بلا صـورة أو مضمون، ولكن نظرا لأننا نعيش في عصر تغلب عليـه الصور والأشكال فإن إظهار المضمون يكون أوقـع وأكثـر التزاما بالواقع. وإذا عرفنا أن الإسلام دين جوهر وليس دين

شكل أي أنه يعتني بالمضمون أكثر من اعتنائه بالصورة كان هتاف –العزة لمصر– أقرب إلى روح الإسلام أي أقرب إلى الواقع والمضمون. ولا تعني مصر هنا أيـة نعـرة قوميـة يرفضها الإسلام ولكن تعني الدفاع عن الأرض، والقضـاء على التخلف، وهما مطلبان إسلاميان.

وكذلك إذا صاح أحد بشعار –القـرآن دسـتورنا– ،"قرآنيـة، قرآنيـة، لا شـرقية ولا غربيـة"، وإذا هتـف آخر"اشتراكية، اشتراكية"،"تحيا الوحدة العربية"، ويكاد يحدث التشابك بالأيادي بين هؤلاء وهؤلاء، وكل فريق ينظر إلـى الآخر على أنه عدو له، يتهم الأول الثاني بأنه خائن للـدين، ويتهم الثاني الأول بأنه خائن لمصر! والحقيقـة أن شـعار الفريق الأول شعار صوري لا مضمون له كمن يقول: اثنان واثنان يساوى أربعة أي إنه تحصيل حاصل. فمـن منـا لا يرضى بالقرآن دستورا؟ ومن منا يرضى بأن ينحاز شرقا أو غربا؟ إنما المهم كيف نملأ هذا الشعار بمضمون. مـا هـو البرنامج السياسي والاقتصادي الذي يكفله هـذا الدسـتور؟ ولصالح من يتم الحكم والتخطيط للاقتصاد القومي؟ ولصالح من تتم التنمية؟ أن واقعا مثل الواقع المصري بدخله المحدود

–متوسط دخل الفرد حوالى مائة جنيه سنويا– لا يمكن أن يتحمل إلا نظاما اشتراكيا، وهذا هو معنى ما نردده باستمرار: حتمية الحل الاشتراكي، ومن ثم كانت الاشتراكية هي المضمون الوحيد لشعار "قرآنية، قرآنية" أي القرآن بتفسير اشتراكي، لما كانت الاشتراكية مطلبا للعصر وفرضا من الواقع. وكانت الوحدة العربية التي نجد فيها استقلالنا وكياننا، وكان ارتباطنا بالشعوب المتحررة حديثا، وبالحركات الوطنية التي مازالت تناضل، وبالعالم الثالث، وبكتلة عدم الانحياز هو المضمون الواقعي لشعار"لا شرقية ولا غربية".

إن الحوار الجاد بين هذين الفريقين، الأول الذي يرفع الشعارات الدينية، والثاني الذي يبرز المضامين السياسية هو نقطة البداية في العمل السياسي الجذري. لقد كان ماضي مصر مرهونا بهذا الحوار، وكانت القوتان الرئيسيتان قبل الثورة وبعدها بسنتين وربما حتى الآن هما الأخوان المسلمون والشيوعيون وكنا نسمع عن التقاتل بين الأخوة الأعداء. إن مستقبل مصر أيضا ما زال مرهونا بهذا الحوار حتى تأخذ الشعارات الدينية مضامينها السياسية من

واقع حرية الناس. فالناس مؤمنة تحركها الشعارات الدينيـة ومحتلة متخلفة، وحياتها ووجودها في الاسـتقلال الـوطني والتنمية لصالح الطبقات الكادحة. مستقبل العمـل السياسـي الجذري في مصر مرهون بتفسير الدين تفسيرا تقدميا يعبـر عن مطالب العصر ويلبي احتياجاته. فالدين هو الصورة التي تعطي القوالب النظرية، والتقدم هو المضمون الذي يفرضـه الواقع.

وفي الوقت الذي يحدث ذلـك لا تصـبح أغلبيـة الجماهير، وهي الفريـق الثالـث، فـي لقاءاتنـا السياسـية محصورة بين الصياح بالشعارات الدينية والهتاف بالمضامين السياسية، بل تجد فكرا سياسيا ينطلق من دينهـا، وتسـتلهم تراثها، ويلبي مطالب واقعها ويحقق حاجات عصرها، هـذه الأغلبية التي كانت قبل الثورة متمثلة في الوفد بقيادة مرجوة هي الطليعة الوفدية، والتي أصبحت فيما بعد جماهير ثـورة ٢٣ يوليو بقيادة فعلية للضباط الأحرار والتي نطلـق علـى قلبها النابض الآن اسم قوى الناصرية أو علـى مجموعهـا القوى التقدمية الوطنية هي التي ستجد في النهايـة فكرهـا

السياسي، ودورها التاريخي إذا ما التقـى الأخـوة الأعـداء وفسرنا الشعارات الدينية بمضامينها السياسية.

(ط) كلمة حق يراد بها باطل!•

كثر الحديث في مجتمعنا هذه الأيام عـن تطبيـق الشريعة الإسلامية، ومن منا لا يريد ذلك؟ فعلى الأقل سنجد مخرجا من مآسينا ورعاية لحقوقنا. ولكن بصرف النظر عن الأسباب النفسية والاجتماعية لظهور هذه الدعوة من تعويض لهزيمة سابقة، أو ادعاء يعد بنصر لاحق، أو مزايـدة فـي الدين، أو طلب لشهرة، أو ستار لعجز، أو تعمية لواقـع، أو دفاعا عن مكاسب شخصية، أو تثبيت لوضع قائم فإن هـذه الدعوة شرعية في الأساس، ولكن ينقصها الأسلوب العلمـي في التحقيق، وهو الأسلوب الإسلامي، وكأنها كلمة حق يراد بها باطل. الدعوة إلى تطبيق الشـريعة الإسـلامية إذن لا تجوز إلا بمنهج إسلامي نصفه على النحو الآتي:

١– لم يبدأ الوحي بشريعة ولكنه بدأ بعقيـدة، ولـم تبدأ حياة المسلم بنظام ولكنها بـدأت بتصـور، فالشـريعة الإسلامية صادرة عن عقيدة، والنظام الإسلامي نـاتج عـن تصور. فلنحاول أولا عرض العقائد الإسـلامية وتفسـيرها

• الجمهورية ١٩٧٦/٦/٤

طبقا لحاجات العصر، وملئها بمضمون من واقع المسلمين. ولنحاول أولا عرض التصور الإسلامي، وتحديد معالمه. فإذا تمت صياغة الفكر النظري أولا حاولنا صياغة الشريعة العملية ثانيا. ألم تأت السور المدنية وهي التي حوت الشريعة بعد السور المكية وهي التي حوت التصور؟ وكيف نأتي نحن ثم نضع الحصان قبل العربة!

٢- تحويل هذا التصور من مستوى النظر إلى مستوى الاعتقاد عن طريق إيمان بعض الأفراد والتصديق به، وهم الذين سيكونون فيما بعد طليعة للنظام. وقد ربى الرسول بضعة أفراد، هم صحابته على مدى ثلاثة وعشرين عاما، وهم الذين عاونوه في تطبيق النظام الإسلامي الذي حدث في عشر سنوات، وفي تأسيس الدولة الإسلامية بعد وفاته، فتربية الأفراد أشق وأصعب، ويطول إعدادها عن تطبيق النظام. فأين هم صحابتنا، وطليعة أمتنا؟

٣- لم تنشأ الدولة الإسلامية إلا بعد الهجرة، في مجتمع المدينة، وبدستور المدينة، وبتحالف المدينة؛ أي أن الجماهير كانت في أغلبيتها مسلمة ترنو إلى نظام جديد، ينبع من العقيدة الجديدة أو متعاطفة مع الحركة الجديدة مثل

أهل الكتاب، ومن ثم كان من السهل إقامة الدولة الإسـلامية لأول مرة في التاريخ على يد الرسول في المدينة. ولكن أين جماهيرنا اليوم التي تستقبل طليعتها استقبال الفـاتحين أم أن ضنك العيش قد أضـناها واحـتلال الأرض قـد اسـتنزفها وأدماها؟

٤- تطبيق الشريعة الإسلامية كـل لا يتجـزأ، ولا يمكن استئصال جزء منه حسب هوانا وتكويننا النفسي المعقد ونجعل منه كل الشريعة. فهناك النظام السياسـي، والنظـام الاقتصادي، والنظام الاجتماعي، والنظام الأخلاقي. لمـاذا لا ننادي بتطبيق النظام الاقتصادي القـائم علـى أن المجتمـع الواحد الذي فيه إنسان جائع تبرأ ذمة الله منه؟ لماذا نتحـرج من تطبيق النظام السياسي الإسلامي القـائم علـى البيعـة والشورى، وعدم تولية هذا الأمر من يطلبه؟ لماذا لا نطبـق النظام الاجتماعي القائم علـى مشـاركة الأمـة ورقابتهـا ومسئوليتها عن مجريات الأمور ونفـرض الوصـايا علـى الناس؟ لماذا لا نطبق النظام الأخلاقي القائم علـى التربيـة والفضيلة دون الإثارة والحرمان، ننادى بالأسـهل ونتـرك الأصعب، ونترك الجماهير ونستعدي السلطان على الناس!

٥- تقوم الشريعة الإسلامية على أداء الأمانات أولا ثم تطبيق الحدود ورعاية الحقوق ثانيا. وأداء الأمانات يـأتي في الولايات والأموال. فمن ناحية الأولوية تـأتى السياسـة والاقتصاد قبل القانون أى أن تحرير الأرض والتنمية لهمـا الأولوية المطلقة على الحدود التي هي حـق الله أي النظـام الإسلامي يعطي حقوق الإنسان أولا قبل أن يعطـي حقـوق الله.

٦- وإذا كان لابد من تطبيق الجزء قبل الكل خوفا من الكل واستئسادا على الجزء أليست النظافة مـن الإيمـان وبيوتنا وشوارعنا على ما هي عليه؟ أليس السلوك الخلقـي العام أيضا دون بذاءة القول مـن الإسـلام؟ ألـيس تـوفير الخدمات للناس، وسهر الحاكم على مصالحهم لإطعام الجائع وكسي العار، من الدين؟ أليست العمولات علـى مشـتريات الدولة نهبا لأموال المسلمين؟ أليس الـرقص الشـرقي قبـل الأذان أو بعد القرآن في أجهـزة الإعـلام وأخبـار نجـوم الإغراء وتفسير القرآن على صفحتين متقابلتين في صحافتنا خروجا على الحياء؟ نستمتع بالدنيا ونتستر بالدين!

٧- قبل مطالبة الأمة بتطبيـق حـدود الله علينـا إعطائها حقوقها، وقبل مطالبة الفرد بالقيام بواجباتـه علينـا إعطائه حقوقه، فمن حقوق المسلم العمل لا البطالة، والكفاية لا الحاجة، والتربية والفضيلة لا الإثـارة والحرمـان، ودرأ الشبهات لا تعريض الناس لها. يتم تطبيق قانون العقوبات أي الحدود في حالة إقامة الشريعة الإسلامية، فإذا انحرف سلوك الناس عن نظامها جاء دور العقوبات. فتطبيق الشريعة يأتي أولا والحفاظ عليه بالحدود يأتي ثانيـا. فالعقوبـات نتيجـة وليست مقدمة، نهاية وليست بداية.

٨- والحدود الإسلامية ليست قوانين صورية بـل هي أوضاع اجتماعية سماها الأصوليون"أحكام الوضـع" لا يطبق الحد إلا إذا كان السبب والشرط موجـودين والمـانع غائبا حتى يصح تطبيق الحد. فالجوع والبطالة والمـال بـلا رقابة موانع من تطبيق حد السـرقة. والإثـارة والحرمـان وغياب التربية موانع من قيام حد الرجم. وإيقاف عمر تطبيق حد السرقة عام المجاعة أشهر من أن يذكر.

٩- ولماذا نطبق نصف الحد أو ربعه؟ ألم يلعن الله شارب الخمر، وساقيها، وصانعها. فكيف تقدم الخمور في بلد

مسلم؟ ليس المقصود هو الشارب فقط، بل الساقي والصـانع وصاحب المتجر. أليس كل هؤلاء مسلمين؟ ولماذا لا تطبـق الشريعة على الحاكم قبل المحكوم؟ ألم يقل الرسول: "والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها" عسـى ألا نطبـق الحدود في الضعفاء ونترك الشرفاء!

(ى) الوثنية الجديدة: •

يخطئ من يظن أن الوثنية هي عبـادة الأصـنام فحسب، اللات والعزى وهبل وغيرها، فهـذه هـي الوثنيـة الصريحة التي لم يعد يؤمن بها أحد. ولكن هناك وثنية أخرى مقنعة أخطر من الأولى، لا يراها أحد، ولكنها تستشري فـي النفوس، وتهدد حياتنا وتهدم ديننـا، وتجعلنـا مثـل عبـدة الأصنام. وتبدو مظاهر هذه الوثنية الجديدة في الآتي:

١- التأنق في طبع المصاحف، وتغليفها بالقطيفـة الحمراء الموشاة بماء الذهب الأصفر، ووضعها في صناديق مطعمة بالصدف كقطع أثرية أو معروضات سياحية بجـوار "الشيشة" الشرقية وتماثيل نفرتيتي وأبو الهول، وصور بـائع العرقسوس والملاية اللف، وتبادلها في المناسبات. فلا يوجد أمير أو وال أو حاكم في البلاد إلا ونال منها العشرات فـي الأعياد الدينية والوطنية يزين بها مكتبه أو منزلـه أو ناديـه بجوار كئوس النصر ودروعه ونياشينه ووثائق الدم الأحمر، وما من وال قد قرأها أو فتحها بل وضعها الكل في عرباتهم

• الجمهورية ١٩٧٦/٧/١٦

وراء الزجاج الأمامي أو الخلفي تقيهم العين وتمنـع عـنهم الحسد وتكثر عليهم الرزق ! لقد أصبحت تجارة حقا، رابحة عند الناس وخاسرة عند الله، تقوم بها بعض دور النشر التي عجزت عن نشر الثقافة فتخصصت في الاتجار بالمصـاحف والتأنق في عرضها.

ليست المصاحف ولا الكتب المقدسة للزينة أو هدايا نقدمها للولاة والحكام إعلانا عن تأييد مصطنع أو مغالاة في إظهار ولاء، بل تحتوي على فكر يتمثله النـاس، ويصـبح تصورهم للعالم، وعلى منهج عملي يصلح حال الناس، ويغير واقعهم، فالمصاحف والكتب الدينية مقدسة بما تحتويـه مـن برامج ثورية لمجتمعات العصر ومشكلاتها الكبـرى وعلـى رأسها التخلف والاحتلال، وليست مقدسة بمادتها وطباعتهـا. وقد فرق القدماء بين كلام الله الأزلي وهي المعاني المحفوظة في الصدور وهي المبادئ الشاملة التي بها قوام الحياة وبـين كلام الله الحادث وهو المكتوب أو المقروء أو المسموع الذي نتفنن في إبراز مفاتنه بالصوت أو بالحرف، ونكون حينئـذ "كالحمال يحمل أسفارا!؟.

٢- طبع اسم "الله" إما على أوراق ملونة مزركشـة نزين بها جدران منازلنا أو حوائط مكاتبنـا بجـوار صـور الولاة أو فوقها أو أمامها مما يشير إلي طاعتنـا لله ولأولـي الأمر على حد سواء، أو حفرها على قطع مـن البلاسـتيك نعقلها في عرباتنا أو كحلي نحيط بها رقابنا، وتتـدلى علـى صدورنا، إبرازا لمهارتنا في فنون الطباعة أو لقدراتنا فـي صناعة البلاستيك أو تجارة رابحة يضمن بها التجار الـربح مادام رجل الشارع يدين لهم بالولاء. وفي نفس الوقت نصيح "تعالى الله عما يصفون"، ونعظ الناس بأن الله لـيس كمثلـه شيء، لا تدركه الأبصار. كما نضع في كثير من مسـاجدنا في ركنيها الرئيسيين على نفـس المسـتوى مـن الكتابـة والزخرفة والتعليق وكأنها بقايا نفيسة مـن معلقاتنـا السـبع القديمة التي كانت تنشر فوق جدران الكعبة. كما نعلق علـى مساجد أخرى، على أركانها الأربع لوحات أربـع أخـرى: "عمر"، "أبو بكر"، "عثمان"، "علي"، وهم بشر فانون مع "الله" الذي يتصدر المحراب بالنور، وهو الخالد الأبدي. وهل يـتم ذكر الله على هذا النحو الوثني أم بالدفاع عن المبادئ التـي أعلن عنها الوحي، وبتطبيق الشريعة التـي فيهـا مصـالح

الناس، وذكره في القلب ورعا وتقوى "ألا بذكر الله تطمـئن القلوب".

-٣- تشييد المساجد والحفر على جدرانها الداخلية بآيات من القرآن الكريم تتشابك فيها الحروف، وتكثر فيهـا الزينات حتى تستحيل قراءتها أو استذكارها، وعلى جدرانها الخارجية بالنور الأخضر وعلى أكشاك السجائر المقابلة مثل الدعاية والإعلان! وقد كان مسجد الرسول على الحصى وبلا جدران. كما أن الأرض جعلت لنا مسجدا طهـورا "وأينمـا تولوا فثم وجه الله".

ونضيء المساجد، ونغلف المآذن بالمصابيح وحولها أكوام من النفايات، وبداخلها دورات ميـاه لا تتـوافر فيهـا شروط الطهارة، وحصر نضع عليها أحذيتنا وجباهنا. كمـا نتجمل في صناعة سجاجيد الصلاة ونتحذلق فـي صـناعة المسبحات، ونطيل الذقون، ونلبس البياض، ونتمتم بـالقرآن، ونكثر من الطيب، وننشر البخور وقت الصلاة داخل المساجد وفي البيوت، ونعلي من صوت القارئ في مكبرات الصوت والناس تلهو، وتصبح أحياؤنا الشعبية التي تكثر مـن هـذه المظاهر أحياءنا الدينية!

٤- ونقرأ على عربات النقل: ما شاء الله، سـبحان الله، يا صلاة النبي، يـا نـور النبـي، باسـم الله مجريهـا ومرسيها، في أمان الله، ومع سلامة الله كل ذلك بجوار يـا حلوة.. يا زين، يا جميل يا أسمر، وكأن كتابة هذه الشعارات الدينية تحفظ من مخاطر الطريق وتقي العين، وتدر الـربح، وفي نفس الوقت ينام السائقون ليلا، ويتعاطون الحشيش ولا يحترمون قواعد المرور، وتكثر الحوادث، ويمـوت النـاس رغما عن الشعارات المكتوبة.

وعلى عربات الطعام المتجولـة، وفـوق أكشـاك الخضار والفاكهة نجد أيضا في جميع الأركان: الله، كبـدة، محمد، مخ، أبو بكر، كباب، عمر، كفتة، ممـا يـدل علـى اختلاط إيمان الناس بحياتهم اليوميـة، وأن همـوم الآخـرة وهموم الدنيا قد تثاقلا معا على أكتاف النـاس. فـإلى متـى سنظل عبدة الأوثان الجديدة؟

(ك) للمخطئ أجر.. وللمصيب أجران:•

لقد أصبح الاتهام بالردة أو بالكفر سلاحا مشهرا هذه الأيام على كل من تفوه بكلمة أو قال برأي في الدين، وأصبح استنفار الناس على الرجم وحرق البيوت واستعداء السلطة لإهدار الدماء جزاء كل مجتهد أخطأ أم أصاب، ثم نبكي على ما وقعنا فيه من تقليد، ونعاتب من أغلق باب الاجتهاد! وكأننا لم نع بعد حرية الفكر وغير حريصين عليها، وتريد تسليم أنفسنا للسلطان كما كنا نفعل من قبل.

١- لقد ظهر مقال "مع القرآن من جديد، ترتيب جديد للسور في المصحف الشريف" في فبراير الماضي، وكان حماة الإسلام صامتين إما لأنهم لا يدرون ما يدور حولهم وهم أهل الفتيا في الديار، وإما لأنهم كانوا يدرون ولم يروا في الرأي غضاضة إلا بعد أن انضم كاتب المقال إلى التنظيم اليساري الشرعي في البلاد، وأصبح الهجوم عليه

• الجمهورية ١٩٧٦/٦/٢٣

وإعلان ردته جزءا من الحملة المنظمة الشعواء على اليسار، واتهامه بالكفر والإلحاد.

٢- كان الأجدى بأهل الفتيا قبل إصدار حكم الردة الاطلاع على المقال نفسه بدلا من الاعتماد على تعليق أحد مهاجميه. ومن تقاليد علماء أصول الدين القدماء عدم أخذ مقالات الإسلاميين وآراء الفرق عن معارضيها ومخالفيها تأكيدا لأمانة النقل وحرصا على صدق الرواية.

٣- لم يأت الكاتب ببدعة بل أعاد اجتهادا قديما وحديثا في آن واحد، له مؤيدوه ومعارضوه، فهو جزء من التراث. فلماذا لم يتم إعلان كفر الشيخ محمد بن علي بن خلف الحسيني شيخ المقارئ المصرية في إعادة ترتيبه لسور القرآن معتمدا على دراسات حفني ناصف، والشيخ أحمد الإسكندري، والشيخ مصطفى عنان، وكأن كاتب المقال وحده، لسبب ما، يتحمل أوزار الناس أجمعين!

٤- لم يأت الكاتب ببدعة بل أعاد ما هو معروف في علوم القرآن وفي علم أصول الفقه من نزول القرآن منجما على ثلاثة وعشرين عاما. ولا يشك أحد في أن "أسباب النزول" تعني أن الوحي الإسلامي نداء من الواقع

وليس فرضا عليه، فالواقع أسبق من الفكر من حيث مناهج التغيير الاجتماعي وحصر المشكلات وطرق التفسير. فتحريم الخمر كانت بدايته في واقعة سكر، والحجاب كانت بدايته في واقعة التعرف على نساء الرسول، فلا يوجد حكم إلا وله بداية في واقعة.

٥- ولا يشك أحد في أن وجود الناسخ والمنسوخ يعني التدريج في الأحكام من اللين إلى الشدة (تحريم الخمر) أو من الشدة إلى اللين (المحاسبة على أعمال الجوارح فقط دون أعمال القلوب) طبقا لقدرات الإنسان، وحسب درجة استقلاله الفكري والإرادى. قاعدة التدرج هي قاعدة النسخ، أما قاعدتا الإطلاق والتعقيد، والتخصيص والتعميم فهما من مباحث الألفاظ في علم الأصول وليسا من مباحث القرآن.

٦- لم ينكر الكاتب الترتيب الحالي للسور ولكنه تساءل عن ضبطه على هذا النحو إن لم يكن بتوقيف، والتساؤل ممكن، والإجابة ضرورية. فإذا كان الترتيب الحالي توقيفا من عند الله آمنا به، وإذا كان اجتهادا كما يقترح كاتب المقال طالبناه بالدليل. وإذا كان الترتيب التاريخي للسور راجحا والترتيب الحالي مرجحا طالبناه

أيضا بالدليل. والمطالبة بالدليل شيء والاتهام بالردة شـيء آخر.

٧- هناك فرق بين "قرآن العبادة" و"قرآن التشريع"، فالأول للتلاوة، والثاني للأحكام. وهناك من الآيات ما نسخت أحكامها ولم تنسخ تلاوتها. فالقرآن المرتب ترتيبـا تاريخيـا قرآن تشريع وليس قرآن عبادة، وهو مثل المعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن الكريم أو غيره من المناهج والدراسات علـى القرآن ولكنه لا يكون مصحفا بل دراسة في أحكام التشريع. ويجوز في قرآن العبادة قراءة المدني قبل المكي، والسـور الطوال قبل القصار، وسورة البقـرة قبـل سـورة النـاس، والوسط قبل البداية أو النهاية. فكله عبادة. وقد كنا نقرأ فـي المدارس جزء "عم" ثم جزء "تبارك" ثم جزء "قد سـمع". ولا يعنى ذلك قراءة القرآن من اليسار إلى اليمين. ليس كل قارئ للقرآن يبغي تشريعا منه فذلك عمل الفقهاء. وقـراءة عامـة المسلمين هي قراءة عبادة لا قراءة تشريع. ولا ضير أن يقرأ كل مسلم القرآن قراءة تاريخية دون ما حاجة إلـى طبـع مصحف جديد.

٨- ولماذا قصر ترتيب الآيات فقط على التوقيف دون ترتيب السور؟ إذا كان المقصود هو ترتيب القرآن كله حسب ميقات النزول فلا فرق في ذلك بين الآيات والسور فكل سورة لم تنزل كلها مرة واحدة إنما نزلت آياتها مفصلة أحيانا. فما الحكمة من التوقيف.

٩- قد تكون الحكمة في ترتيب السور على هذا النحو التأكيد على أن كل ذلك وحي من الله، وأن التصور العام للحياة لا يتطور بتطور التشريع ومن ثم فيمكن قراءة المدني قبل المكي. وقد تكون الحكمة في إدخال الآيات المدنية في السور المكية أو الآيات المكية في السور المدنية هو التأكيد بأنه لا فرق بين العقيدة والشريعة، بين التصور والنظام. وأن كليهما متداخلان، ينبع أحدهما من الآخر في رباط عضوي داخلي. فيمكن تفسير المكي بالمدني، فالتفسير يبحث عن المعنى والدلالة وليس على الأحكام. فلا ريب أن يفسر الإنسان أحد ببدر، ومجتمع المدينة بمجتمع مكة. فالتاريخ لا يعني بالضرورة التالي في الزمان بل يمكن للحاضر أن يفسر الماضي.

١٠- إن العرف مقياس من مقاييس الشرع. وقد تعارف الناس على مدى أربعة وعشرين قرنا على هذا المصحف الشريف بترتيب سوره وآياته. وإن وضع ذلك موضع التساؤل يكون خروجا على العرف. وقبول العرف شيء ورفض التقليد شيء آخر.

١١- قد تسبب هذه الدعوة الاجتهادية في نشأة مصاحف كثيرة بترتيبات مختلفة مع تطور البحوث والدراسات حول القرآن، وبالتالي تكون لدنيا عدة مصاحف بعدة ترتيبات. وينشأ الخلط، ويعم التشويش، مرة في ترتيب السور، وأخرى في ترتيب الآيات، وثالثة في الزيادة والنقصان، ورابعة في القرآن كله وبذلك يفقد القرآن ميزته على سائر الكتب المقدسة وهي صحته التاريخية وتواتره الذي يعترف به علماء الشرق والغرب على السواء.

١٢-إن التجديد لا يكون في المسائل النظرية إلا إذا نتج عنها أثر عملي في حياة الناس. وقد كان الهدف هو معرفة ما أحدثه القرآن من ثورة فكرية واجتماعية ومناهج في التغيير والإصلاح. ويمكننا معرفة ذلك من خلال أسباب النزول و"الناسخ والمنسوخ"، وعلم أصول الفقه، والشريعة

الإسلامية دون ما حاجة إلى طبع مصحف جديد. إن قضية ملكية الأرض في الإسلام وفي مصر لهي أكثـر جـدوى، وإعطاء "الأرض لما يفلحها" لهو أكثر نفعا. وإقامة المجتمـع الإسلامي اللاطبقي هو في نهاية الأمر مناط التجديد.

(ل) الإسلام والمعارضة:

(إنه لمن دواعي العجب أن تتحول الأمة التي تقيم نظامها السياسي على حقها في المعارضة السياسية إلى أمة مستكينة وظيفة أهل الحل والعقد فيها تبرير السلطة القائمة والتخوف منها والسعي وراءها والحرص على مناصبها في حين أن "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" هو شعار الأمة).

المعارضة السياسية هي جوهر النظام السياسي الإسلامي والتي عبر عنها القرآن في آية "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" وهو شعار الأمة الإسلامية وسلوك أهل الحل والعقد، وحق الرعية على الراعي، والذي أصبح عند المعتزلة أصلا من أصول الدين، وفي الفقه بابا من أبواب الأحكام السلطانية ونظاما للحسبة. وقد ذكر القرآن هذه الآية في تسعة مواضع مركزا على الحقائق الآتية:

١–إنه هو السبب الوحيد الذي من أجله تصبح الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس"كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر" (٣:١١٠).

فالأفضلية هنا لا ترجع إلى النسب أو الحسب، إلى العصب أو العرف، إلى الغني أو الملك، إلى الإرث أو الميراث بل ترجع أساسا إلى قيام الأمة بالرقابة على الدولة وممارستها لحقها في المعارضة السياسية، ووجوب الدفاع عن المصالح العامة. فالتوحيد لابد وأن يتحقق في فعل الخير للناس عن طريق النصح وإعلان الحق ودحض الباطل. الأمة الإسلامية تفكر بصوت مرتفع يسمعه القاصي والداني الحاكم والمحكوم. ولا تخشى في الله لومة لائم.

٢- إنه أمر إلهي نصدع به "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" (٣:١٠٤). وليس مجرد اختيار ناشئ عن مزاج أو هوى. هو فرض لا نافلة، وواجب لا ندب على كل قادر، والتخلي عنه يوقع تحت طائلة العقاب. فهو ليس شغبا أو عمالة أو حقدا أو كراهية بل طاعة لأمر إلهى تقوم به القلة القادرة. فهو فرض كفاية على المسلمين. لذلك كانت المعارضة السياسية دائما تتم بالقلة، وهي الطليعة الواعية التي تبغي الصالح العام. ولا يضرها النقص في الكم من حيث العدد لأنها هي التي تعبر عن الكيف.

إنه شرط الإيمان بالله والطريـق إليـه "تـأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنـون بـالله" (٣:١١٠). فالإيمان بالله ليس مجرد قول أو نية أو عمل فردي بل هـو عمل جماعي يؤثر في حياة النـاس. الإيمـان إذن طريـق محفوف بالمخاطر، وثمن لابد من دفعه وهو الإعلان عنـه أمام الملأ. فالمعارضة السياسية لا تكون سرية لأن الإيمـان واضح جلي لا يخفى على أحد. ومن ثم وجبـت المجـاهرة بالمعارضة كمجاهرتنا بالتوحيد أن لا طاعة لمخلـوق فـي معصية الخالق. وهو أيضا نتيجة للإيمان وظهور له في حياة الناس "يؤمنون بالله واليوم الآخـر ويـأمرون بـالمعروف وينهون عن المنكر" (٣:١١٤). فالإيمان لا يكون ميتا بل حيا ولا يكون داخليا بل خارجيا يوجه حياة الناس.

٤- هو ما يميز مجتمع المـؤمنين عـن مجتمـع المنافقين "المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بـالمعروف وينهـون عـن المنكـر" (٩:٧١). فالعلاقـات الاجتماعية القائمة على الإيمان هي علاقات النصح المتبادل والتوجيه المشترك. أما مجتمع النفاق فإنه يقلب الحق بـاطلا والباطل حقا "المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون

بالمنكر وينهون عن المعروف" (٩:٦٧). فيزين للقوم المنكر وينفرهم من المعروف. فالمعارضة السياسية بغية الصالح العام هي أساس مجتمع الإيمان. أما تبرير السلطة القائمة دفاعا عن الصالح الخاص فهو أساس مجتمع النفاق.

٥- إنه لا يقل عن الصلاة، وهي ما تميز المؤمن عن غير المؤمن "يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة" (٩:٧١). هي صلاة اجتماعية تهدف إلى ما تهدف إليه الصلاة من النهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، تمنع الخوف، وتخرج عن الصمت، وتجهر بالقول، وتذهب بالنفاق والمداراة. فالمعارضة السياسية أشبه بصلاة المؤمنين وليست خروجا على الطاعة لله وللرسول ولأولي الأمر منا، وأذان الصلاة، الله أكبر، يحوي في داخله أكبر قدر من المعارضة لكل متكبر جبار يجعل نفسه كبيرا للقوم.

٦- لا يكفى الإنسان أن يكون تائبا عابدا سابحا راكعا ساجدا بل لابد أن يكون آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر "التائبون العابدون الحامدون السابحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله" (٩:١٢٢). فأفعال العباد الأولى قدرية

في حين أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي العبـادة الجماعية التي ترعى حـدود الله وتحـرص علـى قيامهـا. فالمعارضة السياسية الجماعية من خلال حزب للمعارضـة يدافع عن حقوق المسلمين ويبين واجبات الحكام هـو أمـر بالمعروف ونهي عن المنكر، أي ممارسة شرعية دفاعا عن حقوق المسلمين.

٧- أنه دعوة للخير وليس شغبا أو حقدا أو فسادا أو تخريبا في الأرض "يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكـر ويسارعون في الخيرات" (٣: ١١٤) فهو دعوة مـن أجـل الخير وليس من أجل الشر، من أجل الحلال وليس من أجـل الحرام، من أجل الطيبات وليس من أجل الخبائث "يـأمرهم بالمعروف وينهاهم عـن المنكـر ويحـل لهـم الطيبـات" (١٥٧:٧). فالمعارضة السياسية تهدف إلى الصـالح العـام وإلي تعميم الخير وإلي المشاركة في الغنم والجرم وليس إلى تعميم الفقر وسد الرزق، والحد من النشاط وتكبيل المجتمـع بقوانين الردع والعقوبة.

٨- هو شرط التمكين فـي الأرض والبقـاء فيهـا وتعميرها بعد الصلاة والزكاة "الذين إن مكناهم فـي الأرض

أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهـوا عـن المنكر" (٢٢:٤١) إذ تنهار المجتمعات عندما لا تتناهى عـن المنكر ولا تأمر بالمعروف فتسود الرذيلة وتذهب الفضـيلة "كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كـانوا يفعلـون". فالمعارضة السياسية هي وسيلة الإبقاء على نظـام الدولـة، والقضاء على المعارضة انهيار للدولة وسقوط للنظام.

٩- أنه لابد أن ينتج عنـه مكـروه وأذى للـذين يقومون به إذ يقول لقمان لابنه واعظا إياه: "يـا بنـي أقـم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر علـى مـا أصابك" (٣:١٧). وهذا هو ما يجعل المعارضة في كل نظام تتحمل كل صفوف الاذى والقهر من السلطة القائمة. فكيـف يخشى الناس المعارضة وهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر!

(م) **ذهب المقصورة.. وجوع الفقراء!**

طالعتنا الصحف ووكالات الأنباء بتركيب مقصورة من ذهب للسيدة زينب رضي الله عنها وتصفها مجلة أكتوبر كالآتي: *

"المقصورة مصنوعة من رقائق الفضة، وتكلفت ٢ مليون دولار، ومصنوعة على الطراز الفـاطمي، ومطليـة بالذهب في أماكن متفرقة منها، وزن الفضة بها أكثـر مـن طن، وهيكلها الحديدي يزن خمسة أطنان، ترتكز على قاعدة تزن ١٠٠ كيلو جرام من الفضة، يتكون الجزء الأسفل مـن الرخام الفاخر، القبة الفضية زنتها ٣٠٠ كيلو جرام، ويعلـو القبة هلال من الذهب!".

والأغرب من ذلك أن يتم هذا أمام سـمع وبصـر علماء المسلمين في مصر، رئيس جامعة الأزهـر، ووكيـل وزارة الأوقاف، كما يتم بموافقة وتأييد أولي الأمـر، ويـتم

---

* الاهالى ١٩٧٨/٢/٨ وقد حذفت الجريدة فقرتان: الأولى في المقدمة عن عدم جواز بناء مساجد على قبور الأنبياء والأولياء وإشارة إلى الوهابية. والثانية في الخاتمـة "فأيهما أولى بالرعية، الأموات في مقصورة السيدة أم الأحياء على بـاب السـيدة؟". وبعد الحذف من المقال السابق ومن هذا المقال والتردد في نشر المقالات انقطعت عن الكتابة في "الأهالي".

النقل بطائرة حربية مصرية والافتتاح على مرأى من ملايين المسلمين في أجهزة إعلام. أننا نلاحظ الآتي.

١- إن هذه الأموال الطائلة كانت كافيـة لإطعـام آلاف من المسلمين الجياع في الهند وبها خمسون مليونا من المسلمين، ويضرب بهم المثل في الفقر فـي العـالم وفـي انحطاط مستوى المعيشة، أو في مصر بإقامة المستشفيات أو بناء المدارس أو رصف الطرق أو تشييد المساكن، أو تجديد شبكة المياه الجوفية. وهل يقبل الله مقصـورة ذهـب بيتـا للأموات بجوار أكواخ طين يعيش فيها الفقراء؟

٢- إن الذهب والفضة محرم على المسـلمين مـن الرجال استعمالها في اللباس أو الزينة بنص الحديث "حـرم لبس الحرير والذهب على ذكور أمتي" وغيره من الاحاديث المتواترة. فإذا كان حراما على الأحياء فإن الأموات يكونون أولى بالحرمة، فلا زينة للأموات. وإن اكتنازها محرم بنص القرآن "والذين يكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوي بها جباهم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون" (٩: ٣٤ -٣٥). فتكديس هذه الأطنان مـن

الذهب والفضة دون إنفاقها في الصالح العام حـرام بـنص القرآن. أما بالنسبة للنساء فالأولى إنفاقها في تجهيز جيـوش المسلمين في حالة الحرب والاعتداء على أراضى المسـلمين وهو حالنا الآن.

٣– إن بيوت الذهب والفضة هي بيوت الكفـار لا بيوت المسلمين فالله يعد الكفار بسقف من فضة "لجعلنا لمـن يكفر بالرحمن سقفا من فضة ومعـارج عليهـا يظهـرون" (٤٣:٤٤). إنما بيوت المسلمين تلك التي تؤسس على التقوى والصلاح.

٤– إن الذهب والفضة لن يغنيا عن العمل الصالح، ولن يزيدا السيدة زينب - رضي الله عنها- كرما وطهـرا، ولن يزيدنا نحن قربا ولا صلاحا.

٥– إن التنعم بالذهب والفضة لا يحدث فـي هـذه الدنيا، إنما يعد الله به المؤمنين في الآخرة: أساور من ذهب وفضة في أذرع المؤمنين وصحاف من ذهب يأكلون منهـا، وآنية من فضة يطاف عليهم بها، وقوارير من فضة يشربون منها، ولكن ليس زينة للأموات أو فرحا للأحياء يسـر بهـا الناظرون.

٦- إن تكريم السيدة زينب رضي الله عنها لا يتأتى بتغطية قبرها بقباب بالذهب والفضة ولكـن بأخـذها قـدوة للسلوك، ونموذجا للفداء، وقائدة لمقاومة الظلـم والطغيـان وعلامة على الشهادة في سبيل الله، وتمسكا بالشرعية ورفضا لكل أنواع الإغراء ودفاعا عن حقوق الفقـراء فـي أمـوال الأغنياء، وإصرارا على العودة إلى النبوة والخلافة بعـد أن تحولت إلى ملك عضود.

٧- ويتم ذلك بحضور علماء المسلمين وبمسـاعدة أولي الأمر، والدين والنصيحة، لله وللرسول ولأئمة المسلمين وعامتهم. ولم نسمع أحدا من علماء المسلمين يقوم بها وكأن حب الذهب والفضة عند المترفين والمحرومين على السـواء جعل الجميع صامتا عن دين الله "زين للناس حب الشـهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الـذهب والفضـة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب" (١٤:١٣).

(ن) هل تجوز الصلاة في الدار المغصوبة؟•

عرض علماء أصول الفقه لهذا السؤال وهم بصدد البحث عن استحالة الجمع بين الحظر والوجوب في فعل واحد من جهة واحدة لتقابل حديهما إلا على رأى من يجوز التكليف بالمحال، وهو باطل بإجماع الأمة. والخلاف هل يجوز انقسام النوع الواحد من الأفعال إلى واجب وحرام من جهتين كوجوب الفعل المعنى الواقع في الدار المغصوبة من حيث هو صلاة وتحريمه من حيث هو غصب شاغل لملك الغير.

قال الجبائي وابنه أبو هاشم والقاضي أبو بكر وأحمد بن حنبل وأهل الظاهر والزيدية وقيل إنه رواية عن مالك. وقالوا: الصلاة في الدار المغصوبة غير واجبة ولا صحيحة ولا يسقط بها الفرض ولا عندها، ووافقهم على ذلك القاضي أبو بكر إلا في سقوط الفرض فإنه قال يسقط الفرض عندها لا بها مصير أمنهم إلا أن الوجوب والتحريم إنما

• قدمت هذه الفتوى إلى جريدة "الأهالي" بعد زيارة القدس في نوفمبر ١٩٧٧ ورفضت الأهالي نشرها، ولما أصررت على النشر والتصويت عليها في مجلس المستشارين لم تنل أغلبية الأصوات. وكان هذا آخر عهدي بجريدة "الأهالي" في ١٩٧٨.

يتعلق بفعل المكلف لا بما ليس من فعله، والأفعال الموجودة من المصلي في الدار المغصوبة أفعال اختيارية محرمة عليه وهو عاص بها مأثوم بفعلها، وليس له من الأفعال غير مـا صدر عنه، فلا يتصور أن تكون واجبة طاعة ولا مثابا عليها متقربا بها إلى الله لأن الحرام لا يكون واجبا، والمعصـية لا تكون طاعة ولا مثابا عليها ولا متقربا بها مـع أن التقـرب شرط في صحة الصلاة.

(الآمدي: الأحكام في أصول الأحكام جـ ١ ص ٥٩، صبيح).

الواحد بالتعيين كصلاة زيد في دار مغصوبة مـن عمرو فحركته في الصلاة فعل واحد بعينـه هـو مكتسـبه ومتعلق بقدرته. فالذين سلموا في النوع الواحد نازعونا فقالوا لا تصح حتى الصلاة إذ يؤدي القول بصحتها إلى أن تكون العين الواحدة من الأفعال حرامـا واجبـا وهـو متنـاقض (المستصفى جـ ١ ص ٧٧، الحلبى. بادشاه: تيسير التحرير جـ ٢ ص ٣٧٠–٣٧١).

أحاديث في اليمين واليسار في الفكر الديني

(أ) من الإخوان المسلمين مع اليسار.. ومن اليسار مع الدين: *

---

* روز اليوسف ١٩٧٦ وأجرى الحديث عبد الله إمام وصدره بالفقرة الآتية:
اعترض على طريقتي في إجراء الحوار عندما قلت له إنه ليست عندي أسئلة محددة أوجهها إليه، وكل ما أريده هو أن أتعرف عليه وأناقشه.. وعندي لذلك مفتاح واحد، هو موضوع الدين والتقدم. وموضوع الرأسمالية والاستغلال.. وقال الدكتور حسن حنفي إن هذا ليس منهجا سليما في الحوار فلابد أن تكون لدي أسئلة محددة ومكتوبة بدقة، حتى يستطيع أن يجيب عليها. والحقيقة أنه كان على حق.. وكنت على حق أيضا. فليس من الممكن أن أواجه مفكرا دون أن يكون لدي ما أريد أن أحاوره فيه.. كما أنه لم يكن من الممكن أيضا أن أعد أسئلة معينة لرجل كل المعلومات التي دفعتني للتعرف عليه –ومعذرة– هي بضع مقالات في الصحف.. أغلبها نائم!
وحدثتني عنه أيضا ابنتي التي تدرس الفلسفة، فهو كما يصف نفسه في مدرج الجامعة "فقيه".. يترك مقعده على منصة الأستاذ في كلية الآداب بجامعة القاهرة، مرة كل أسبوع للطلاب ليتحاوروا ويتحدثوا.. وينتقدوا.. معبرين عن رأيهم "فالحوار المفتوح بين كل التيارات –في رأيه– هو الذي يخدم قضية الديمقراطية والحرية في مصر، ولقد أضر بالجامعة الخواء الفكري الذي عشناه نتيجة انعدام الديمقراطية!" وليس من المهم أن يعتنق الشاب أي موقف فكري، المهم أن يكون صادقا وأمينا، وأن يكون له مذهب وعقيدة.. وتأتي المرحلة التالية بعد ذلك، وهي الحوار بين هذه المذاهب.. ليبقى الأصلح منها".
ومن هنا فإن تجربة المنابر رائدة، وينقصها أن يكون لكل منبر صحيفة تعبر عنه، وأن تكون السلطة في حياد تام بينها، وألا ينحاز رئيس الجمهورية لمنبر دون آخر،

*الملكية في الإسلام لله وحده.

* ساعة علم خير من عبادة الله سبعين عاما.

* التفسير العصـري للقـرآن... يعنـى التفسـير الاجتماعي والاقتصادي.

* لماذا كان فقراء مكة من أول المؤمنين بالإسـلام وكان الأغنياء أول من حاربوه؟

* هل يفسر الدين لصالح أقلية مستغلة أم لصـالح الناس؟

* هل يجوز احتكار تفسير الدين.

قابلت ابن باب الشعرية الدكتور حسن حنفي حسنين أستاذ الفلسفة في منزله بمصر الجديدة فهو لا يغادر مكتبتـه إلا إلى الجامعة أو نادي السينما مساء الأربعاء! وكانت بداية اللقاء غير مشجعة، فقد صدمته طريقتي "غير العلمية"، ولكن سرعان ما ذاب هذا الشعور، عندما سـألته عـن رسـالته للدكتوراه التي حصل عليها من جامعة السربون.

بل يظل أبا للجميع وربا للأسرة. لقد شجعني هذا الذي سمعته عنه، أن أطرح أفكاره للمناقشة العامة.. بكل ما فيها من جرأة وجدة.. وكل ما أتمناه هو أن يقابلها من يريد مناقشتها بوقار العلم، لا بتهريج المعارضة العمياء التي ترفض أن يفكر الناس.

رسالته للدكتواره كانت حول مناهج التفسير.. وكان آخر من حصل على تأشيرة دخول لفرنسـا قبـل عـدوان ١٩٥٦، وقطع العلاقات مع فرنسا، ورغم أن البعثة كانـت مقررة على نفقة الدولة، إلا أنه دبر حاله، ورحل على نفقتـه فقد أحس أن حربا يمكن أن تنشب فتؤجل بعثتـه الرسـمية! وبدأ يكتب في المنهج الإسلامي، وقرأه معظم المستشـرقين، وعديد من الفلاسفة... فقد كانت البداية في تفكيره أن يعيـد بناء علم أصول الفقه القديم، بأبعاده التاريخيـة، والفكريـة، والعملية. وقال المستشرقون إنها فاتحـة عهـد جديـد فـي الدراسات الإسلامية منذ جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده. وهو ما ينبئ عن متاعب لابد أن يلقاهـا كـل مـن أراد أن يجتهد ويفكر في أمور الدين.

*** لماذا اخترت موضوعا إسلاميا لرسالتك؟**

لأنني نشأت في الجامعة المصرية، وفـي حضـن الإخوان المسلمين، والفكر الديني الإصلاحي في وقت كانت المشكلة الثقافية المطروحة في مصر هـي محاولـة تجديـد الإسلام، وكان السؤال المطروح هو: هل يصـلح الإسـلام كمنهج عام للإنسان في كل عصر، وزمان؟ وبدأت أكتب عن

المنهج الإسلامي العام، وخاصة أن كلمة منهاج موجودة في القرآن.. وفي تلك الفترة كنت متأثرا جدا بمقالات، ودراسات سيد قطب.

ولا أعتقد أنه يوجد شاب مصري إلا ومر بجماعة الإخوان المسلمين، فهي تمثل اختيارا أصيلا في مجتمعنـا.. وإذا أعيدت الآن.. طبعا أنضم إليها.. ولكن دعني أحدد لـك موقفي الفكري بوضوح. أنا أمثل تيار اليسار الـديني. وأنـا مستعد لأن أعمل مع أي جماعة أو تنظيم أو حـزب يفسـر الدين تفسيرا تقدميا لصالح الجماهير الإسلامية.. فأنا لا أفكر في مصر وحدها.. بل أفكر في فقراء الهنـد، وبـنجلاديش، ومالي، وتشاد، وفي أوضاع المسلمين بوجه عام، حيث تركز أموالهم في يد الأغنياء. والغريب أن مشكلة الثراء تحدث في بلاد الإسلام، وفيها ما يسمى بعائدات البترول، ومشكلة الفقر تحدث أيضا في بلاد الإسلام، وفيها ما يسـمى بالمجاعـة، وسوء التغذية والفيضانات. ومن هنا فـإذا قامـت جماعـة الإخوان المسلمين من جديد، فسأكون في الجنـاح اليسـارى فيها، وإذا أنشئ تنظيم يساري فسأكون في الجناح الديني فيه.

* القضية التي تشغل الدكتور حسن حنفـي هـي إعادة تفسير القرآن الكريم.

لأن في هذا خدمة لقضية العدالة الاجتماعية، ضـد الفوارق بين الطبقات.. خدمة للتنمية ضد التخلف والاستقلال ضد الاحتلال.. ولحسن الحظ فإن الإسلام يسمح بذلك، فقـد أتى للدفاع عن مصالح الجماهير، وللحفاظ على الاسـتقلال، والشخصية القومية.. وأنا أحـاول تكـوين ثقافـة وطنيـة، مستخدما إعادة الموروث الحضاري عند الجماهير، والتـي آراها في التراث الديني القديم، والأمثال الشعبية.. والتفسـير العصري للقرآن في رأيه لا يعني التفسير العلمـي، فـالعلم يتغير، ويخضع لقوانينه الخاصة.. ولكنـه يعنـي التفسـير الاجتماعي، السياسي والاقتصـادي، الـذي يـرى الواقـع الاجتماعي مستلهما النص الديني. فنحن في مصر مثلا يجب ألا نغفل قضية الأرض.. فعندنا ٦ ملايين فدان، و ١٨ مليون فلاح، والتوزيع العادل أن يكون لكل فلاح ثلث فدان.. فالذي يملك فدانا يأكل طعام اثنين من زملائه، والذي يملك عشـرة أفدنة يأكل طعام ثلاثين فلاحا، والذي يملك ٥٠ فدانا يأكـل طعام ١٥٠ فلاحا. فالواقع المصري لا يسمح على الإطـلاق

بملكية الأرض من ثلاث فدان لكل مزارع، وبهذا الشكل تحل مشكلة ١٢ مليونا من الأجراء الزراعيين..

والمثل الثانى الذي أريد أن أوضحه....

* قبل أن نتحدث عن هذا المثل الثاني.. دعني أقف هنا يا دكتور.. متسائلا عن قضـيتين.. الأولـى.. موقـف الإسلام من الملكية، الثانية ما قد يتسبب عن ذلك الذي تطالب به، من تفتيت للملكية. وكان الذي طرحه الدكتور حسن حنفي مفاجأة غريبة بالنسبة لي..

قال: الملكية في الإسلام لله وحده "لله ملك السموات والأرض" والإنسان مستخلف فيما أودعه لديه كأمانة له حق الانتفاع بها، وليس له حق الإضرار بالغير.. والإسلام يمنـع المؤاجرة في الأرض، فهو ضد أن يملـك إنسـانا أرضـا، ويؤجرها إلى غير يعمل فيها، ولكنه يسمح بالاشـتراك فـي زراعة الأرض بمجهود مشترك، ومن ثم فالإسلام أقرب إلى المزارع التعاونية والجماعية. فإذا تذكرنا أن الإسلام يمنـع تكديس الأموال، وكنزها، ويوصي باستثمارها، يستحيل على المسلم أن يترك وراءه سوى العمـل الصـالح، والـذكرى الطيبة. والرسول لم يترك وراءه سوى درع مرهونة لشخص

يهودي.. وإذا حللنا آية الميراث نجد أن الوصية تمتـد إلـى الوصية بالدين، وبالتضحية وبالعواطف، وأنه يمكـن كتابـة وصية للمصلحة العامة، وتوريث غير الأقرباء.. ووفاء الدين بالوصية، وأن تخصيص نصيب للرجـل ضـعف نصـيب المرأة، يدل على أن الغاية هي الاستثمار. أما تفتيت الملكيـة الذي تتحدث عنه فهو ليس خطرا، والداعون إلـى الميكنـة الزراعية هم مقلدون للغرب الذي يعاني من اتسـاع رقعـة الأراضي، ونقص الأيدي العاملة وظـروف الجـو التـي لا تسمح بالعمل في العراء، وطبيعة الأرض الصحراوية.

هناك الآلة ضرورة؛ لأنها تقوم بعمل أكثر من مائة عامل. أما في مصر، فالرقعة محـدودة، والأيـدي العاملـة متوفرة، والتربة طينية.. يستطيع كل فلاح بفأسه، ومحراثـه أن ينتج أكثر مما تنتجه الآلة.

* مؤلفـات الـدكتور حسـن حنفـي، ودراسـاته بالإنجليزية، والفرنسية، أكثر مما كتبه بالعربية، وكلها تركز على قضية الدين والتقدم.. والثـورة.. وهـي مـن أشـهر المؤلفات في أوربا.. وكانت البداية لمناقشة هذا الموضـوع هو المثل الثاني الذي ضربه.

– أن متوسط الدخل القومي في مصر، وفقا لآخـر الإحصائيات حوالي مائة جنيه سنويا للفرد الواحـد، فالـذي يتقاضى مائة جنيها شهريا يأكل طعام ١٢ مواطنـا والـذي يأخذ ٥٠٠ جنيه قد أكل طعـام ٦٠ مواطنـا إذ أن الواقـع المصري لا يسمح بأية فوارق كبيرة فـي الـدخول، أو أي تركيب طبقي، ولابد من وضع حد أدنى وحد أعلى للدخول.. وقد آخى الرسول بين المهـاجرين والأنصـار، واقتسـموا أموالهم فيما بينهم.

* ولكن هناك نص صريح في القرآن الكريم علـى تفضيل البعض على البعض الآخر..؟

– المسألة هنا ليست في النص، ولكن في طريقـة التعامل مع النص، فنحن نذهب للقرآن بحثا عن تلبية مطالب المجتمع. البداية هي الواقع الذي أعيشه، وأعاني منه، والذي أريد أن أغيره. فمأساتي هي تفاوت الناس في الرزق، أو كما يقول الاقتصاديون، العمولات، والقطط السـمان، والـدخول الطفيلية، وقطاع المقاولات وتجار الجملة ومملكة العجـول.. أليست هذه مأساتي ومشكلتي، إذن لابد أن أبحث في القـرآن عما يحل هذه المشاكل، ويضع حدا للجشع، والكسب الحرام..

ومن ثم فإنى أقرأ القرآن فأجد فيه "كى لا يكون دولـة بـين الأغنياء منكم". وأجد في الحديث أن المجتمع الواحد الذي فيه إنسان جائع تبرأ ذمة الله منه كما أجد "الناس شـركاء فـي ثلاث: الماء والكلأ، والنار" والذي يختار من القـرآن آيـات تعكس التفاوت في الرزق، وتعمل على زيادة الكسب غيـر المشروع فإنه يكون ضحية للتفسير الرأسمالي للدين. المسألة إذن هي: هل يفسر الدين لصالح الجماهير أم لصالح الأقلية، والتفسير لصالح الأغلبية هو الذي يخدم المصلحة العامـة.. وكان فقهاء المسلمين دائما في صالح الجمـاهير، يعـذبون، ويسجنون ضد التفسير لصالح الأقلية أو السـلطة. السـؤال الذي يطرح نفسه هنا هو من الذي يكشف عن الوجه التقدمي للإسلام ومهمة من هذه..؟ إن علينا أن نبدأ بمتطلبات الواقع، مثلا التنمية، والعدالة الاجتماعية، والاستقلال الوطني.. وهذه مهمة يقوم بها جميع المسلمين. فليس في الإسلام رجال دين، والجماهير الإسلامية تفرض مصلحتها على الولاة، كما أنها أيضا مهمة فقهاء المسلمين الذين هم الرقباء علـى السـلطة والمدافعون عن المصلحة العامة التي هي أساس الشرع.

* إن هذا يعني – يا دكتور– أن على كل مسلم أن يجتهد، ولكن مجمع البحوث الإسلامية له رأي مختلف، فقـد أباح الاجتهاد لجماعات الفقهاء من المسلمين وليس للأفراد.. أي أنه أباح الاجتهاد الجماعي.

وقال: إن هناك شروطا في المجتهد، في مقـدمتها بالإضافة إلى العلم، الوعي بمصالح المسلمين، وقرار مجمع البحوث الإسلامية يضعه في موقـف الاحتكـار للتفسـير، ويرجعنا إلى تاريخ الكنيسة في الغرب، وإلى ما حذر منـه الإسلام. فالاجتهاد –في الإسلام– حق لكل فرد إذا اسـتوفى في شروطه، وعلى رأسها العلم بالكتاب والسـنة، والـوعي بمصالح المسلمين.

يمكننا أن نقول إن الإسلام عندما أتى كان أول من اعتنقه هم فقراء مكة، ومضطهدوها، وضعفاؤها، وأول مـن عاداه هم أشراف مكة وأغنياؤها الذين كانوا يخشـون مـن الدين الجديد على مكاسبهم، وأوضاعهم وتجارتهم واستغلالهم للعبيد. فالدين ثورة في صالح الفقراء.. والمضطهدين.

* تحركت في مقعدي، أشـعل سـيجارة، أتأمـل انفعالات الدكتور، أرشف فنجان القهـوة، ولحظـة سـريعة

مضت قبل أن أقول له: وماذا عن القول بأن الماركسية مادية يا دكتور حسن؟ وانفعل الرجل لأنني أردد خطأ شائعا، واتهاما تركه الاستعمار الثقافي في بلادنا بأن الماركسية مادية، والرأسمالية روحانية..

وقال: الرأسمالية تقوم على الاستغلال، والسعي وراء الاستهلاك والرفاهية، وهى أعلى درجات المادية. لقد كانت المادية في القرن التاسع عشر نظرية تقدمية كرد فعل للنظريات المثالية الخيالية في القرن الثامن عشر، وهي –مع ذلك– ليست الإطار النظري الوحيد للماركسية. فالمادية في هذه الظروف اختيار حضاري حقيقي، وهى أيضا أساس الرأسمالية. فلماذا تتهم الماركسية بالمادية، ولا نتهم بها الرأسمالية التي لا تقوم على التفسير المادي للظواهر الاجتماعية فقط، ولكنها أيضا تقوم على ترسيخ القيم المادية في النفوس، مثل الجري وراء المال، والاستغلال، والمنافسة، والربح؟ الدين في النظام الرأسمالي نفاق.. إذ يظن الرأسمالي أنه بمجرد حضوره قداس الأحد، وتبرعه لبناء كنيسة قد نال جزاء الآخرة، وفي الحقيقة هذه تعمية، وتغطية على ما يفعل في الأيام الستة الأخرى من استغلال واحتكار. دعني أسألك

أننا نثني على ثورات وأعمال جيفارا، وكاسـترو، وهوشـي منه، وغيرهم.. هل هؤلاء ماديون أم أن ثوراتهم الاجتماعية، هي أعلى درجات الروحانية، ودفاعهم عن استقلال بلادهـم هو أول واجب من واجبات الدين، ألا وهو الجهاد؟ فالإنسان – طبقا للإسلام– يقيم بعمله الصالح. وماذا يعنى الدين، هـل هو مجرد العقائد أم أن الدين يعني الشريعة التي تقوم علـى العدل والمساواة؟ فالعقائد يختلف في تفسيرها حتى المتدينون، والماركسية لها تفسـير للعقائـد مثـل تفسـير المعتزلـة، والأشاعرة، والشيعة. فالأساس الأول الـذي قامـت عليـه الشريعة الإسلامية هو الحفاظ على المصلحة العامة. الـنظم الرأسمالية تركز على الجانب العقائدي من الدين حتى تطمس وتعمي الجانب التشريعي فيه، من أجل المحافظة على بنيـان المجتمع الرأسمالي الذي يقوم على الاسـتغلال والاحتكـار. فالماركسية إذن لا ترفض العقائد، ولكنها تفسرها، وتفسيرها مشابه لتفسير النظام، والجاحظ، ومعمـر، وثمامـة، ومـن يسمون أنفسهم بالطبائعيين. وليس الدين طقوسا وعبادة فقط، ولكنه إنتاج ومعاملة أيضا.. والعمل في الإسلام هو مصـدر القيمة. والذي يعمل بيديه، ويطعم الآخرين الذين يعبدون الله

بالشعائر والطقوس، هو أفضل منهم. العبـرة ليسـت ببنـاء المساجد والجوامع، والصوامع.. ومن يركز علـى الجانـب الشعائري في الدين، هو ضحية للاستعمار الثقافي الذي روج له الفكر اليميني الرجعى، والرأسمالي للدين. فبناء المسـاجد في الإسلام حرام، ذلك لأنه "جعلـت لـي الأرض مسـجدا وتربتها طهورا". فنحن نستطيع أن نصلى فـي الصـحراء، وبدلا من أن نقيم مسجدا نكلفه مليونا من الجنيهـات، فلنعـد بهذا المبلغ بناء مجاري القاهرة حتى لا تطفح، وتلوث الناس، ويموت المسلمون نتيجة جراثيمها.. أو ننفقها في بناء مصانع في الأحياء الشعبية من أجل تشغيل الشـحاذين والعـاطلين والنائمين على الأرصفة من المسلمين. وكان مسجد رسـول الله حصي في العراء[١].

---

[١] وأنهى عبد الله إمام حديثه بالعبارة الآتية:

وقال لي الدكتور حنفي وهو يودعني.. وكأنه يوصيني بمزيد من العمل والعلـم.. إن ساعة علم يا أخي خير من عبادة الله سبعين سنة ولقد أمضـينا فـي جلسـتنا هـذه ساعتين.. إنهما أفضل من مائة وأربعين سنة عبادة.

(ت) اليسار الإسلامي مشروع حضاري:

سؤال: برز أخيرا عنوان جديد في عالم الصحافة المصـرية والإسـلامية عمومـا ونعنـي بـه صحيفة"اليسار الإسلامي" فلماذا وقع الاختيار على هذا العنوان المثير وما هي أبعاد هـذا المشـروع الإعلامي؟

د. حنفي: أنى أعتبر نفسي تلميذ سيد قطب ففي سنة ١٩٥١ دخلنا سويا إلى الإخوان غير أنه لسوء الحظ ذهـب هو ضحية الإخوان، فبدل أن يستمر في التيار الـذي أنـتج "العدالـة الاجتماعيـة فـي الإسـلام" و"معركـة الإسـلام والرأسمالية" و"السلام العالمي والإسلام" وهو التيار الذي كان بإمكانه أن يخلص العالم الإسلامي من مآسيه، حدث الصدام بين الإخوان والثورة ودخل سيد السجن وبقي سنتين ثم عـاد مرة ثانية واستشهد سـنة ١٩٦٥ دون أن يمـارس الثـورة ويشارك في العمل الوطني ولم يطور أفكاره. وكـان آخـر نتاجه "معالم في الطريق" الذي أصبح "إنجيـل" الجماعـات الإسلامية حاليا. أما أنا فقد غادرت مصر في تلـك المحنـة وذهبت إلى فرنسا. وعدت بعد عشر سنوات وأنا في ذهني

استئناف المهمة التي بدأها سيد في أواخر الأربعينيـات: أي بلورة الإسلام الثوري، الإسلام الاجتماعي وأخـذت علـى عاتقي لم الشتات وتحويل الإسلام إلى مظلة يسـتطيع مـن خلالها كل وطني أن يعبر عن آرائه. وفي هذا السياق أنشئت مجلة اليسار الإسلامي ووضعت صورة الأفغاني باعتبـاره أبي الروحي الأول قبل سيد قطب وجعلـت الآيـة القرآنيـة "ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهـم أئمة ونجعلهم الوارثين" كشعار للمجلة لأننا نحن المستضعفين في الأرض: نحن الذين لا حرية لنا ولا ثورة لنا، نحن الذين نعاني من الاستعمار واحتلال الأرض وتشتت النسل.

والمجلة تعبير عن مشروع حضاري لأن اليسـار الإسلامي حسب اعتقادي –لا أقول حتمية تاريخية حتـى لا أهضم حق الحرية الإنسانية– ولكنه ضرورة حضارية. فالمد الإسلامي الآن مد تاريخي يحاول أن يقيم دورة ثانية للإسلام نحن الآن في فجرها. وهي بهذا المعنى حتمية تاريخية إلا أن التاريخ لا يسير طبقا لقانون حتمي فقط إن لم يـزدوج مـع إرادة وحرية وعمل وجماهير وجهد حتـى تلتقـي الحتميـة

التاريخية والقانون التاريخي مع الإرادة والـوعي الإنسـاني والاجتماعي وعندها يمكن أن نحقق ثورتنا المنشودة.

سؤال: ما هي طبيعة المشروع الذي يحمله التيـار الإسلامي اليساري الذي تتحدثون عنه.

د. حنفي: اليسار الإسلامي عبـارة عـن حركـة تاريخية جماهيرية ثقافية حضارية اجتماعية سياسية وثقافتنـا ترتكز على ثلاثة أصول: أولا: التراث القديم- ثانيا: التراث الغربي- ثالثا: القرآن الكريم. فالموقف من التـراث القـديم يتحدد بإعادة بنائه بحيث أجدد القوالب الذهنية للنـاس حتـى أستطيع في الأخير أن أحمي الأمة وأحمي مصالحها ابتـداء من إعادة بناء قيمها ومفاهيمها وتصوراتها وهذا هو شـرط الثورة الدائمة. فالثورة العربية بالرغم من صياغتها لأكبـر مشروع في التحرر العربي الحديث إلا أنها انتكسـت بعـد خمسة عشر عاما وانتهت إلـى ردة. لمـاذا؟ لأن نفسـية الجماهير لم تتغير وعقليتها لم تصغ بشكل جديد ولأن قيمهـا ونظمها بقيت ثابتة بالرغم من تغير الهياكـل الاجتماعيـة. فمهمتي إذن هي أن أعيد بناء التراث من أجل بدائل تقدميـة مكان المقولات السائدة.

القضية الثانية: هي أن أفهم الغرب في إطاره وتطوره التاريخي وبالتالي أتمكن من أن أحمي نفسي من التغريب. فالتغريب هو اللجوء المستمر للثقافة الغربية بحثا عن حل المشاكل الذاتية اعتقادا أن الغرب يمثل دائما نقطة إحالة Point de reference والتحرر من التغريب لا يكون إلا بالقضاء على أسطورة الثقافة العالمية التي جعل الغرب نفسه مركزا لها. عندئذ فقد أقدر على مواجهة الغير والتعامل معه.

أما بالنسبة للقرآن الكريم فالذي أعتقده أنه لا وجود لتفسير من أجل التفسير ولا نظرية من أجل النظرية. لقد جاء رجل إلى عمر فقال له: "يا أمير المؤمنين ماذا تعني "فاكهة وأبا" فالفاكهة علمناها ولكن ما هذه الأبا؟ فنظر إليه عمر وقال تقريبا: "أفرض يا أخي أنك فهمتها أو لم تفهمها فماذا سيغير ذلك من حال المسلمين" وهذا يجعلني عندما أقرأ القرآن لا أهتز إلا للآيات التي تساعدني على حل القضايا المطروحة وهي الآيات التي تدعو إلى الحرية والآيات التي تدعو إلى التعقل والآيات الموجهة ضد الأغنياء والتسلط المواجهة للاستعمار والسيطرة على أراضى المسلمين.

سؤال: لو سمح الدكتور نستوقفه قليلا لنعود به إلى بداية الحديث. لقد تحدثت عن سيد قطب معتبرا نفسك تلميذا له والذي نريد أن نعرفه هو: هل التلميذ انحرف عـن خـط أستاذه أو أن الأستاذ ارتد عن أفكاره الأولى؟

د. حنفي: سيد قطب هو من أهم الشخصيات التـي أثرت ومازالت تؤثر في الحركات الإسلامية المعاصرة. بدأ حياته ناقدا أو شاعرا في الثلاثينات وكان يدافع عن الأدبـاء الشبان وساند العقاد ضد طه حسين. وكان الناس يأملون من ورائه خيرا في تطور النقد الأدبي. ومع أواخر الأربعينـات اكتشف الجانب الأدبي في القرآن؛ يعني بدأ يكتشف الإسـلام ولكن من جانبه الأدبي. وكانت الأربعينات أتـون الحركـة الاجتماعية والسياسية في مناهضة الاستعمار والدعوة إلـى استقلال مصر وطرح العدالة الاجتماعية. وهناك تحول سيد قطب من الجانب الأدبي إلى الجانب الاجتماعي في القـرآن فكتب آثاره الثلاثة التي ذكرتها آنفا. وكـان سـيد محـورا للتقدميين الاشتراكيين والقوميين والوفديين وكان مآله دخول حركة الأخوان. ولقد حرر بعد ثورة "يوليو" برنامج الأخوان وذلك عندما طلبت قيادة الثورة من كل الاتجاهات السياسـية

أن تقدم برامجها. وعندما صدر قرار حل الأحزاب لم تحـل جماعة الأخوان، لأنها لم تعتبر حزبا سياسيا. وكانت الجماعة عنصر ثقة من الناس وتمثل الجميع فيها خيرا. ولكن لسـوء الحظ ولحرص كل من الأخوان والثورة على السلطة حـدث صدام ٥٤ بعد معارضة الأخوان لمعاهدة الجلاء التي عقدها عبد الناصر مع الإنجليز والتي كانت تسمح لهم بحق العـودة إلى قناة السويس واستعمال مطارات مصر... الخ. وهكـذا عارض الأخوان عبد الناصر وأخذوا محمد نجيب الذي كان يدعو إلى الوحدة الإسلامية. وخسر محمـد نجيـب وخسـر الأخوان واستشهد عبد القادر عودة ورفاقه ووضع الآلاف في السجون. وفي السجن تكون سيد قطب آخر هو الذي ظهـر في معالم في الطريق والذي عبر فيه عن نفسية السجين بين الجدران فدعا إلى تكوين جيل قرآني وطليعة مؤمنة قـادرة على التغيير. والافتراض الذي أطرحه هو لو قدر لسـيد أن يعيش خارج السجن وأن يساهم في العمل السياسـي ويـرى تأميم القنال في ٥٦ ويعايش نضال الشعب المصـري ضـد العدوان الثلاثي ويرى الوحـدة مـع سـوريا ٥٨ والبنـاء الاشتراكي لمصر في ٦١ لأن ما حدث في مصر هي أفكار

سيد قطب الأولى لكان من مؤسسي اليسار الإسلامي. ومـن هذه الزاوية أعتبر اليسار الإسلامي استئنافا لسيد قطب فـي كتاباته الأولى.

سؤال: وكأني بك تعذر سيد وكل الذين ساروا على دربه.

د. حنفي: أنا يا أخي أفهم جيدا لماذا مثلا يسـتهوي "معالم في الطريق" الشباب المسلم لأننا في نفـس الظـروف النفسية التي عاشها سيد قطب: مضـطهدون، مسـجونون لا السجن في معناه الضيق "أربع جدران" ولكنه السجن الكبيـر حيث لا حرية لنا في التعبير. وحيث لا حل يبدو إلا تكـوين طليعة مؤمنة "جيل قرآني فريد" وأن نعتبر أن لا إلـه إلا الله منهاج حياة... إلخ. ولكن كيف سنحقق ذلـك بالفعـل؟ هـل بالصراع بين الإسلام والجاهلية "الواقـع المضـاد" أم عـن طريق احتواء الإسلام "للجاهلية"؟

أنا أعتقد أن هناك صراعا بين الإسـلام والواقـع المضاد. هذا هدف لكنه لا يريد أن يتم عبر مراحل. فالـذي يريد تحرير فلسطين باسم البروليتاريا العالمية هـل اعتبـره عدوي أم صديقي المرحلي؟ الذي يريد أن يوحد الأمة باسـم

القومية العربية هل اعتبره عدوي أم صديق المرحلة؟ كـذلك الذي يدافع عن العدالة الاجتماعية. ومن ثم فأنا مع سيد قطب وتلميذ له وتعلمت منه الكثير ولازلت حتى الآن عندما أقـرأ "معركة الإسلام والرأسمالية" أشعر وكأنني مـع أكثـر مـن ماركسي. ومن ثم فأنا أضع يدي مع أيدي كل من يشاركونني أهداف الحرية والعدالة الاجتماعيـة ومقاومـة الاسـتعمار والصهيونية ومقاومة التخلف والقهـر وسـيطرة الأغنيـاء واستيلائهم على خيرات البلاد.

ولماذا الوقوف عند"معالم فـي الطريـق"؟ فكلنـا مجتهدون ومهمتنا تطوير الفكر النظري للحركة الإسـلامية ولعل على شريعتي مثلا يمثل أحكاما نظريا أكثر مـن سـيد قطب بل لعله يمثل قطيعة مع سيد قطب الثاني. وبالتالي مع احترامنا لسيد قطب الأول واعتزازنا به وفهمنا لسيد قطـب الثاني إلا أننا نريد أن نخرج الحركة الإسلامية من مرحلـة رد الفعل إلى مرحلة الفعل ومن مرحلة نفسية السجين إلـي مرحلة الأفق الواسع والأرض الرحبة والتسامح مع النـاس. ولا يجب أن يغلب الثأر قلوبنا بل علينا أن نتطـور ونعـي

الدروس ونعذر مخالفينا الذين نشأوا في غياب البديل الإسلامي الثوري.

د. حنفي: السؤال في ذاته يدل على مدى التغريب الذي شمل مجتمعاتنا. مازلنا نظن أن الماركسية نتاج الغرب وأن الإسلام نتاج الشرق وأن أي إنسان يريد أن يحافظ على هويته ويحل قضاياه الرئيسية التي يعيشها في مجتمعه فما عليه إلا أن يوفق بين الإسلام والماركسية إنطلاقا من خلفية تجعل من الغرب مقياسا حضاريا. هذا خطأ في وضع السؤال. وقد تسألني ماذا أفعل وماذا سأرفض من الماركسية أو من غيرها؟ فأجيبك أنني يا أخي لا أرفض ولا أقبل أنني أفعل كما فعل الفلاسفة المسلمون عندما اكتشفوا العقل في القرآن الكريم واستخرجوه من إبراهيم. فكان الفلاسفة اليونان رفاق نضال بالنسبة لهم. وكذا الشأن عندي أنطلق من الإسلام باعتباره دعوة من أجل الحق والخير والعدالة والمساواة وفي الطريق سألتقي بمن يهدفون إلى نفس الغايات فأعتبرهم رفاق نضال ومن بين هؤلاء ماركس الذي نجله ونحترمه لأنه ساهم في كشف عدة حقائق عامة كما استطاع نقد المثالية ودافع عن الطبقة العاملة وأقام نظرية

في"رأس ماله" وبين أن العمل هو مصدر القيمة وقد أقيم له تمثالا في ميدان الاستقلال تعبيرا عن احترامي له ولكنه لن يتحول عندي إلى بديل عن ابن خلدون. إننا في غياب البديل الإسلامي الثوري لجأنا إلى الماركسية لحل قضية العدالة الاجتماعية وإلى الليبرالية لحل القمع المسلط على شعوبنا وإلى القومية لإنهاء حالة التشرذم، وإلى ديكارت لتأكيد العقلانية. والرد على موجة التغريب هذه تمثلت في الدعوة التي طرحتها في مجلة "اليسار الإسلامي" وفي كتابي "التراث والتجديد" والقائمة على إعادة تأسيس العلوم الإسلامية وقراءة جديدة للتراث الإسلامي والتراث الغربي.

سؤال: إذن فأنت تعتبر إنهاء حالة التغريب تتم عبر الحسم في إشكالية التراث والمعاصرة، وعبر تحديد موقف علمي من الغرب باعتباره التحدي الثاني بعد التراث؟

د. حنفي: لابد أن آخذ موقفا من الغرب. أنا لست غربيا وإن درست في الغرب ودرست فلسفته ولكني مسلم. والغرب بالنسبة لي هو التحدي الأعظم لا فقط في الأرض والزراعة والصناعة والاقتصاد ولكن في الغزو الثقافي والروحي يريد أن يجعلني دائما متعلما وأن يوهمني أني

مهما حاولت اللحاق به فمعدل إنتاجه أسرع بكثير من معدل لحاقي به وبالتالي تتسع الفجوة الحضارية بيني وبين الغرب فأصاب بالصدمة الحضارية فأجري يائسا حتى أموت. تلك هي نظرته إلينا هو الأستاذ ونحن التلامذة. أنا أريد أن أغير هذا الوضع، أن أنقل الحضارة الإسلامية الحديثة من مرحلة التتلمذ على الغرب إلى مرحلة الانفصال والتحدي ثم الإبداع والاحتواء. أصبح المسلم حاليا لا يستطيع إلا إذا كان ماركسيا. فأصبح الغرب هو المعيار والميزان. مهمة المسلمين هي الوقوف أمام الغرب وتحديه ثم الإبداع المستقبلي. وهي ليست مشكلة التكنولوجيا فقط ولكنها معركة التحدي الحضاري. إن إلقاء نظرة على الساحة الفكرية للعالم الإسلامي تبرز انتشار العديد من التيارات الغربية لغياب وعينا الثقافي بعد أن استعمر الغرب أراضينا منتقلا من الاستعمار السياسي إلى الاستعمار الاقتصادي والثقافي. ومن ثم نشأ بيننا ممثلون للحضارة الغربية ووكلاء من المذاهب الفلسفية الغربية. وحين أردنا حل مشاكلنا ولم نجد البديل الإسلامي الثوري القادر على حلها لجأنا بالضرورة إلى الماركسية لحل قضية العدالة الاجتماعية وإلي الليبرالية

لحل قضايا القمع. أما بالنسبة لي فبـوعيي لتراثـي القـديم وبقدرتي على مواجهة الغير أقوم بمهمة ثانية وهي القضـاء على أسطورة الثقافة العالمية التي يروج لها الغرب. وبالتالي أفهم الغرب في إطاره وتطوره وأستطيع أن أحمي نفسي من التغريب ومن أجل أن أحل مشاكلي بـاللجوء إلـى الثقافـة الغربية فليس كل مدافع عن الحرية بليبرالي... إذن فالقضاء على التغريب هو في نفس الوقـت حمايـة للمسـلمين مـن الاستلاب الثقافي واكتشاف النظرية الإبداعية مـن الـداخل وليس من الخارج.

إن شرط عمليات الإبداع هو عدم التقليد وأن إيمان المقلد في علم أصول الدين لا يجوز. ومن ثم فأنـا أردت أن أحل قضية العدالة الاجتماعية نظرا لأني أعيش بين الفقـراء والأغنياء وأحل قضية الحرية لأني أعيش فـي ظـل نظـم قمعية. وأنا لا أستطيع أن أكون مسلما ثوريا لو كنت مقلـدا لأبي ذر الغفاري لأن شرط الإبداع هو عدم التقليد.

سؤال: أود أن....

د. حنفي: أريد لو سمحت أن أتعرض بالمناسبة إلي مقولة سمعتها كثيرا هنا في تونس وأيضا بالمغرب وهي مـا

تسمونه "بالقطيعة الابستمولوجية" Coupure epistemologique وهي مقولة أصبحت تستعمل كالمفتاح السحري الذي به يستطيع المثقف العربي أن يرفع كل التباس. وأنا هنا لا أنقد ولكني ألاحظ. فالغرب بعد عصر الإحياء في القرن الرابع عشر الميلادي أحيا الأدب القديم وأقام الإصلاح الديني في القرن الخامس عشر بربط الإنسان مباشرة مع الله ثم بعد الإصلاح الديني جاء عصر النهضة في القرن السادس عشر وكانت بداية القطعية بين الماضي والحاضر واللجوء إلى العلم والطبيعة باعتبارها المصدر الوحيد للمعرفة. ومع اكتشافات القرن السابع عشر تطورت مناهج البحث ووسائل المعرفة ونظرية المعرفة في ذاتها حيث لم يصبح الوحي طريقا إليها ولا الكتاب المقدس طريقا للعلم ولم يعد أمام الإنسان الغربي إلا الحواس والعقل وربما الوجدان فيما بعد عند الرومانسيين. فنظرية المعرفة الغربية تأسست بعد أن فقد هناك الغطاء النظري للوعي الأوروبي الذي قطع نفسه عن الماضي على عدة فترات وقطع نفسه عن كل المعارف المسبقة بعد أن اكتشف زيفها وتساقطها وتعارضها مع العلم والطبيعة والإنسان. انطلاق الجهد

الإنساني الخالص يعالج القضايا الأوروبيـة التـي أفرزهـا عصر التنوير والنهضة الصناعية والفكر الدرويني والماديـة الوضعية.. الخ ثم أزمة القرن العشرين أزمة كل المـدارس. في هذا السياق عندما أسمع عـن القطيعـة الابسـتمولوجية والتحديات النظرية يتملكني إحساس بالخشية أن تكونوا قـد وضعتم أنفسكم في تطور الوعي الأوربي بينما نحن خارجون عنه لأن الغطاء النظري للعالم بالنسبة لنا لم يسقط بعد. فأنـا عندما أريد أن أعرف مازالت نصـوص القـرآن وأقـوال الرسول والقدامى والغزالي وابن تيمية وابن رشد جزءا مـن طريق المعرفة. يعني مازال التراث بالنسبة لي مصدرا مـن مصادر المعرفة ولم تحدث قطيعة بيني وبينـه وبالتـالي لا توجد لدي نظرية للمعرفة بالمعنى الأوربي لأني لم أمر بعد بهذه المراحل. وأرجو أن لا يحدث ذلك لأنه ليس بالضرورة أن يكون نمط القطيعة مع الماضي هو نمط لكـل حضـارة ولكل شعب يريد أن يتقدم. نمطي هو الآتي وسأكون دقيقـا: أنا جزء من التاريخ وأنا حامل رسالة أربعة عشر قرنـا لأن المستشرق هو الذي ينظر إلى هذا التراث كما ينظـر إلـى التراث الهندي أو الصيني أو الفارسي باعتباره مادة علميـة

أما نحن فجزء من الموضوع نحن الذات والموضوع في وقت واحد. فعندما أدرس التراث أدرس أبي وجدي وروحي وجسمي وتاريخي وحاضري ومستقبلي. وبما أنى جزء منه ومسئول عنه لابد أن أعرف تماما في أي مرحلة من التاريخ أنا. لابد أن يكون في ذهني إحساس بالأربعة عشر قرنا فأعي أن في القرن الأول نشأت الحضارة الإسلامية وفي الثاني بدأت تتأصل ووصلت في القرن الرابع إلى أوجها ثم محنة الغزالي ومحنة العلوم العقلية على يديه ومحنة ابن رشد في القرن السادس وآخر صحوة عند ابن خلدون وابن تيمية في القرن الثامن. وفي أواخر القرن الثمانية انتهت الحضارة الإسلامية التي مازلنا معجبون بها. وفي القرون العاشر والحادي عشر والثاني عشر وهي الفترة التي استكانت فيها الحضارة الإسلامية ولم تعد قادرة على الإبداع فسميت بعصر الشروح والملخصات ثم كانت بداية عصر نهضة إسلامية جديدة مع محمد بن عبد الوهاب، والأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، والبنا وسيد قطب. إذن فنحن ورثنا هذا التيار كله ونعي أنه لم تحصل قطيعة وإنما حصل تواصل واستمرار.

سؤال: إذن ما العمل؟ وكيف يجب أن تكون علاقتنا بهذا التراث؟

د. حنفي: كل ما أستطيع أن أفعله هو الآتي: أن آخذ العلوم الإسلامية كما ورثتها وهي كالآتي: ثلاث شعب رئيسية:

١- العلوم النقلية.

٢- العلوم العقلية.

٣- العلوم النقلية -العقلية.

العلوم النقلية: وهي التي تعتمد على النقل فقط وتشمل خمس علوم: علوم القرآن، علوم الحديث، علوم التفسير، علوم السيرة وعلوم الفقه. ويعتمد كل منها على النقل والرواية. أما العلوم النقلية الخالصة فهي تمثل علوم الرياضة والطبيعة والفلك والهندسة والحساب. ثم العلوم العقلية النقلية وهي الأهم التي تجمع بين العقل والنقل مثل علم أصول الدين وأصول الفقه والحكمة وعلم الكلام وعلم التصوف الإلهى خاصة في فترته الأخيرة. وربما نضع بعض العلوم الإنسانية من علوم اللغة والتاريخ والجغرافيا والأدب. هذه هي صورة الحضارة الإسلامية التي ورثناها

كما ورث الغرب اليونان والرومان والعصر الوسيط والذي حاول أن يخلد نفسه بإحياء الرومان واليونان في القرن الرابع عشر (عصر الإحياء) فلم يفلح فحاول أن يصلح الدين في أواخر العصر الوسيط فلم ينجح فجاء عصر النهضة وقام بالقطع فنتج عصر إقامة النظريات.

أما أنا فالتحدي النظري الذي أعيشه هو في الحقيقة من باب الإشكال النظري وليس الإشكال الإشكالي. فأنا عندي ثلاث منظومات من العلوم فآخذها علما علما وأعيد تأسيسها في ضوء المتغيرات.

سؤال: لو ضربت لنا أمثلة حتى ندرك أبعاد ما تقول:

د. حنفى: لتأخذ مثلا علوم القرآن انطلاقا من كتاب "الاتقان في علوم القرآن" للسيوطي فسنجد علم المكي وعلم المدني وعلم الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وأول ما نزل منه وآخر ما نزل. ومسئوليتي أن أعيد بناء هذه العلوم لا أن أقطع معها لأنني مازلت أرى لها دلالة. فمثلا يعيب علينا الغرب ويتهمنا بأننا شعوب تعيش مع الخلود ولا تعرف معنى للتقدم ولا للزمان ولا للمراحل، ولا نعرف إلا السباحة

في الفناء والألوهيات إلى آخر الزمان . أما أنا فإني أجد في قضية الناسخ والمنسوخ أساسا لقضية الزمان: فهناك قانون ثم قانون ثم أهلية ثم قدرة وتغيير الأخف بالأثقل والأثقل بالأخف ونسخ بالقراءة ثم نسخ الحكم من القراءة ونسخ القراءة من الحكم، وبالتالي فقضية الناسخ والمنسوخ هي وجود الوحي داخل الزمان وداخل التاريخ ويعمل بسنن التقدم.

كما أجد في أسباب النزول أولوية الواقع على النص فالله سبحانه وتعالى لا يتكلم جزافا بلا سبب ولا مطلب فكانت الواقعة تقع ثم يتلوها الوحي. فالمنهج الإسلامي لا يبدأ بقال الله، قال الرسول، إنما يبدأ بالواقعة بطرح المشكلة وأن الواقع الاجتماعي يسبق الفكرة (نزول القرآن منجما). والمكي والمدني دلالته تتمثل في أن الآيات المكية تحتوي على التصور النظري للعالم في حين أن المدني هو القانون الذي خرج من ذاك التصور. إذن فالتصور الأسمى يجب أن يكون نظرية للكون وللحياة كما عبر عن ذلك سيد قطب ثم ينبثق عن ذلك التصور قانون وتشريع. فالأولوية إذن للتصور لا للقانون.

سؤال: وماذا ستصنع مع علم أصول الـدين (علـم الكلام. علم العقائد)؟.

د.حنفي: آخذ مثلا صفات الله المشـهورة: العلـم، القدرة وغيرها، وإذ دافع علماء الكـلام القـدامى عـن الله الموحد ونجحوا في ذلك ووصلوا إلى أن الله ذات لها صفات مطلقة العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام كما هو موجود في الكتب السلفية وكتب العقائد منـه "الفقـه الكبير" لأبي حنيفة حتى كتب العقائد التي تدرس بجامعاتنـا. لكن بالنسبة لي فإن المهم هو كيفية استعمال تصورنا لله فـي حاجات المسلمين. العلم مثلا صفة إلاهية، لكن الأمية متفشية عندنا فكيف يعقل أن نؤمن بالله عالم ونحن جهلة؟ فإذا أردنا أن نقول إن الله عالم كان لزاما علينا نشر العلم والقضاء على الجهل باسم الله. كذلك القدرة لله لكن المسلمين عاجزون بـلا قدرة فلابد أن يتشبه المسلمون بصفات الله. الحياة والمسلمون أموات! البصر والسمع والكلام والمسلمون لا يسـمعون ولا يبصرون ولا يتكلمون! ومن ثم لابد أن يتحول تصـورنا لله الذي ورثناه في علم العقائد إلى تصور حي في قلوبنا نسـمع ونتكلم ونبصر باسمه.

فعلم الكلام ليس علما مقدسا ولكنه نشأ في ظروف معينة. إذا تغيرت هذه الظروف تغير هذا العلم. فعدم إحساسي السياسي وعدم إدراكي لظروف العصر هو الذي جعلني أنقل العلم بمادته وظروفه القديمة دون أن أتفطن إلى الفارق بينها وبيني وبالتالي فإن هذه الصفات الإلهية التي قدسها المعتزلة والأشاعرة وغيرهم اعتبرها أهدافا وغايات اجتماعية وسياسية. فوفقا لهذه الصفات أعمل على تحقيق العلم، وأدعو الناس إلى الرؤية والسماع والقدرة وبالتالي أعمل من أجل حرية الفكر والقول والعمل والتجمع أي الديمقراطية ومن هنا فإن مهمتي في علم أصول الدين تتمثل في إعادة صياغة قضية علم التوحيد حتى أستطيع مواجهة الخطر الحالي. فأربط بين العقيدة والأرض وأجد في القرآن ما يحميني في مسألة نهب الأرض والثروات. هذا ما أعتقد أنه إحدى الوسائل التي بإمكاني استعمالها بالنسبة لعلم أصول الدين من الداخل وبالتالي فهناك تواصل في أداء المهام بيني وبين القدماء. هذه إذن محاولات أقوم بها لإعادة إحياء التراث القديم للدخول في مشاكل العصر لأتمكن من تقديم البديل الإسلامي الثوري المستنير الذي يستطيع أن يحرس

المسلمين من التيارات الرجعية أو من التيـارات العلمانيـة الحديثة.

سؤال: ألا ترى أن منهجك التأصيلي هذا قد يدخلنا في متاهات وإشكالات القرون الماضية ونحن في أشد الحاجة إلى الارتباط بواقعنا؟

د. حنفي: على العكس من ذلك فإعادة بناء التـراث تستهدف تحريك القوالب الذهنية للناس حتى نسـتطيع فـي الأخير أن نحمي الأمة وأن نحمي مصالحها ابتداء من إعادة بناء قيمها ومفاهيمها وتصوراتها. هذا هـو شـرط الثـورة الدائمة. فمهمتي أن أعيد التراث القديم لأجد بـدائل تقدميـة مكان البدائل السائدة. مثلا في علم أصـول الـدين سـادت الأشعرية قديما وهي التي دافعت عن التوحيد ولكن خطورتها أنها ازدوجت مع الدولة السنية وأصبحت أيديولوجية الدولـة في حين أن الاعتزال مثلا في علم أصول الدين يدعو إلى أن العقل أساس النقل، إلى أن الله واحد ليس كمثله شيء دون أن يشخص، وإلى أن الإنسان له ماض ومستقبل، وإلى أن العمل جزء من الإيمان. وكذلك في الفقه أعطـى الأولويـة للفقـه العملي الذي يقوم على المصالح العامة على الفقـه النظـري

الافتراضي. كذلك في الفلسفة لابد أن أظهر أهمية الفكر الاجتماعي والسياسي دون أن أرتبط بالضرورة بالتفكير الميتافيزيقي النظري. وأنا في كل ذلك لا أقلد أحدا من القدامى ولا من الغربيين والمحدثين ولكني أجتهد رأيي. عندي القرآن والسنة والإجماع والقياس وعندي المصالح العامة وعندي طرق الاستدلال وعندي شروط وهي أن لا أبغي هوى ولا أفتي لسلطان ولا أبغي مالا وأكون عالما بالشريعة وباللغة العربية وأدرك مصالح المسلمين وأبغي وجه الله. لذا فإنه من الضروري بالنسبة للحركات الإسلامية أن تكون واعية بأهمية المصطلحات والمناهج واللغة والقضايا المصيرية وأن تكون قادرة على الدخول في تحديات العصر. كذلك فإن كل مسألة نظرية عارية عن أي غاية عملية يكون وضعها في أصول الفقه ضمن الأوهام. ومن ثم فأنا ألجأ كثيرا إلى النواحي العملية في الإسلام وقد أبدأ بالاجتهاد مباشرة. خذ مثلا قضية العدالة الاجتماعية وتوزيع الثروة فأنا لا أحتاج أن أبحث مباشرة في القرآن عن نص وإن لم أجد أتجه إلى السنة ثم... الخ. ففي تقديري هناك واقع ومصالح مرسلة وبالتالي أنا أقلب هذه الأدلة فأبدأ

بالاجتهاد وبالرؤية المباشرة وبالواقع فإن لم أجد ضالتي علي بالإجماع: إجماع الناس والقرآن سيكون معـي. الإحسـاس بالناس وبالواقع والملابسات والتاريخ هي التي تجعلني قادرا على أن أعيد بناء علم أصول الفقه حتى أعطي للناس الجرأة على الاجتهاد والتشريع.

(جـ) العلمانية والفكر الانقلابي وتحديات العصر:

* العلمانية خطأ استوردته النخبة مسقطة أسبابه في أوربا.

* الفكر الانقلابي غريب عن الإسلام.

* سبع قضايا تتحدى الأمة، والإسلام قـادر علـى مواجهتها.

سؤال: الحركات الإسلامية الآن التـي تحـاول أن تخرج بالأمة من واقعها الراهن فيها تيارات تعبر عن الواقع الإسلامي، بما يعرف اليوم بـ" الصحوة الإسـلامية"، هـذه التيارات تضم مساحة واسعة من مجموعات تكفر المجتمـع، وترى الثورة على هذا المجتمع، وتيارات ترتبط بالسلف، إلى جانب آراء الذين يؤمنون بضرورة التطور من البداية. هـذه الهوة الكبيرة بين المواقف، نحب أن نسمع رأى الأستاذ حنفي فيها؟

جواب –أشكر الأخوة في جريدة "الرأي" على هـذه الثقة التي أولوني إياها. ونحن نعرف أن الصحافة العربيـة

منذ نشأتها كانت صحافة "رأي" وحتى لفظ "الرأي" لفظ جيد، والرأي أحد الألفاظ القديمة في علم أصول الفقه. *

ويفرقون بين "الرأي" والهوى، فالهوى هو الـرأي الخاص الذي لا يبغي الحق، في حين أن"الرأي" هو الـرأي الذي يبغي صاحبه الحق، ولذا فإنني أرجو لهـذه النـدوة أن تكون تحقيقا "للرأي" بالمعنى الإسلامي، الذي لا يخشى فـي الحق لومة لائم. أقول إذن إننا نرجو من هذا الحوار ما ينفع الناس جميعا، ربما تعليقا على سؤالك قبل أن نبدأ أقـول إن هناك تيارين، تيار يكفر، وهو تيار بعيد عن السلف، وهنـاك تيار السلف. ربما أهم شيء فـي التعامـل مـع الحركـات

---

* ندوة فكرية في جريدة "الرأي" الأردنية، ١٩٨٤/٣/٢٩ وقد صدرت الجريدة الندوة بالفقرة الآتية:

نظمت "الرأي" ندوة فكرية للأستاذ الدكتور حسن حنفي أستاذ بقسم الفلسفة في جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس بالمغرب، شارك فيها السيد كامل الشريف، والـدكتور عبد السلام العبادي وكيل وزارة الأوقاف، وعدد من الزملاء في "الرأي". وأدار الندوة السيد جمعة حماد، المدير العام لـ "الرأي"، وعلى مدار السـاعة، تحـدث المفكـر الإسلامي الدكتور حسن حنفي في هموم الأمة الإسلامية، وتناول بالشرح والتفصـيل الأوضاع الراهنة للحركات الإسلامية بجميع ملامحها واتجاهاتها، وتناولـت النـدوة بواعث الحركات الإسلامية المتطرفة، والعلاقة بين الجماهير والحكام. قضايا كثيرة، من التراث والواقع، والتغريب والهوية. كانت في ندوة "الرأى" التـي تحـدث فيهـا الدكتور حسن حنفي.

الإسلامية، وهو فهم ظروفها: فهم أبناؤنا وأخوتنا، وهم أقرب إلى قلوبنا!"السلف القـدماء" كـانوا منتصـرين، حضـارتنا الإسلامية، كانت حضارة منتصرة وفاتحة، والبلاد مفتوحـة، والعقول مفتوحة ولهذا فإن أهل السلف، كانوا يدافعون عـن الإسلام من منطلق المنتصر الصحيح، كما يفعل الغرب الآن حين يتعامل معنا.

لكن الحركة الإسلامية الحالية، ليست كذلك، تعيش في مجتمع متخلف، ومهـزوم وتقـع عليهـا ألـوان مـن الاضطهاد. ولذلك علينا أن نأخذ هذه الظروف في الاعتبار، وهناك الكثيـر، ممـا يقولـون، فـي عقائـدهم، وآرائهـم وممارساتهم، يرجع إلـى هـذا الاخـتلاف فـي الظـرف التاريخي، بين السلف وبين الخلف، وأرجو أن تأخـذ هـذا بالاعتبار.

سؤال: كيف يمكن أن تبلور نظرية موجودة من هذا التراث بحيث يناسب العصر الذي نعيش وكيـف يمكـن أن نجمع الأنصار لمثل هذه النظرية؟؟

جواب: عندما نتحدث عن الإسلام فإننا لا نتحـدث عن الأصول الإسلامية وهي القرآن والسـنة، أي الـوحي،

فالوحي "كلنا لرسول الله منتسب" ومـن ثـم يهمنـا نحـن "التراث"، أي كل اجتهادات القدماء والمحـدثين لفهـم هـذا الوحي كل طبقا لظروفه. التراث متعـدد، وبـه نظريـات متضاربة، ونشـأ التـراث الكلامـي الفلسـفي، الصـوفي، والفقهي،... الخ، كل جانـب يخـدم قضـية، أو فرقـة، أو مصلحة، فهي الصورة النظرية لتـاريخ الإسـلام السياسـي والاقتصادي والاجتماعي، وذلك دارج، وفي كل حضـارة. لكن المهم أن نعرف، أن التراث القديم فيه فرق عديدة، لتأخذ مثلا علم الكلام، حيث ساد في علم الكلام تيار يخدم استقرار الدولة، وهو"التيار الأشعري"، ليقف في وجه الفرق السياسية المعارضة لاستقرار الدولة، واستمرار النظام.

أقول إذن التراث متعدد، طبقا للمواقع السياسية التي فيها كل فرقة، وكل مذهب، وفق المواقع السياسية والمصلحة الاجتماعية، ويسهل علي أن أدرك أين مصالح الأمة بعامـة، وليس مصالح فئة أو طبقة دون غيرها، وبأي نظرية يمكـن أن أحقق بها هذه المصالح؟ مثلا. إذا كنا نعاني مـن غيـاب العقل والموضوعية وغياب نوع من الحريات وغياب العدالة الاجتماعيـة، وقضـايا تحريـر الأرض، قضـايا الهويـة

والتغريب، قضايا سلبية الجماهير... وهذا مثال أمامنا مـن ٣,٥ مليون صهيوني يقفون وقفة ثبات، وقوة وغـزو، فـي وجه ٨٠٠ مليون مسلم ولا نعمـل شـيئا، أقـول إذن هـذه تحديات رئيسية، ولدينا خزائن قديمة فيها كل شيء، وهنـاك قضايا عصرية ملحة، ودوري أنا –كمفكر إسلامي– أن آخذ من الكنز الأول ما يساعدني على التحدي في هذه القضـية، ولهذا إذا كانت القضية مثلا قضية انحسار العقل، ولابد مـن إعمال العقل في هذه المرحلة، فإن بالإمكان الانتقاء من هـذا المخزن الذي بحوزتي، بما يتفق مع العلـم والموضـوعية، ومن ثم أدعو إلى الاعتزال واعتزال الرأي، كما فعل محمـد عبده في رسالة التوحيد، نحى منحى اعتزاليـا، ويقـول إن الإسلام قد انتشر في التاريخ، وأن المستقبل له، وليس فقـط أنه انتصر في التاريخ. إذا كنت بحاجة إلى الفقه والتشـريع، وكلنا نود تشريعا ومجتمعات إسلامية فالذي يسـاعدني فـي التشريع، هو المخزون القديم. فلا آخذ جوانب فقهيـة تقـدم النص على المصلحة، أو تدخل في فقه افتراضي. كما كـان يقال قديما"ما قيمة وصية يكتبها رجل بين أنياب الأسد؟!" هل تجوز أو لا تجوز! ولكن أركز على أصول الفقه التي أخذت

مصالح المسلمين عامة وعالجتها وما رآه المسلمون حسنا فهو حسن، ولا ضرر ولا ضرار. وهذا يساعدني على الدخول في العصر والإجابة على تحدياته. أقول إذن انتقي من القديم ما يساعدني على تحديات العصر، ويدخلني فيها. وإذا لم أجد في القديم أجتهد، أنتقي من هذا الكل غير المتجانس ما يساعدني على الدخول في القضايا الرئيسية، وهذا مطلب رئيسي شرعي، فنحن مجتمع تراثي، الماضي في قلوبنا، نحن لسنا مجتمعا علمانيا، فالعلمانية قضية محصورة في عقول المفكرين، ولكن الشعوب كلها مازالت تقول "الله أكبر"، وهذا شيء يجب الاعتراف به، ولذلك فلا تقدم "بعلمانية" ولا تقدم أيضا "بالمخزون غير المتجانس". فقد آخذ شيئا يضرني، ولهذا فهناك عملية قام بها الفقهاء القدامى، وعلى المفكرين المحدثين أن يفعلوا كذلك. نفس القضية، وهى، كيف أستطيع أن أحقق تطور هذه الأمة وليس ثباتها، دون أن أفقد تجانسها في الزمان، وحتى لا أكرر مأساة تركيا التي انفصلت عن الماضي، فلم يشفع لها الحاضر بشيء!!

سؤال: أشرت إلى مسلمات الأمة، وقلت إن الإسلام تريده هذه الأمة، وأن العلمانية، أمر عارض. لكن

التناقض الرئيسي الذي يكشفه التعبير أننا نرى أن الذي يسود في المنطقة العربية، والإسلامية، على مستوى التخطيط، هو العلمانية وليس الإسلام، وأن ما لدى الشعوب مـن أشـواق وطموح، يواجه بمواقف مختلفة، من الطبقات المفكرة، إمـا بالحوار، وإما بالكبت، وإما بالتجاهل، وهذا يصور أن الرحلة ليست سهلة باتجاه الإسلام، وأنه بالقدر الذي يوجد فيه رغبة في الإسلام بنفس القدر هناك رفض له، وهذا الرفض يدعمه نفوذ دولي كبير في المنطقة. وأننـا مجتمـع يعـاني مـن الاختراق منذ مئات السنين ربما، وأن الهدف من الاختـراق نفسه، هو الحيلولة دون نجاح النظـرة الإسـلامية، وهـذا الاختراق له جنوده في بلادنا. كيف يمكـن أن نصـل إلـى معادلة للتوفيق بين هذه الاتجاهات المتناقضة؟؟

جواب: هذا صحيح، وأنت على حق في أن المقدمة العامة في هذه الندوة كانت بحاجـة إلـى تخصـيص وأن السؤال وضعنا أمام قضية جوهرية خاصة أساسـية، فربمـا نبدو أننا مختلفون في المظهر لكننا متفقون فـي الجـوهر. وانطباعي عبر دراسات أجريتها، والعديـد مـن الـزملاء "المهمومين"، بقضايا الأمة، في هذا الموضوع، تؤكد على أن

العلمانية، كانت اختيار النخبة، النخبة المثقفة القائدة، والتـي أتيح لها ظروف التعلم، لكن الجماهير ليست كذلك، وربمـا هذه واحدة من تناقضاتنا في هذا العهـد، فالنخبـة تطالـب بالعلمنة، والجماهير متمسكة بالإسلام، كذلك فإن جيلنا، قـد شاهد عدة تجارب، من القومية، والاشـتراكية، لكـن هـذه التجارب، لم تزل بعيدة عن قلب الجماهير وروحها، وأنه في الوقت الذي تقوم فيه حركة إسلامية مستنيرة فربمـا تكـون أكثر قدرة على الالتحام بالجماهير.

سؤال: لكن هل يعني هذا أن هناك تعارضـا بـين الإسلام والعلمانية؟ وماذا تعني العلمانية؟!

الجواب: العلمانية في الغرب، إنما تعنى ما يسـمى بفصل الكنيسة عن الدولة، والدين لله والوطن للجميع، هـذه ظروف الغرب، حينما حاولت الكنيسة أن تسيطر على الدولة وسببت أضرارا، وهذه ليست قضية عندنا، فليس لدينا رجال دين وإكليروس، فكل منا مسلم، يصلي إلى الله مباشرة. ولهذا فالمشكلة الأوروبية، لا توجد عندنا؛ لأن إسلامنا علماني، فلا تعارض بين الإسلام والعلمانية على مستوى ديـن العقـل، ولهذا فإن العلمانية بالمعنى الغربي، تتطابق مع الإسلام؛ لأن

الإسلام والعقل شيء واحد؛ لأن الله سـخر لنـا الطبيعـة، والإسلام البحث العلمي. بينما في الغرب، تعنـي العلمانيـة، فصل الدين عن الدولة، لكن بالنسبة لنا لم يحدث في تاريخنا أن نشأت سلطة دينية معارضة لسلطة سياسية، كما حدث في الغرب، حدث ربما في تاريخنا القديم أن اسـتعملت بعـض العقائد والمذاهب السياسية ضد الاكتشافات العلمية، لكن كـل العلوم العقلية، في تاريخنـا، ابـن الهيـثم، والخـوارزمي والطوسي، اكتشفوا علوم الرياضة، بفضل علـم التوحيـد، وعقلية التوحيد، نشأ علم النحو، بفضل الإسـلام فالإسـلام بطبيعته، دين العقل. والغرب يريد أن يظهر إبداعاته العلمية، على أنه له وحده، وربما كل إصلاحات الغرب لها رصيدها من عندنا في عصر الترجمة، وكان المفكر الغربي العلمـي، متهم بأنه نصير للإسلام، ويضطهدونه ولكنه انتصـر فـي النهاية على الكنيسة، وعلمانية الغرب فـي رأيـي، كانـت تطويرا للنزعة الفلسفية الكلامية عندنا. فحينما أدعـو إلـى العلمانية بمفهومها الغربي، فإنني أبتعد عن الناس، لكن حين أدعو للعلمانية باعتبارها جوهر الإسلام، وأن العقل والفكـر شيء واحد، وكما يقول ابن تيمية، "موافقة صحيح المنقـول

لصريح المعقول"، وأن الذي يشكك في العقـل يشـكك فـي النقل، والدين وسيلة والصلاح في الدنيا غاية، فإنني لا أبتعد عن سواء السبيل.

سؤال: هل المقصود أن نتحاور في قضية الإسـلام هو البديل الحضاري لهذه الأمة، أم أن المطروح هو مشكلة الحركات الإسلامية وما يعتريها من معانـاة ومشـاكل؟ مـا تفضلت به حول ما جرى في الغرب. وهو حـل مشـكلات الغرب خارج إطار الدين، وبالتالي تطورت نظرية الإصلاح الاجتماعي، وأعقبه الغزو الغربي لأمتنا، ولذلك تسرب إلـى أذهان مفكرينا أننا يجب أن نحذو حذو الغرب في العلمانيـة، كي نتخلص من مشاكلنا، وهذه النخبة من المفكرين، لم تـتح لهم فرصة التعرف على الإسلام. إذن التحدي الذي يواجـه المفكر الإسلامي هو: كيف يقدم الإسلام لهذه النخبة التي لـم تتطلع عليه بسبب ظروف هذه الأمة؟؟

جواب: أنا مع الأخ الدكتور، ربما ركزت أنا على الجماهير، وأنت ركزت على القيادة، وكلاهما، مهم. لكننـي ركزت على الجماهير بسبب أن جيلنا، عاش تجربة التغيرات الاجتماعية، المفروضة من القيادة وكانت الجماهير بمعـزل

عنها. وتركيزي على الجماهير بحيث يكون هناك نوع من الرقابة على القيادة، وعندما أقول رغبات الجماهير، لا أعني الرغبات الشخصية، بل المصالح العامة، مصالح الأمة. ولابد أن يكون هناك رقابة عامة على القيادة، حتى لا تغير رأيها نظرا للظروف، بحيث تشعر هذه القيادة بأنها ملتزمة، وهذه هي قضية الديمقراطية في جوهرها، أن تكون القيادة معبرة عن مصالح الأمة، ومن ثم فكلاهما مهم، كذلك فإن أهمية مراقبة الجماهير، ومراقبة أهل الحل والعقد، أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهمية الحسبة، أهمية الدين النصيحة، أهمية استقلال القضاء، بالرغم من أن قاضي القضاة، يعينه الحاكم، إلا أنه لا يحق له أن يعزله، وأن قاضي القضاة، يستطيع أن يعطي "فتوى" يعزل فيها الحاكم، وهذا معروف بالنظم القضائية والأحكام السلطانية. وكما ركزت على الجماهير، ودورها فذلك خشية أن تعطينا القيادة تفسيرا للإسلام وتقول هذا هو الإسلام الصحيح، ويكون مضادا للمصالح العامة، والشواهد على هذا كثيرة، وربما الاشتراك مع القيادة، من أهل العقد والحل، يساعد على فهم

الإسلام من الناس فهما صحيحا، حتى لا تتـدخل الأهـواء والرغبات.

وهنا أقول إن مصالح المسلمين فوق الجميـع، ولا أريد أن يكون الفقهاء بعيدين عن الواقع، كمـا حـدث فـي بيزنطة، أيام كان يحاصرها محمد الفاتح، وهم يتناقشون في العلاقة بين الله والابن والروح القدس. أي علينا أن ندافع عن مصالح الناس، ونحن لسنا علماء أصول دين، ولكننا علمـاء أصول فقه، أي يتصدى الفقهاء للمصالح العامة، وبالتـالي، أرصد ما هي القضايا الجوهرية التـي علـى الإسـلام أن يجابهها حتى لا أتهم أنني فقط ذو لحية، وذو مسبحة، وأنني أدعو إلى الحجاب، وأنني أريد قطع يـد السـارق، ورجـم الزاني.. والخ من مجموع الدعاية المضللة التي تقـال فـي الحكم الإسلامي، كلمات حق يراد بها باطل.

وهناك سبع قضايا تمثل تحديات الأمة وهي:

أولا: قضية تحرير الأرض، هذه القضية الهامـة، حتى عند الفقهاء القدامى نالت الاهتمام الخاص، ففي الفقـه الحنفي، لا تجوز الصلاة، "في الدار المغصوبة" لأن تحريـر الدار سابق على الصلاة فيها.. أي أن قضايا الجهاد وتحرير

الأرض أمر إلهي، وهو أصل من أصول الإسلام، ولهذا فالإسلام يدعونا إلى تحرير الأرض.

ثانيا: قضايا العدالة الاجتماعية، الكنائس المسيحية في العالم الغربي توزع الخبز على فقراء المسلمين في تشاد، والهند، هناك قضية رئيسية في المجتمعات الإسلامية، وهي أن الثروة في أيدي البعض، غنى، فوق غنى، فوق غنى، وفقر فوق فقر، فوق فقر، وهذا لا يرضاه أحد، والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم. قيل يا رسول الله أهي الزكاة؟؟.. قال في المال حق غير الزكاة. وهذه قضية لا أستطيع التخلي عنها، وإلا فتكون أفكار كثيرة قد سبقتني إلى العدالة، وأخسر أنا ديني، وجماهيري وأمتي، وأساعدهم على الذهاب إلى من يغني على هذه النغمة وأنا أولى بها.

ثالثا: قضايا الحريات، الاجتهاد مفتوح للجميع، والدين النصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، وقول الحق في وجه إمام جائر شهادة عند الله كما نعلم، فأنا لا أخشى أحدا، ولا أنضم إلى حزب تحت الأرض، وأن يكون للمسلمين منبرهم يعبرون عن آرائهم، أي نعطي للماركسيين "جريدة" والقوميين جريدة ونحرم المسلمين

حريتهم ليقولوا كلمتهم في قضايا الأمة وبصراحة، ما رأيهم في الزراعة والسياسة، والصناعة، والتجارة.. الخ.

ابن حزم يقول الأرض لمن يزرعها، أي يفلحهـا، إلى أي حد هذا صحيح؟ وهناك اجتهادات رائعـة "ليوسـف القرضاوي" في الملكية وتوزيع الثـورة وغيرهـا، فقضـية توزيع الثورة في العالم العربي الإسلامي قضية هامة، فنحن أمة، يضرب بها المثل بأعلى درجات غناها، وأشنع درجات فقرها، وهذا لا يرضاه الله ولا الرسول ولا الخلفاء.

رابعا: قضايا الوحدة والتجزئة: نحن أمة واحـدة، إلهكم إله واحد، وأنا ربكم فاعبدون، وانظر إلى هذا التشتت، وكأننا نطبق شعار الاستعمار (فرق تسد) ولا يعقل أن يكون هذا الانفصال وهذه الدماء في أمة واحدة.

خامسا: قضايا الهوية والتغريب: ولا يعقل أن نكون في حياتنا، وسلوكنا، وتصوراتنا باستمرار الشخص"الآخـر" الذي يعيش فينا، إذا أردت أن أفعل أقلد في بنـاء المطـار، والمستشفى وطريقة التفكير.. وكأنني أصبحت عاجزا ولهـذا فإن قضايا الهوية، والتأكيد على الهوية قضية أساسية، حتـى لا تحدث انفجارات، هل أنا ضد"الآخر"، كمـا حـدث فـي

إيران؟! وقد تكون الحركة الإسلامية معذورة فـي التمسـك بالعادات الإسلامية حتى بأشكالها، لمواجهة أنماط التغريـب المفروضة. لقد درست في الولايات المتحدة أربع سـنوات، وكنت أدرس تطوعا خارج الجامعة للأخوة المسـلمين فـي أمريكا من أصل أفريقي، كنت أدرس لهم اللغـة العربيـة، والقرآن الكريم، فنصحني أخوة لي سبقوني من انتقاد السبحة، واللحية، وذبح الكبش في الأعياد، ولبس الطربوش الأحمـر، قالوا لي إياك أن تنتقد هذه المسائل، لأن هـؤلاء المسـلمين يواجهون عنصرية بغيضة، ويقاومون "الآخـر؟. فالإسـلام يعطيه هوية، وهذه الشعائر، تعزز موقفه في مقاومة "الآخر".

سادسا: قضية التقدم والتخلف: أنا غير مستعد على الإطلاق أن يتهمني الآخرون بالرجعية لأنني مسلم؛ لأننـي لست رجعيا. فاسمع ما يقول عمر: "والله لو عثرت بقـرة أو بغلة في العراق.. "الخ، ولكننا الآن كشعوب بأكملها نعثر كل يوم في مخيماتنا وقرانا، ومدننا، وبالتالي فإن قضايا التقـدم والتخلف، يجب أن نتبناها بصياغة إسلامية.

سابعا: مشاركة الأمة، وتجنيد جماهيرها: فـالمرء بمفرده لا يستطيع أن يفعـل شـيئا، وبالتـالي أنـا بحاجـة

للجماهير، وتجنيدها، ووضعها، ضمن برنامج، وكما خاطب الأفغاني المسلمين. والله لو كنتم ذبابا، أو جرادا، وحططـتم على الجزيرة البريطانية، لأغرقتموها!! لماذا لم يتحول هـذا الكم إلى كيف؟؟ وكيف أحوله؟

سؤال: أنت تحدثت عن برنامج، لكن كيـف يـتم تنظيم هذه الجماهير، تجاه قضية فكرية واحدة، وبشكل منظم، وهذا هو التحدي الكبير الذي يواجهنا، والنقاط السـبع التـي أثرتها قضايا مطروحة كشعارات، لكن كيـف أحقـق هـذه الشعارات؟؟ إن كل الذين طالبوا بهذا انتهوا إلى هذه"الحيرة"، وانتهوا إلى العنف مثل "التكفيـر والهجـرة" وغيرهـا مـن حركات، لكن كيف أطبق برنامجا إسلاميا شاملا؟؟، وما هو بديل التكفير والهجرة مثلا؟!

جواب: القضية المطروحة، قضية هامة وخطيـرة، وهي ما هي وسائل تحقيق هذا البرنامج؟ وأريد أن أبدأ مـن الخاص، قبل العام. وهو قضـية التكفيـر والهجـرة. هـذه الجماعة أنا أعرفها، وفيهم من طلبني، وأحاورهم دائمـا! لا نستطيع أن نتكلم عن جماعة التكفير والهجرة، بدون استعمال منهج التحليل النفسي والاجتمـاعي. هـؤلاء النـاس، نشـأ

تفكيرهم في السجن، وهم في زنزاناتهم في أوائل السبعينات، وكانوا يحاولون الإجابة على سؤال ما الذي حدث في حركة الأخوان المسلمين، وهل حدث خطأ، في الصدام بينهم وبـين الثورة؟ وكان كل ذلك يجرى تحت أسواط التعذيب، وبالتالي فهناك ظرف نفسي اجتماعي، أي نقاش عن انهيـار أكبـر حركة إسلامية، ربما شهدها الإسلام المعاصر، والتي كانـت وريثة لحسن البنا، ورشيد رضا. وانهار أمل الوصول إلـى الحكم الإسلامي باصطدامهم مع الضباط الأحرار. ولنتصور، وأنا أفكر تحت التعذيب، مخلوع الأظافر، محروق الظهـر، وأنا بريء!! حتما سأتطرف.. واستشهد عبد القادر عـودة، وسيد قطب، أكبر كاتب مقروء، ومهما أكتب أنا الآن، فإنهم سيقرأون سيد قطب، ولا يقرأونني؛ لأنه يعبر عـن ظـرف القهر والكبت. ولهذا كانت جماعة التكفير، من أنصار الرأي الواحد، والفكر الواحد، مع العلم أن الإسلام يجيز الخـلاف، ولهذا مطلوب من المسلمين بجميـع فـرقهم أن يتحـاوروا، وإعطاء نوع جديد من التفكير، يقوم علـى احتـرام الـرأي الآخر. وأنا ضد أي حركة سرية؛ لأن الحق ليس سريا؛ لأن عيون السلطة أقوى من سرية أية حركـة، وبالتـالي فـإن

الحركة الإسلامية تصبح حركة تآمرية، كذلك فإن الحركات العلنية المسلحة حركات خاطئة، ولا أرفع السلاح على أحد على الإطلاق، ومادامت الأمة تقول لا اله إلا الله لا يجوز محاربتها، والصحيح، أن ما ضاع شيئا فشيئا، لابد أن يعود شيئا فشيئا. والحاكم حين يشعر أن كلمة الحق قوية، لابد أن يقبل بها، وإذا لم يعطنا الحاكم القدوة، نعطيه نحن القدوة، وهذه معركة طويلة، وليست سهلة، ونريد أن ننزع عن الإسلام الفكرة التي ألصقت به، وهو خروج وتكفير، وحرب، وقنابل، ومتفجرات، وأنا أدعو من أصحابي إلى الدعوة الإسلامية الشاملة، والتآلف بين القلوب.

سؤال: قلت إن سبب خروج جماعة التكفير والهجرة، هو مناخ التعذيب، والتعذيب ليس هواية من هوايات الحاكم الذي عذبهم، ولكن وسيلة من وسائل كبتهم، إذن هناك سبب قبل التعذيب، وهو التناقض. التناقض بين النخبة الرافضة للإسلام، ومحكومة بفهم قاصر للإسلام، ومحكومة باعتبارات كثيرة، يقابلها حركة إسلامية، مفادها أن هذا الحكم غير إسلامي ويجب محاربته، وبالتالي يقع

الصدام، وهنا الإشكال؛ لأن التناقض مركزي. كيف يمكن حل هذا التناقض؟؟

جواب: أساس هذا التناقض، كما ذكرت الظروف النفسية، التي ظهرت فيها هذه الجماعة، هذه الجماعة التي تتلمذت على المرحوم سيد قطب، وخاصة كتاب معالم في الطريق، الذي حدد فيه استحالة اللقاء بين الحق والباطل، وكتاب معالم في الطريق، وضع في السجن. وماذا يقول معالم في الطريق؟؟ يقول العالم إيمان وكفر، أبيض وأسود، وأنه لا توجد مصالحة بين الطاغوت، والحرية، ولابد من القلب الشامل للأوضاع على يد الجيل القرآني. وأعتقد أن هذا الفكر سيظل مؤثرا في مصير الجماعات الإسلامية طالما ظلت مضطهدة. وقد تكون دعوتي لحرية التعبير، واحدة من الأسباب التي تخفف من هذا الاتجاه الذي تبناه الشهيد سيد قطب في ظروف خاصة، ولا نستطيع أن نقول الآن، باستحالة اللقاء بين الطاغوت والحرية، لأن هناك درجات، مثلا، كل من يريد أن يساعد على الحرية فأنا معه، كل من يريد إيقاف نهب الثروات أنا معه، كل من يدعو إلى وحدة الأمة فأنا معه، وبالتالي، فالإصلاح ليس هو المهادنة، ولكن

الإصلاح، في أن ما هو قائم يمكن إصلاحه، ولا يكفر لأننا أرسلنا هداة أولا.. هناك وعي تاريخي ضروري للحركة الإسلامية، لو قفزت على المستقبل أكون كالماركسي الذي يريد أن يبني مجتمعا طوباويا، أي الإحساس بالحاضر، وأن التاريخ له مراحل. وأن كل محاولة للاقتراب من الهدف هي محاولة إسلامية إذ كيف أستطيع أن أهدم السلم الذي عليه سأصعد؟! وهذه المرحلية، هذه الإصلاحية هي التي اعتمدها حسن البنا في الأربعينات، حتى يأتي الإسلام محمولا على الأعناق، ولا نريد للإسلام أن يأتي حكما انقلابيا، أريد أن يأتي محمولا على الأعناق ويطالب به الناس.

سؤال: يبدو أننا نبالغ في حركة التكفير والهجرة، ويبدو أننا وقعنا في فخ أعداء الإسلام، الذين نفخوا في أهداف التكفير والهجرة، بقصد الإساءة للإسلام، وكأن الإسلام هو هكذا دموي، وقمعي، والمطلوب الآن من المفكرين المسلمين، وضع هذه القضية في إطارها الصحيح، وأن نطرح الإسلام الصحيح، كي يفهم على حقيقته. كيف نستطيع أن ننقل قناعاتنا العقلية الإسلامية لأجيال شبابنا.

وللأمم الأخرى أي عملية النصح الضاغط، وتلوين المجتمع باللون الإسلامي؟

جـواب: تأكيـدا للحـديث، تصـوروا أنـه فـي محاكمة"شكري مصطفى ورفاقه"، قال أريد أن أطلب شـيئا واحدا، ثم اقتلوني بعده، وهو:"انشروا كتاب الخلافة قبـل أن أموت"!! ورفض له هذا المطلب، أنا قـرأت هـذا الكتـاب مخطوطا، وأعطته لـي"المباحـث العامـة" لمـدة سـاعة، وكأنه"حشيش"، ولو أنه نشر لكان كتابا عاديـا، لكـن هـذه صورة من صور القمع. شكري مصطفى طالـب أن يـأتي رجال الأزهر ليناقشهم فيما يقول، رفـض طلبـه أيضـا!! تصوروا أن القاضي الذي حاكم شكري مصطفى تنازل عن القضاء بعد المحاكمة، ورفض القضاء، والآن تصوف واتجه للإسلام. المحامون الذين ترافعوا في قضية جماعة الجهـاد بدأوا اعتناق الفكرة الإسلامية، من صدق هـؤلاء الشـباب، وراء القضبان. ولهذا فإن حرية التعبير قضية أساسـية فـي التخفيف من ردة فعل الشباب الذي ذهب باتجاه التطرف وإذا كنا نسمح للمراكز الثقافية في بلادنا، شرقية وغربية، لماذا لا نسمح بمراكز ثقافية إسلامية؟! والإسلام روح الأمة، وتراثها

وتاريخها، وهو الشرع. والمطلوب، إيجاد تنظيم عام يلتقـي فيه المسلمون على شعار العروة الوثقى، والله ولى التوفيق.

(د) المرأة العربية محرومة من حقوقها كمسلمة:

*تعدد الزوجات يتطلب العدل في العواطف وهـذا مستحيل.

*القضية ليست حقوق فالرجل بلا حقوق أيضا.

تشغل قضايا المرأة تفكير الكثيرين فنسمع أصـواتا ترتفع تارة تؤيد وأخرى تعارض وكل له حججه وبراهينـه. وإذا كانت المرأة الأوروبية قد وجدت في ظـروف تفـرض عليها أن تصارع لتنال بعض حقوقها * المسلوبة، فإن المرأة

---

* زهرة الخليج ١٩٨٥/٦/١٥ أجرى الحوار بمدينة العين انشـراح الجـداوي وقـد صدرته بالفقرة الآتية.

الحديث عن حقوق المرأة المسلمة التي اعترف بها وشرعها لها ديننا الحنيـف لـن يتوقف، ما دام هناك نساء مسلمات مؤمنات بهذه الحقوق، ومـا دام هنـاك رجـال مسلمون يعترفون بهذه الحقوق ويفهمون الروح السمحة لشريعة الإسلام..

وهذا الحديث يكتسب بعدا جديدا وأهمية خاصة إذا كان طرفا فيه واحد مـن أبـرز المفكرين العرب الذين طرحوا قضية الأصالة والمعاصرة في فكرنا الحديث، انحازوا بلا تعصب إلى الأصالة متمثلة في الفكر الإسلامي، شريطة أن يحكمنا العقل وروح الإسلام الثورية الوثابة التي تؤمن بقيمة الإنسان وحريته وحقه في تقريـر مصـيره سواء كان رجلا أو امرأة.. وليس أدل على ذلك من إقرار الدين لحق الفتاة في اختيار شريك حياتها مثلا.. إنه المفكر العربي المصري الدكتور/ حسن حنفي أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة.. والأستاذ الزائر بجامعة طوكيو في اليابان والأستاذ الزائر بجامعة الإمارات حاليا..

العربية المسلمة أمامها سياج يحميها من ذلك، فالقرآن الكريم يعطيها كثيرا من الحقوق ولو حرصنا على تطبيقها لأصبحت المرأة المسلمة على غير ما هي عليـه الآن.. لقـد كرمهـا الإسلام خارج وداخل بيتها، وحفظ لها حقوقها وكرامتها بـل وعمل على رفع شخصيتها المعنوية مـن خـلال الخطـاب القرآني نفسه، والمرأة المسلمة التي تخـاف الله فـي دينهـا

ثم قامت بالتعريف الآتي:

من هو الدكتور حسن حنفي؟

من مواليد القاهرة سنة ١٩٣٥.. تخرج من جامعة القاهرة سنة ١٩٥٦، وحصل على الدكتوراه في الفلسفة من فرنسا سنة ١٩٦٦ ثم عين أستاذا زائرا بجامعة تمبل بأمريكا وفي جامعة طوكيو باليابان.. كما قام بتأسـيس الدراسـات العليـا بجامعـة فـاس بالمغرب.. وهو الآن أستاذ زائر بجامعة الإمارات..

أهم مؤلفاته:

بالفرنسية: مناهج التفسير- ظاهريات التفسير. أي كيف يفسـر الـنص (القـانوني، الديني، الأدبي، الفنون الشعبية، الحكم والأمثال).

بالإنجليزية: الدين والثورة، والدين والتنوير، الدين والتفسير الاجتماعي. أما بالعربية فقد عمل في حقلين هما:

الترجمة: رسالة في اللاهوت السياسية (لاسبينوزا)- تربية الجنس البشرى (للسنج)- تعالى الأنا موجود (لسارتر).

المؤلفات العربية: قضايا معاصرة (كيف يمكن تجاوز الهزيمـة)- الثقافـة الوطنيـة واليسار الديني- التراث والتجديد (كيف تنهض الحضارة الإسلامية)- الكبيـر (مـن العقيدة إلى الثورة) إعادة بناء التوحيد- والآن أعيد بناء علوم الحكمة القديمة..

الحالة الاجتماعية: متزوج وله ثلاثة أبناء وأسرته تقيم الآن باليابان.

ودنياها تعتبر قدوة للمرأة في العالم وإذا كان هنـاك بعـض الحدود التي وضعها الإسلام فلا شك أن الهدف منهـا هـو حمايتها وحماية أسرتها وأطفالها..

قلت: ما هي حقوق المرأة العربية المسلمة ومدى ما تحقق منها في رأيك؟

قال: في حقيقة الأمر ليس هناك شيء اسمه قضـية حقوق المرأة العربية، إنها قضية مغلوطة ومسـتوردة مـن أوربا، ففي الغرب تشغل هذه القضية المرأة لوضعها غيـر الكريم خلافا للمرأة العربية المسلمة.. ففي أوربا وإلى وقـت قريب كانت المرأة لا تتمتع بحق الانتخاب وفي أمريكـا إذا قامت المرأة بنفس عمل الرجل فإنها تتقاضى أجـرا أقـل.. وليس هناك حتى الآن قانون يساوي المرأة بالرجل، ولـذلك نشأت قضية المطالبة بالمساواة والحريات التي يتصـورون أنها حرية الإجهاض والشذوذ الجنسي..

قلت: هل يعنى ذلك أن الإسلام لـم يعـط المـرأة حقوقا؟

فقال الدكتور حسن حنفي معترضا: لا ليس هـذا، لكن المشكلة الحقيقية تكمن في واقـع المـرأة فـي حياتنـا

ووضعها في مجتمعاتنا وهذه مشكلة اجتماعية صرفة وقد لا يختلف فيها الرجل عن المرأة.. فإذا أخذنا قضـية الحقـوق على سبيل المثال سنجد أن الرجل عندنا ليس له حقوق.. إذن القضية الرئيسية هي حقوق المواطن سواء أكان الرجـل أو المرأة.. وإذا تحدثنا عن العمل فسنجد البطالة موجودة بـين الرجال والنساء.. وفي التعليم، نجد أن الصبي الصغير فـي الريف يتعلم مثل الصبية الصغيرة.. وبالنسبة لحق الانتخاب فالرجل لا ينتخب مثل المرأة.. أما بالنسبة للحرية والتعبيـر عن الرأي.. فلا الرجل يتمتع بذلك ولا المرأة.. إذن هنـاك قضية عامة هي الحريات التي لا فرق فيهـا بـين المـرأة والرجل كما أكدتها الشريعة الإسلامية، فالخطاب في القـرآن الكريم موجه دائما كالتالي: يا أيها الناس، يا أيها الذين آمنوا، يا أيها المؤمنون والمؤمنات، وغير ذلـك.. باسـتمرار إذن هناك تركيز على الاثنين ولا فرق في الخطاب القرآني بـين المرأة والرجل من حيث الحقوق.. نسـتطيع إذن أن نعـرف الميزات الضخمة التي حققها الإسلام للمرأة إذا قارنا حالهـا قبل الإسلام بحالها بعده.. فالشريعة الإسلامية تعطى المـرأة شخصيتها المعنوية باعتبارها كائنا حيا ووجودها ليس عيبـا

ولا سبا لسواد الوجوه، فيكون الخطاب البالغ والقول العظـيم "وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلـت". والمـرأة العربيـة المسلمة تبقى محتفظة بشخصيتها وهويتها بعد الـزواج فـلا تنادى باسم زوجها كالأوربيات، كما أنها تتمتع بحـق البيـع والشراء.

أما عن تعدد الزوجات فقد كان الزواج قبل الإسلام مشاعا وبلا حدود، ولكن الإسلام حرم معظم الحـالات ولـم يتبق إلا الزواج في نطاق الإسلام، وقد أباح الإسـلام تعـدد الزوجات في حالات ضرورية استثنائية صرفة.. وضـمنها الفقهاء على أن يستأذن الرجل زوجته.. وقد كان لهـذا مـا يبرره. فالظروف تتطلب مثل هذا التشريع نظرا لاستشـهاد عدد كبير من المسلمين في الجهاد وبقاء أعداد كبيـرة مـن النسوة بدون أزواج، ودرءا للأخطار كان يسـمح بـالزواج بأكثر من واحدة منهن.. والإسلام دين واقعي جدا، ففي حالة عدم وجود أفضل الحلول يأخذ أقل الحلول شرا.. كما أعطى الإسلام المرأة حق التعليم والعمل إذا أرادت وحـق الجهـاد كذلك وكل ما يتعلق بحقوقها المالية والتجارية، ولهـا أيضـا الحق في رؤية من يريدها للزواج قبل إتمامه وحق رفضـه

إذا رأت أنه لا يناسبها، ولها الحق أن تكون العصمة بيدها لو أرادت، كما أن لها الحق في الصداق ومقدم المهـر.. وفـي الحقيقة لو عرفنا وفهمنا جيدا الحقوق التي منحهـا الإسـلام للمرأة لقلنا ياليتنا نصل إلى هذه الحقوق.. ولكن ربما كانت هناك بعض الحدود التي تشوه وتروج لكن لها أسبابها مثـل عدم السماح للمرأة بالصوم والصلاة في حالة الحيض وأعتقد أن هذه عملية نظافة صرفة ولا دخل للمفاضلة فيها ولـيس لنقص في المرأة أو لأنها دون الرجل.. وأيضا عدم السـماح لها بالحج إلا مع محرم.. وهذه أيضا ليست لقصـور فيهـا ولكن لحرص الإسلام على حمايتها من المضايقات التي قـد تتعرض لها في زحام الحجيج.. أما عن عدم جـواز قبـول شهادة امرأة واحدة، فهذا أيضا ليس تمييـزا أو تفضـيلا أو لنقص في المرأة.. ولكن للتذكير فقط، والرجل أيضا قد تغلب عليه العواطف كما هي عند المرأة.. والحقيقة إنه ليس هناك دين ولا شريعة أعطى للمرأة ما أعطاه لها الإسلام.

وسألته: ماذا عن واقع المرأة العربيـة ومظـاهر الغبن الواقعة عليها؟

فأجاب: إذا كان واقع المرأة مريرا فكـ ذلك واقـع الرجل، فكلاهما يعاني من هذا الواقع الذي نعيش فيه.. وإذا كان هناك مظاهر غبن على المرأة فإنها ناشئة عن الوضـع الاجتماعي وليس من الدين الإسلامي، وفي مجال التعليم مثلا يظل سائدا في نطاق الأسرة أن المرأة ليست مطالبة بالتعليم مثل الرجل، فتعليمها قضية ثانويـة لا تلقـى التشـجيع أو الاهتمام. لكن هذا جهل فالمرأة تشكل نصف المجتمع وعليها أن تدافع عن حقها الطبيعي في التعليم.. وفي السياسة، ينظر للمرأة التي تشارك في الحياة السياسية على أنها شذوذ عـن القاعدة.. لماذا؟ أليست شريكة الرجل في كثير من الأشياء.. فلماذا تحرم من حق المشاركة في الحياة العامة؟ أما بالنسـبة للمناصب العليا فإنه على المستويات الرسمية لا يسمح للمرأة بالوصول إلى المراكز القيادية العليا، فقط عليها أن تقف عند سقف معين ولا تتعداه. أليست هي"شجرة الدر" و"زنوبيا" قبل أن تكون"أنديرا غاندي" و"تاتشر" و"جولدا مائير"؟ بل إنه غير مسموح للمرأة بالخروج إلى الحياة العامة فالظن أن المـرأة أقل نشاطا ولذلك يجب أن تكون مساهماتها في الحياة العامة محدودة جدا.. بل وأحيانا لا يسمح لها بأي دور حتـى ولـو

كان مجرد الخروج وإذا تحقق ذلك يكون بين كم هائل مـن القيود.. وبخصوص مهمة التربية وتحمل أعباء المنزل فهي تقوم بأخطر دور. ولقد أثبتت المرأة العربية أنها أفضل بكثير من المرأة الأوربية، أنها مستعدة للتضحية في سبيل أبنائهـا بينما الأخرى ليست مستعدة للتضحية حتـى بعطلـة نهايـة الأسبوع مهما كان السبب. والمرأة العربية لا تتحمل عـبء التربية فقط بل عبء القيام بالأعمال المنزلية رغـم وجـود المساعدين والخدم في عدد لا بأس به من المنازل مما يجعلها تئن وتتألم..

وإذا ما حدث خروج على القواعد في الصلة بـين الرجال والمرأة فإن المرأة عادة هي التي توجه لها أصـابع الاتهام، وتظهر كما لو كانت هي المجرمة بينما الرجل يعتقد بأنه حر ولا صلة له بما يحدث وحتى ينسى أنه طرف فـي ذلك!!

وعن وضع الأرامل والمطلقات قال أستاذ الفلسـفة بجامعة القاهرة: في الحقيقة هذه الفئة مـن النـاس تكـاد أن يقضى عليها في مجتمعاتنا العربيـة وذلـك مـن النظـرة الاجتماعية المتخلفة والظالمة التي تقترن بهن حتـى أنهـن

يشعرن بأن وجودهن غير مرغوب فيه، بل يعشن بين كم هائل من اللاءات وكأن هذا كتب عليهن. فهن في مجتمع تقليدي نظرته ظالمة جدا. فكيف يمكن لهن العودة للحياة من جديد؟ وأن المجتمع يعاملهن وكأنهن أصبحن شرا أو فسادا حتى يموت الشباب ويمر العمر وتذبل الوردة..

إن من بين مظاهر الغبن الواقعة على المرأة العربية أن نقاط القوة فيها لم تظهر بما فيه الكفاية في مجلاتنا النسائية العربية. فقد خضعنا لتقليد المجلات النسائية الأوربية، فالمرأة العربية ليست فقط هي المرأة بنت الطبقة العليا التي تريد آخر صيحات الموضة والذهب والعطر.. لكنها المرأة التي في الطريق وبين الطبقات الشعبية والتي هي الغالبية العظمى من النساء.. وفي هذه الحالة يجب أن تتميز المجلات النسائية العربية وتكون تعبيرا صادقا عن وضع المرأة العربية بمميزاتها وأفضالها وأوضاعها الاجتماعية السلبية، عندئذ نستطيع أن نقول بأن المجلات النسائية العربية استطاعت أن تتجاوز مرحلة التقليد وتفرض خصوصيتها في الإعلام.

سألت: ما هو رأيك فـي إلغـاء قـانون الأحـوال الشخصية في مصر.

فأجاب: أن إلغاء هذا القانون لا يعني عدم الإيمـان بالمواد التي احتواها. فهي مطابقة تمامـا لحكـم الإسـلام، ومضمونها لا يختلف عن مقاصده لأن الرجـل الآن يسـيء استعمال الطلاق.. ففي تونس مثلا لا يجوز طـلاق الرجـل للمرأة بمجرد كلمة قالها وهو غاضـب، وإسـلاميا هـذا لا يجوز، فالرجل عليه أن يذهب للقاضي ويتحدث إليه ليتعرف منه على الأسباب الحقيقية لهذا القرار ويحاول إصلاح البين، وإذا فشل في ذلك فإن القاضي يصر على سماع كلمة منـه، وإذا ما أساء الرجل استعمال أي حق فإنه مـن الممكـن أن ينتزع منه دون إصدار قوانين.. لكن ما أخذ علـى قـانون الأحوال الشخصية في مصر هو الأشخاص الذين كانوا وراء إصداره وصدوره في ظرف معين. ولذلك فإن وجوده كـان مقترنا بوجود الظرف الذي صدر فيه. إن القانون لـم يمـر على المجالس الدستورية فلم يرتبط بالناس ولم يكتسب صفة الشرعية، فيجب أن يوضع القانون بعد نقاش بـين العلمـاء وحوار مع ذوي الاختصاص ودراسة متعمقة لواقع المـرأة؛

أحوالها ومشاكلها وما تتعرض له في ظل الظروف القاسـية التي نعيشها الآن.

أما بالنسبة لتعدد الزوجات، فأعتقد أن الإسلام دين واقعي يعرف أن الغريزة الجنسية رئيسية عند الرجل، ومـن ثم فإنه قد لا يوجد دين أعطى إشباعا للرجل قدر ما أعطـى الإسلام من خلال (الزواج المبكر، تعدد الزوجات) بعـد أن ألغى مظاهر إرضاء الغريزة القديمة وقضى عليها فلم يعـد هناك إماء ولا جواري ولا زواج المتعة.. هذا كنظام صوري واقع. لكن الظروف والأحوال تغيرت ونظـرا لـذلك أبقـى الإسلام على التعدد كمخرج في كثير من الأحـوال شـريطة العدل. وأنى أرى أننا في الوقت الحاضر وفي ظل الظروف الاقتصادية الصعبة لا يمكننا تحقيق العدل المطلوب، وذلـك بإعداد بيت مستقل لكل زوجة وحتى الأثرياء، فإن هناك شيئا لا يمكن أن يعدلوا فيه وهو أن عواطف الإنسـان لا يمكـن توزيعها بالعدل. ولذلك فإن هذا الزواج الثاني يكـون غيـر شرعي.

(هـ) الفراغ السياسي والثقافي للشباب:

الظاهرة موجودة في صورة غير سوية منها السفر إلى الخارج أو الانضمام إلى جماعـات دينيـة أو روابـط فكرية بالداخل لسد هذا الفراغ والانغماس في متاعب الحيـاة اليومية.. ولعلها تظهر عندما ينعزل الشباب عـن الحركـة الوطنية الذي سبب بدوره غياب الولاء لقضية كبرى يعبـر الشباب عن ولائه بالنسبة لها مثل: الاشتراكية، الرأسـمالية، الصلح مع إسرائيل. كل هذه القضايا يجب أن يشارك فيهـا الشباب، ولا تكون حكرا على القيادة السياسية حتى يمكن أن يملأ الشباب فراغه، وذلك يتأتى بإطلاق الحـوار والسـماح بالخلاف في الرأي.. واختلاف الرأي رحمة!.. فالجميع أمناء وطن واحد يتشرف الجميع بالانتماء إليه. *

هذا بالإضافة إلى وجود أيديولوجية فكريـة وهـي "إسلامية مستنيرة"، فالإسلام روح الأمة وتراثها وتاريخهـا وحاضرها، ومستقبلها.. وقد جربنا أيـديولوجيات التحـديث المعاصرة مثل "العلمانية، الماركسـية" فلـم تـنجح.. أمـا

---

* مايو ديسمبر ١٩٨٠، مناقشة حول: هل يعاني الشباب من فراغ سياسي وثقـافي، ومن المسئول، وما هو الحل؟

الاستنارة فتعني تفسير الإسلام وعرضه طبقا لمشاكل العصر الأساسية.

ويجب أن تتحول مناهج التعليم من تلقـين وإمـلاء إلى تفكير وبحث، لتنمية جوانـب الخلـق والإبـداع لـدى الشباب، وهذا يتحقق باستقلال الجامعات، ويتحمـل أيضـا الإعلام مسئولية التعبير عن وجهات نظـر الشـباب وفـتح المجال لهم للمشاركة بالرأي وعرض الآراء كافة دون سيادة رأي واحد!

(و) الشورى عقيدة وممارسة:

* لا يجوز أن يكون في المجتمع طبقة مترفة وطبقات محرومة تعيش في أكواخ الصفيح. *

---

* الرأي العام، ديسمبر ١٩٨٣، ندوة حزب الشورى والاستقلال بمدينة فاس، وهي المحاضرة التي استدعيت بعدها إلى قسم الشرطة لقضاء ليلة وبعدها أمرت بمغادرة المغرب في نهاية العام الدراسي ١٩٨٤/٦/٣٠. وقد صدرت الجريدة خلاصة المحاضرة بالفقرة الآتية:

في نطاق التوعية السياسية التي يلتزم بها حزب الدستور الديمقراطي على مستوى قاعدته الشعبية نظم الحزب بمدينة فاس ندوة حول موضوع: "الشورى عقيدة وممارسة".

ولقد شارك في هذه الندوة بالإضافة إلى الأستاذين حماد العراقي، وعبد الواحد معاش كلا من الدكتور محمود إسماعيل أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بفاس، والدكتور حسن حنفي أستاذ الفلسفة بنفس الكلية. وأدار الندوة الأستاذ محمد بن زكري الكاتب العام للحزب بالعاصمة العلمية.

ونظرا لأهمية الندوة، وما طرح فيها من أفكار ونظريات حول "الشورى" كنظام للحكم في الإسلام، فقد ارتأينا أن نقدم لقراء جريدة الرأي العام الجزء الأول من الندوة، ويشمل تدخل الدكتور حسن حنفي، وتدخل الدكتور محمود إسماعيل.

قال الدكتور حسن حنفي في تدخله: إن الشورى هي الجانب السياسي من نظرية الإسلام في الحكم التي تشمل جوانب سياسية أخرى، بالإضافة إلى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والقانونية.

وأكد أن المجتمع الواحد الذي فيه إنسان واحد جائع تبرأ ذمة الله منه. وأثبت أنه لا يجوز أن يكون في المجتمع طبقة مترفة تبنى القصور المزخرفة بالنقش العربي وطبقات محرومة تعيش في أكواخ الصفيح. وأعاد إلى الأذهان، أن الشورى عقد وبيعة واختيار. وأن الساكت عن الحق شيطان أخرس.

إن الحديث عن الإسلام كنوع من إرضاء الـذات، والشعور بالغبطة والسرور لنوع من التخدير النفسـي عمـا يحيط بنا من مآس اجتماعية تتجلى في مظاهر الفقر والتسلط من ناحية والظلم الاجتماعي من ناحيـة أخـرى. كمـا أن الهروب إليه كنوع من تغطية النقص النظري لدينا في أزمة الحريات وقضايا الديمقراطية لمن يسـاعدنا فـي حلهـا أو معالجتها.

والحديث عن "الشورى" هو تناول لجزء من نظرية أعم هي "نظرية الحكم" في الإسلام، فلا يمكـن إذن فصـل الجزء عن الكل، وأن نأخذ ما يرضينا وما نضمن به السلامة وعدم الدخول في صراع سياسي مبكر غير محمود عواقبه.

فالإسلام كلٌ واحد، يؤخذ كله أو يترك كله. حتـى في حالة الحديث عنه ككل فإن هذا الحديث لا يكون نوعا من الإعجاب بهذه المثل العليا، والبناء الإنساني، بقدر ما يكـون قياسا على الواقع ومعرفة إلى أي حد يبعد واقعنا عن هـذه المثل الأعلى. وكل من يستعمل الإسلام كموطن إعجاب فإنه

أما الدكتور محمود إسماعيل فقد جاء في تدخله: أن العالم الإسلامي يعـانى أزمـة، سواء في أوضاعه الداخلية أو في علاقاته الخارجية، مقترحا عدة حلول يمكن علـى ضوئها تطبيق الشورى الإسلامية لتجاوز الأزمة الراهنة.

يستعمل سلاحا ذو حدين، قد يتوجه ضد الآخرين من مجرد قول ونظر إلى عمل وممارسة.

"الشورى" إذن هي الجانب السياسي من نظرية الإسلام في الحكم التي تشمل جوانب سياسية أخرى، بالإضافة إلي الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والقانونية، وهي كلها جوانب تكاملية تكون نظرية واحدة. فالشورى في الإسلام بالرغم من أهميتها ذكرت كلفظ ثلاث مرات: الأولى بمعنى التشاور بين الزوجين للإصلاح "فإن أراد فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما". وهو ليس المعنى السياسي المقصود. والثاني "فاعف عنهم واستغفر لهم وشاروهم في الأمر". والثالث "وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون".

والمعنيان الثاني والثالث هما المقصودان. ولكن "الشورى" كنظام إنما أتى ضد أي نظام سياسي يقوم على التأليه (نظام فرعون مثلا) الذي قال: "أنا ربكم الأعلى". فالله وحده هو المالك "وله ملك السموات والأرض" وهو الوارث "ولله ميراث السموات والأرض"، وهو الحاكم "فاصبروا حتى

يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين". ومن ثم يرفض الإسلام أي نظرية يحكم فيها البشر، فالحاكمية لله وحده.

ومع النظرية السياسية هناك النظرية الاقتصادية، فلا سياسة بلا اقتصاد، ولا اقتصاد بلا سياسة. فالمال مال الله، والإنسان مستخلف فيما بين يديه، تركه الله وديعة عنده، له حق التصرف، وحق الانتفاع وحق الاستثمار، وليس له حق الاكتناز أو الاستغلال أو الاحتكار. فإذا حدث ذلك يكون للإسلام الحق في التدخل بالمصادرة (أموال السفهاء) والتأميم. ملكية وسائل الإنتاج التي تعم بها البلوى لا يجوز أن تكون فردية، الماء والكلأ (الزراعة)، والنار (الصناعة)، والملح (التعدين، وكل ما في باطن الأرض بما في ذلك النفط). العمل وحده مصدر القيمة، بدليل تحريم الربا، فالمال لا يولد المال، بل الجهد والعرق والإنتاج هو الذي يولد المال.

ولا يجوز أن يكون المال حكرا على طبقة الأغنياء"كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم"، الأرض لمن يفلحها والإنتاج للمنتج، فلا يجوز أخذ جزء من نتاج العامل باعتباره فائض قيمة لصاحب رأس المال. ولا يجوز التلاعب

بالأسواق أو في الأسعار أو المضاربة في التجارة إلى آخر ما يعرف في الفقه الإسلامي في"أحكام السوق".

والنظرية الاجتماعية مرتبطة بالنظرية الاقتصادية وبالنظرية السياسية. فالمجتمع الواحد الذي فيه إنسان واحد جائع تبرأ ذمة الله منه. ولا يجوز أن يكون في المجتمع الإسلامي، طبقة مترفة تبنى القصور المزخرفة بالنقش العربي وطبقة محرومة تعيش في أكواخ الصفيح على أطراف المدينة أو تتسول في الطرقات في وسط المدينة، بل لابد من رد فضول أموال الأغنياء إلى الفقراء. والفضول هو ما زاد على القوت والمسكن والملبس. ففي القرآن:" والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم" وفي المال حق غير الزكاة. كما أن المعاملات في المجتمع لا تقوم على الغش فمن غشنا فليس منا أو الرشوة فقد لعن الله المرتشين بل يقوم الإسلام على قضاء حاجات الناس.

الجوانب الاقتصادية والاجتماعية إذن مكملة للجوانب السياسية فإذا كانت الشورى قد ذكرت مرتين فالحكم ٩١ مرة، والمال ٨٦ مرة، والفقراء ١٢ مرة. والشورى

بوجه خاص في الإسلام وكما يعرفها الفقهاء "عقـد وبيعـة واختيار".

فالإمام ليس ظل الله على الأرض، أو خليفـة لله أو حاكما باسمه بل إنه يحكم باسم المسلمين ويسـتمد سـلطته منهم. وهو سلطة تنفيذية خالصة وليس سـلطة تشـريعية أو قضائية، فالتشريع من القرآن والقضاء منه. ويقـوم بالبيعـة أهل الحل والعقد وهم أهل الاختصاص العالمون بالمشـرع (القرآن والسنة) وبمصالح المسلمين. فالإمامة قضية مصلحية ترتبط بقضاء الحاجات. ليس أهل الحل والعقد رجال الـدين والمشايخ "فقهاء السلطان" الذين يبررون له قراراته ويزينون له أفعاله بل الذين يراعون وجه الله ويدافعون عن مصـالح المسلمين.

وهناك رقابة على الشورى من السلطتين التنفيذيـة والتشريعية. فوظيفة الحكومة الإسلامية هـي (الحسـبة) أي الرقابة على الدولة وعلى مصالح الناس وتطبيق الشـريعة. وظيفة القضاء تحكيم الشرع، وبالرغم من أن قاضي القضاة معين من الأمام ألا أن الأمام لا يستطيع عزله، بل أن قاضى القضاة بإمكانه عزل الإمام إذا تهاون في تطبيق الشـرع أو

صالح الأعداء أو ساومهم واستسلم لهم. إمام المسلمين هو فرد بينهم، قدوة لهم، آخر من يأكل، وآخر من يشرب، وآخر من يلبس، وآخر من يسكن.

طاعة الحاكم مشروطة بطاعة لله. لقد استقر في وجداننا القومى "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" أي تراث السلطة. أكثر مما استقر "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" "والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وأن أعظم شهادة قول حق في وجه إمام جائر والساكت عن الحق شيطان أخرس، وهو تراث المعارضة، وفي خطبة أبى بكر نبراس للحكم "أيها الناس إني وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم".

(ز) كبوة الإصلاح:

* مهمتي هي إقالة الكبوة ووضع أسس لنهضة ثابتة ودائمة ومستمرة.

* يا ليت للمفكرين قدرات الأنبياء في التأصيل النظري والممارسة العملية. ومع ذلك فالعلماء ورثة الأنبياء.

* أتيت إلى المغرب طائعا وأتركه مكرها.

* سيظل عقلي باستمرار مرتبطا بالطالب المغربي، وقلبي مع المثقف المغربي، وروحي بالمغرب.

أنوال: الأستاذ حسن، [*] باعتباركم تلقيتم في الأصل دراساتكم العليا في أوربا (فرنسا) وعلى أبرز مفكريها في الخمسينات.. كيف ترون إلى موقعكم فيها وإلى موقفكم منها، خصوصا وقد أخذتم عن مستشرقين من جهة وعن فلاسفة،

---

[*] أنوال الثقافي، العدد ١٢١ السنة الخامسة ١٩٨٤/٦/١٦، وقد صدرت الجريدة المقابلة التي أجراها عبد الصمد بلكبير بالفقرة الآتية:

الأستاذ حسن حنفي، المفكر الإسلامي المجدد، المهتم بقضايا تجديد التراث العربي–الإسلامي وتأصيل فكرنا المعاصر... يغادر هذه السنة جامعة محمد بن عبد الله (بفاس)... ويودع المغرب... مكرها.

جوابا على أسئلة "أنوال" يتحدث عن حياته... مصر... التاريخ... تيارات التجديد الفكري في العالم الإسلامي... النظرية والممارسة... التراث... وعن...

فتعتبرون أنفسكم ويعتبركم الكثيرون مفكرا إسلاميا مجـددا وربما يعتبركم آخرون مفكرا غربيا في آخر التحليل؟

حسن حنفي: تلقيت دراستي أولا في القاهرة، فـي قلب العالم العربي والإسلامي، ومن خـلال أزقتهـا وبـين فقرائها نشأت أفكاري الأولى. ولدت بجوار سـور صـلاح الدين، في القاهرة المعزية، بجوار جامع الحـاكم بـأمر الله، ليس بعيدا عن حي الأزهر والحسين. ووعيت أولا الحـرب الأوروبية الثانية إذ إنني مـن مواليـد ١٣ فبرايـر ١٩٣٥ وتمنيت هزيمة الإنجليز الذين استعمرونا. وبعـدها وعيـت قضية فلسطين، وتطوعت في ١٩٤٨ لتحريرها فرفضـتني الأحزاب والجمعيات لصغر السن وهنا وعيت قضية الوحدة والتجزئة. وشاركنا ونحن في الثانوية في ١٩٥١ في حـرب العصابات ضد الإنجليز في القناة وسرنا في موكب الشهداء. وساهمت في الفورة الوطنية في أواخر الأربعينات مع طلبـة الجامعة. وفي ربيع ١٩٥٢ دخلت الأخوان المسـلمين فـي الوقت الذي اندلعت فيه الثورة في الصيف. وعشت بوجداني الإسلام والثورة. وعشـت مأسـاة ١٩٥٤ فـي الجامعـة، والصراع بين الأخوان ومنهم نجيب ضد رجال الثورة ومنهم

عبد الناصر، وعشت أسوأ فترات حياتي الجامعية، وشاركت في نقد معاهدة الجلاء التي كانت تعطي الحق لبريطانيا للعودة إلى القناة في حالة الحرب، لم أصب في مظاهرة قصر النيل ولكن بعدها اشتعلت عواطفي الثورية بعد تأميم القناة في ١٩٥٦ عندما تحول عبد الناصر إلى بطل قومي. وفي سنوات الجامعة ١٩٥٢–١٩٥٦ وعيت نفسي مفكرا ومجددا ومصلحا من خلال الصراع بين الأخوان والثورة وضياع قضايا العصر من أجل الصراع على السلطة في حين أنه لا خلاف بين الإسلام والثورة من حيث حاولهما لها. وفي باريس وعيت الفكر المنهجي من خلال تتلمذي على الفلاسفة أكثر من المستشرقين فتعلمت على جان جيتون Jean Guitton الذي كان بدوره مفكرا كاثوليكيا مجددا ومع ذلك يعارض التجديد الجذري المسيحي مثل رينان ولوازي، وكان أقرب إلى نيومان وبسكال وأوغسطين. تعلمت منه مناهج الفكر والتجديد وتاريخ الفلسفة وهو الذي قدمنا للمؤتمر المسكوني الواحد والعشرين في الدورة الرابعة. كما تعلمت من ريكير الظاهريات. ووجدت في هوسرل تحليل الوعي وإن كنت أشعر أنه بحاجة إلى إكمال وانتقال من

الوعي الفردي إلى الوعي الاجتماعي، من الإنسان إلى التاريخ، ومن الداخل إلى الخارج. ماسنيون هو الذي وجهني إلى علم الأصول، أصول الفقه، لما قرأ مشروعي الأول الذي أعددته للحصول على دكتوراه الدولة وعمري آنذاك واحد وعشرون عاما بعنوان "المنهاج الإسلامي العام" فاستصغر سني وقلة خبرتي، وأشفق علي من المجازفة التي لا يدخل فيها إلا شيخ جاوز السبعين، وحذرني من "التأويل" الشيعي عند كوربان لأنه باطني. تكون وعيي الأول في قلب العالم الإسلامي، وتشكل في قلب العالم الغربي وهذه سنة القدماء. عندما كان المتكلم في حضارته أولا ثم يتفتح على الآخر ثانيا. مضمونه من هويته، وشكله من الآخر الذي كان اليونان في ذلك الوقت. أنا أعيد الكرة من جديد، وأستأنف الحضارة الإسلامية في دورة ثانية، هذه المرة مع الغرب وليس مع اليونان. وربما يظل الحكم القديم قائما، نحن أتباع الغرب كما كان على ابن رشد سابقا، تابعا لأرسطو أو شارحا له. هذه عملية طبيعية، قدرة على الحوار مع الآخر، التعرف عليه وتمثله واستيعابه من أجل الرد عليه، و الإسلام أوسع النظرات وأشملها، والآخر جزء منها. لذلك جمع

الفارابي أفلاطون الإلهي وأرسطو طاليس الحكيم كما أجمـع أنا بين هيجل وماركس، بين المثالية والواقعية، بين ديكارت وهوسرل، بين العقلانية والتجريبية. والذي يرانـي مفكـرا غربيا مازال يعتبر الغرب مركـز الحضـارات والإطـار المرجعي الوحيد لكل ما سواه من فكر واجتهـاد. والسـؤال المضاد هو إلى متى سيظل الغرب مركز الـدائرة ونحـن المحيط؟ وقد ينشأ هذا الالتباس في ذهن المتحير بين كـوني مفكرا إسلاميا مجددا أو مفكرا غربيا نـاقلا مـن الموقـف الحضاري الذي يعيشه المفكر في جيلنا. فهـو يعـيش فـي موقف حضاري ذي جبهات ثلاثة:

(أ) الموقف من التراث القديم.

(ب) الموقف من التراث الغربي.

(جـ) الموقف من الواقع.

فالموقف الأول هو الذي يجعلني أبدو مفكرا إسلاميا مجددا، والثاني يجعلني مفكرا غربيا، والثالث يجعلني مفكرا اجتماعيا سياسيا. والحقيقة أنه موقف واحد ابتداء من الواقـع ومن قضايا العصر، والتراث أحد مكوناته سواء كان القـديم منه في أعماق الجماهير أو الغربي منه في أذهان النخبة، أنا

مفكر واحد وأعمل في جبهات ثلاثة مفتوحة علـي، وهـي مهمة عدة أجيال منذ فجر النهضة العربية الإسلامية الحديثة ولم تنته بعد.

أنوال: منذ القرن ١٩ وخصوصا خلال القـرن ٢٠ شهد العالم الإسلامي تيارات تجديـد عديـدة متنوعـة بـل ومتضاربة أحيانا ومتصارعة. ما هو في تقـديركم مـوقفكم منها؟ وما هو تقويمكم النقدي –التاريخي والديني أيضا لها؟

حسن حنفي: بالفعل، ظهرت ثلاثة تيارات رئيسـية منذ القرن الماضي في فكرنا الحـديث تبـدو مختلفـة فـي الظاهر، وهي في حقيقة الأمر متشابهة من حيـث الموقـف الحضاري العام مع مجرد تباين في حدة النبـرة أو خفتهـا. ظهر التيار الإصلاحي ابتـداء مـن رواده الأوائـل مثـل الأفغاني، والتيار الليبرالي الوطني عند الطهطاوي، والتيـار العلني العلماني عند شبلي شميل. يركز الأول على إصـلاح القديم، وإعادة بناء التراث ولكن ثقلـه يبـدو فـي تحريـك الجماهير واندلاع الثورات الوطنية، وقد يكون ما نتمتع بـه الآن من دول مستقلة بعد حركات التحرر الوطني أحد آثـار هذا التيار وتحقيقا لأحد جوانب مشروعه في القضـاء علـى

الاستعمار وإن لم تتحقق بعد باقي جوانبـه مثـل الوحـدة. ويركز الثاني على الدولة الوطنية المستقلة وأساليب العمران من زراعة وصناعة وتعليم، يأخذ من الآخـر مـا يحتاجـه الواقع ويعيد تأصيله من داخل التراث القديم باعتباره ثقافـة وطنية للجماهير. وقد تحقق البعض منه مثل الدولة الحديثـة وإن لم يتحقق البعض الآخر مثل التنوير ومقاومـة التخلـف والدفاع عن حقوق الإنسان كمواطن حر. أما الثالـث فإنـه يدعو إلى العلم والعلمانية كأحد سبل التقدم والنهوض أسـوة بالغرب، ولا يحتاج إلى تأصيلها في التراث القـديم؛ لأنهـا جزء من التراث الإنساني العالمي. تحقق البعض منه مثـل الانفتاح على الغرب ولكن لم يتحقق البعض الآخر مثل العلم والعلمانية أو انقلبا إلى ضدهما في الخرافة والكهنوت. ومع ذلك يغلب على هذه التيارات الثلاثة موقف واحد وهو تبنـي الليبرالية الغربية والانبهار بالغرب مما سبب بعد ذلك ظاهرة "التغريب".

ولكن الذي يحز في النفس هو أكثر من هـذا، مـا أسميه "كبوة الإصلاح". فقد تعاقب على كـل تيـار أربعـة أجيال: جيل الرواد، وجيل التلاميذ، ثم تلاميذ التلاميذ ونحن

الجيل الرابع وبداية الجيل الخامس. لقد بدأ الـرواد بتحديـد مشروعهم القومي طبقا لظروف عصرهم ومستوى ثقـافتهم ودرجة وعيهم بقضايا العصر. ولكن ما أن يأتي الجيل الثاني حتى يخبو المشروع ولا يحدث فيه تراكم تاريخي، ورصـيد خبرات تجعله يتطور طبقا للظروف الجديدة وزيادة الـوعي وعمق الثقافة. ثم يأتي الجيل الثالث فيخبو المشـروع أكثـر فأكثر ويبهت ويتجاوزه الواقع، ويصبح مجرد تاريخ. فإذا ما أتى الجيل الرابع فإنه إما أن يتلاشى أو يتحول إلى مشروع مضاد فينقلب على عقبيه. أعني بكبوة الإصلاح أو النهضـة هو عدم حدوث تراكم تاريخي كاف يجعل النهضـة تتغيـر كيفا ونوعا، عمقا واتساعا، وأن الصاروخ الذي يطلقه الرواد سرعان ما يهبط من جديد لدى الجيل الرابع قبل أن يختـرق حجب الفضاء. مداه قصير ثم تبدأ من جديد تقريبا عند كـل جيل، من الصفر، وتصبح نهضاتنا وكبواتنا حلقات متصـلة متداخلة ومتطابقة في المركز والمحيط، كل منها يعود علـى بدء. مهمتي هي إقالة الكبوة ووضع أسـس لنهضـة ثابتـة ودائمة ومستمرة لا تتحول بعد عدة أجيال إلى ثورة مضادة.

مهمتي ضبط الموقف الحضاري الـذي منـه نشـأت هـذه التيارات الثلاثة.

١- إعادة بناء التراث القـديم دون الوقـوف منـه موقف الدفاع كما هو الحال في التيار الإصلاحي أو موقـف الهجوم كما هو الحال في التيار العلمي العلماني أو موقـف الانتقاء كما هو الحال في التيار الليبرالي الوطني. الموقـف النقدي من التراث هو الذي يعيد تأسيس الإصلاح، عقلانيـة في التوحيد والعدل، في العقليات والسمعيات.

٢- تحجيم الغرب، ورده إلى حدوده الطبيعية حتى تنتهي المركزية الأوربية، وينتهي نقل المعرفة من الأسـتاذ إلى التلميذ، وبالتالي تبدأ الشعوب اللاأوربية إبداعاتها الذاتية ويعاد كتابة تاريخ الحضارة الإنسانية ومساهمة كل حضـارة فيها بنوع من العدل والمساواة فينتهي مركب العظمـة عنـد الآخر ومركب النقص عند الأنا، وكأنهـا دورات تاريخيـة متعاقبة بين الأستاذ والتلميذ على مستوى الحضارات. ومـن يدرى فلربما كنا قادرين على أن نكون خالقين كما كنا فـي الماضي، ونبدأ دورة ثانية لحضارتنا نقوم فيها بدور الأستاذ والآخر بدور التلميذ، تشاركنا في ذلك الشعوب التاريخية أو

شعوب الشرق، من الصين والهند ويبدأ تاريخ الشـرق مـن جديد.

أنوال: أنتم عالم أكاديمي يشتغل بالكتاب والحـوار المتخصص والفكر المجرد وأنتم في نفس الوقت مصلح ديني واجتماعي متمرس بالصراع اليومي أحيانا. كيف توفقون بين الوجهتين؟ بين الانشغال بالنظر وعلومـه وأيضـا بالعمـل ومقتضياته وشروطه؟

حسن حنفي: الحقيقة أن ذلك تقليد من القدماء وسنة في تاريخنا. فلم يكن الأصولي الفقيه عالما أكاديميـا ينظـر ويبحث لتأسيس نظرية لا مكان لها ولا زمان بل كان يبحث في سلوك الأفراد والجماعات ويحاول التعرف علـى عللهـا والعوامل المتحكمة فيها حتى يمكن ترشيده وتحقيق أكبر قدر ممكن من النفع ورفع أكبر قدر ممكن من المضرة. وفي نفس الوقت كان يباشر ذلك بنفسه كشاهد على العصـر يتصـدى للحاكم والسلاطين فالساكت عن الحـق شـيطان أخـرس، والفقهاء الأصوليون هم حراس المدينة وحماة الشرع. وكثيرا ما انتهى الكثير مـنهم إلـى السـجن والتعـذيب والطـرد والحرمان. والنظريات المجردة تبدو كذلك ولكنها في حقيقـة

الأمر تعبير عن عصر وتوجيه له بما في ذلك العلوم النظرية الخالصة بل ويمكن أن أغالي وأقول بما في ذلك الرياضيات البحتة. فمادام العقل الإنساني يعيش صاحبه في عصر فـإن الموقف الإنساني يفرض نفسه بنفسه. هكذا كان الوحي فـي تطوره من عصر إلى عصر، وتلك قوة الفكر وخصـوبته. إذا كانت المثالية تعويضا عن مآسى الناس وإيقاعا لهم فـي الاغتـ ـ ـ ـراب فإنهـ ـ ـ ـا تكـ ـ ـ ـون خدعـ ـ ـ ـة إما إذا كانت توجيها لحياتهم ودفعهم نحو تحقيق الطوباويـة المرغوب فيها، فإنها تكون واقعية أكثر من الواقعية الساذجة التي تتحدث عن الأشياء والوقائع لإثباتها وليس لتفسـيرها. ومع ذلك، وحرصا على عدم التنازل عن التحليـل العلمـي الرصين والمسئولية الاجتماعية العامة فـإنني أكتـب علـى مستويين. الأول تحليل علمي خالص حتى يبقى العمـل فـي تاريخ الفكر ومكون للحضارة وذلك مثل رسـائلي الثلاثـة بالفرنسية في الستينات "منهج التأويل"، "تأويل الظاهريـات"، "ظاهريات التأويل". وأيضا مثل"التـراث والتجديـد" و"مـن العقيدة إلى الثورة" الذي سيصدر هـذا الصـيف. والثـاني وصف للتجارب الفردية والاجتماعية بأسلوب يفهمه الجميـع

دون الوقوع في الخطابة أو الجدل. فإذا كان الأول للخاصـة فإن الثاني للعامة دون أن يكون في هـذه القسـمة أي قـدح للطرفين. وفي نفس الوقت أشهد على العصـر ولا أرفـض محاضرة عامة أو ندوة أو حوارا أو حديثا أو توقيـع بيـان. وأحيانا لا أرفض الاشتراك في مظاهرة شعبية فـي صـحن الأزهر من أجل المسجد الأقصى والقدس وأن تكون أفعـالي مصداقا لأقوالي هو خير حجة لإقناع الناس بصدق ما أقـول على الملأ وأمام الناس، في الجامعة وفي الطريـق العـام. ولكن مع التقدم في العمر، وكبر السن، وثقل الحركة فـإنني أحيانا أغلب البحث العلمي الأكاديمي أي النوع الأول، وهـو الأبقى كما بقى "منطق" هيجـل و"رأس المـال" لمـاركس. وأترك الشهادة على العصر لغيري خاصة وقد قمت بـالكثير منها في الستينات بعد هزيمة يونيو، وفي السـبعينات بعـد الثورة المضادة في مصر. ولما رأيت مخاطر ذلـك علـى العمل الأكاديمي وتأخر مشروع "التراث والتجديـد" آثـرت إعطاء ما تبقى لي من عمر لإنجـازه. الأحـداث سـريعة ومتلاحقة ومؤلمة، والشهادة اليوميـة عليهـا تكـون أشـبه بالصراخ والعويل، إنما أعيها وأعمقها لمرحلة قادمة يكـون

فيها التأصيل النظري هو سبيل الخلاص. يا ليت للمفكـرين قدرات الأنبياء في التأصيل النظري والممارسة العملية ومـع ذلك فالعلماء ورثة الأنبياء.

أنوال: من أبرز مظاهر الفكر والممارسة السياسيين في النظام العالمي المعاصر وبالأخص في العالمين المسيحي (أمريكا اللاتينية) والإسلامي بروز حركات سياسية تسـتمد نظرياتها عن الدولة والمجتمع من التراث وبـالأخص مـن الدين مؤولا تأويلا خاصا وملائما بحسب كل قائد ديني وكل فرقة دينية. كما أن من خصائصها عموما الميل إلى العنف ورفض كل الشرعيات السائدة في المجتمع المحلي الوطني أو الدولي، وكذا على مستوى المجتمع أو الدولة، مع نوع مـن التعصب ترفض معه عقد الضروري مـن التحالفـات مـع الليبراليين أو الماركسيين مثلا. ما هو في تقـديركم المعنـى التاريخي الاجتماعي الثقافي لهـذا الانبعـاث الـديني فـي عصرنا؟ وما هو تقويمكم لهذا التداخل الـذي يحدثـه بـين الروحيات كمجال للدين والماديات كمجال السياسة؟

حسن حنفي: صحيح أن الانبعاث الـديني ظـاهرة عامة ليس في العالم الإسلامي بل أيضا في العالم المسـيحي

وربما أيضا في المجتمعات اليهودية. ومع ذلك فكل انبعـاث له خصوصيته، وأسبابه وأشكاله. الانبعاث المسـيحي فـي الغرب ربما يكون رد فعل على أزمـة العصـر الحـديث، وسيادة الآلة، وسيطرة الصناعة، وتوجيه الحاسـبات الآليـة لكل مظاهر الحياة، وضياع القيم والولاء لمثل أعلى، وانتشار الجريمة والانتحار، أي باختصار فشل المشـروع الغربـي، أكبر قدر ممكن من الإنتاج لأكبر قدر ممكن مـن السـعادة. حدثت أزمة الطاقة. وسيطرت الشعوب على مواردها الأولية وأسواقها وعملاتها. لجأ الناس إلى ما رفضه الغـرب وهـو القيم الدينية القديمة فهي أفضل من إنتاج الغرب في عصوره الحديثة من عقلانية وتنوير وعلم وصناعة وتكنولوجيا. وزاد ذلك حربان أوربيتان طاحنتان وضياع المثالية الأوربية على صخرة العنصرية الدفينة في حضارة الرجل الأبيض، وجدوا في الدين ما يحرمهم من النسبية والتشكك واللاإرادية والتردد والتذبذب والضياع.

لكن الأمر مختلف عندنا في المجتمعات الإسـلامية ولدى شعوب أمريكـا اللاتينيـة، ففـي أمريكـا اللاتينيـة ظهر"لاهوت الثورة" أو"لاهوت التحرر" على يـد الرهبـان

الشبان مثل توريز، جواتيريز، كامارا وغيرهم من أجل حل التناقض وملء الفراغ بين دور الكنيسة المحافظ والمتعـاون مع الإقطاع والرأسمالية الأمريكية وبين الماركسية المعارضة التي لا تعتنقها إلا النخبة. يقوم اللاهوت الثوري إذن بإعطاء الجماهير الكاثوليكية أيديولوجية ثورية مستحدثة من ثقافتهـا الوطنية والقهر العسكري والسياسـي والإقطـاع الزراعـي والرأسمالية الصناعية. ولا يقول اللاهـوت الثـوري كلـه بالعنف والكفاح المسلح. فإن كان توريز ينادى بذلك، وقام به بالفعل فإن كامارا يدعو إلى ذلك بالسلم والـدعوة بالكلمـة. والعنف في حقيقة الأمر هو عنف مضاد أي أنـه رد علـى العنف القهري بالعنف الثوري.

أما بالنسبة لنا فقد نشأ الانبعاث الإسلامي كقـانون تاريخي. فنحن الآن في دورتنا الثانية بعد أن اكتملت الدورة الأولى في القرون السبعة الأولى التي أرخ لها ابن خلـدون. ثم تلتها قرون سبعة تابعة لتدوين نتاج الدورة الأولـى فـي عصر الشروح والملخصات والموسوعات الإسلامية. ولكـن لما كبا الإصلاح من الأفغاني إلى محمد عبده إلى رشـيد رضا إلى حسن البنا، وفي كل مرة يفقد شيئا من حرارتـه

الأولى. وقد حاول حسن البنا إكمال مشروع الأفغاني بتجنيد الجماهير مما جعل الأخوان أقوى جماعة إسـلامية منظمـة شهدتها مجتمعاتنا الحالية. ولكن بعد الصراع على السـلطة بين الأخوان والثورة في مصر في ١٩٥٤ وفي كـل مكـان الآن في سوريا والعراق والجزائر وتونس وضع الأخوان في السجون تحت أهوال التعذيب لمدة عشرات السنين، واستشهد من زعمائهم ومفكريهم عبد القادر عودة وسيد قطـب، نشـأ جيل جديد من الأخوان من داخل السجون يعبرون عن "معالم في الطريق" لقلب نظام العالم من الأسود إلى الأبيض، مـن الجاهلية إلى الإسلام، من الكفر إلى الإيمان، ومن الطاغوت إلى الحرية، من حكم البشر إلى حكم الله. هـذا الانبعـاث الغاضب الثائر الواقعي بطبيعة الحال يغلب عليه التعصـب وضيق الأفق ويرفض الحوار مع كل أيديولوجيات التحـديث العلمانية، ومع ذلك فهو يمثل رد فعـل علـى فشـل هـذه الأيديولوجيات في حياتنا الحاضرة، فقد ازددنا احتلالا وقهرا وتخلفا وفقرا وتجزئة وتخريبا وسـلبية. ونظـرا لأن هـذه الجماعات الإسلامية الحديثة لن يسمح لها بحق التعبير الحر عن نفسها، وليس لها جرائدها أو مجلاتهـا أو نشـراتها أو

كتبها ومازالت مهمشة في المجتمع ملفوظة منه فإنها بطبيعة الحال اتجهت للعمل السري تحت الأرض وتتفجر بين الحين والآخر إيجابا أو سلبا. الحل إذن هو إعطاء الجميـع حـق التعبير في إطار الوحدة الوطنية حتى يتم الحوار المطلـوب بين الأحرار وليس بين الجلاد والسجناء. هنا يظهر التسامح ويتسع الأفق ويظهر الانبعاث الإسلامي جامعا بـين الهويـة والحداثة، بين التراث والتجديـد، وقـادرا علـى أن يحقـق للجماهير مطلبيها. الإبقاء على هويتها وتراثها ودينها ثم تلبية عصرها وتحقيق أمانيها القومية.

أنوال: يبدو أن الإشكالية المركزية لفكركم هي مـا يلخصه عنوان مشروعكم الأخير والذي صدرت منه حتـى الآن مقدمته "التراث والتجديد". من أين يسـتمد مشـروعكم مشروعيته سواء من الناحية الدينية أو العلمية أو التاريخيـة؟ وأين وصلتم منه إنجازا حتى الآن؟ وما هي آفاق مشاريعكم واهتماماتكم؟

حسن حنفي: مشروع التراث والتجديد هي محاولة جيلنا الحالي منذ فجر النهضة العربية الإسلامية حتـى الآن حل قضية الأصالة والمعارضة، ومن أجل الجمع بين القـديم

والجديد، وإحداث التغيير من خلال التواصل حتى لا تنقطـع مع الماضي بدعوى الحداثة كما كان الحال في تركيا وبولندا. وانتهى الأمر إلى انقسام تركيا بين حركة إسلامية محافظـة تدعو إلى المحافظة على القديم كرد فعل على الانقطاع عنـه وحركة يسارية علمانية ترفض الحداثـة الغربيـة والتبعيـة الأمريكية، كما انتهى الأمر في بولندا إلى ظهور الليبراليـة كتطور طبيعي للتراث الديني (الكاثوليكية) بدلا من الانقطاع عنها ثم تركيب غطاء سطحي فوقها من الماركسية الغربيـة العلمانية. "التراث والتجديد" إذن يهدف إلى المسـاهمة فـي حركة التغير الاجتماعي وإعطائها دفعة جديدة حرصا عليها من الكبوة والردة والثورة المضادة. فلا يتغيـر شـيء فـي الواقع إلا إذا تغير في الذهن أولا. وما أسهل تحقيق أكبر قدر ممكن من الإنجازات الثوريـة مثـل الإصـلاح الزراعـي والتصنيع والتأميم ومجانية التعليم دون تغيير مماثل في نسق القيم القديمة وفي القوالب والتصـورات الذهنيـة والأبنيـة والدوافع النفسية. فبمجرد اختفاء السلطة الثوريـة وظهـور سلطة مضادة تنقلب الإنجازات رأسا علـى عقـب وتسـود المحافظة التقليدية ويتم استغلالها أبشع اسـتغلال للمحافظـة

على الوضع القائم وإعطاء شرعية للثورة المضـادة. يبقـى "التراث والتجديد" إذن البداية بالبدايـة أي بالـذهن والقيمـة والاتجاه النفسي والموقف من العالم. المفكرون الأحرار قبل الضباط الأحرار، هكذا كان الحال فـي الثـورة الفرنسـية والروسية والأمريكية. وربما من بعض أسباب تعثر الثـورة الإسلامية في إيران هو أنها أتت في لحظة مـن المحافظـة الدينية التقليدية، قبل تثوير الذهن والتراث. وسـهل أن يـتم ذلك. فالتراث تراثان، تراث سلطة وهو الذي اعتمدت عليـه الدولة لتدعيم سلطتها، وتراث المعارضة الذي ضربت حوله الدولة مؤامرة صمت وشوهته في كتابات مؤرخي السلطان.

مهمتنا إبراز تراث المعارضة وبالتالي تنتفي تهمـة الإلحاد أو الأفكار المستوردة التي تلقى علـى كـل مصـلح ومغير اجتماعي. كما ينتزع سلاح الدين من أيدي السـلطة والاستعمار ويصبح الدين لصالح الشـعب ولـيس ضـده، وبالتالي تتحقق مصالح الشريعة الضـرورية التـي لأجلهـا وضعت الشريعة ابتداء، المحافظة على النفس والدين والعقل والعرض والمال. لا أحد يريد أن يبقى في المحافظة التقليدية إلا القليل، ولا أحد يبغي الماركسية أو الليبرالية أو القومية أو

الاشتراكية العلمانية إلا القليل. ولكن الجميع يبغي الإسلام العصري المستنير القادر على الإبقاء على هوية الجماهير والدفاع عن مصالحها.

ويتكون المشروع من أقسام ثلاثة:

(أ) موقفنا من التراث القديم، وهي الجبهة الأولى المفروضة علينا من أجل تحديد علاقة سليمة وصحيحة بالقديم. ويتلخص ذلك في إعادة بناء العلوم القديمة طبقا لمتطلبات العصر، وإعادة الاختيار بين البدائل، سواء كان ذلك في العلوم النقلية العقلية مثل علم أصول الدين وعلم أصول الفقه وعلوم الحكمة وعلوم التصوف أو في العلوم النقلية الخالصة مثل علوم القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقه أو في العلوم العقلية والطبيعية الخاصة مثل الرياضة (الحساب، والهندسة، والجبر، والموسيقى، والفلك) وعلوم الكيمياء والطب والصيدلة والحيوان أو في العلوم الإنسانية مثل اللغة والأدب والجغرافيا والتاريخ.

(ب) موقفنا من التراث الغربي من أجل تحديد علاقة سليمة وصحيحة بالغرب، رده إلى حدوده الطبيعية وتحجيمه حتى تتخلص الحضارات اللاأوربية من آثاره ونقل

المعارف منه إلى الإبداع الذاتي. ويتضمن ذلك إعادة كتابة تاريخ الحضارة الغربية في خمسة أجـزاء: عصـر آبـاء الكنيسة، والعصر الوسيط، وعصـر الإصـلاح والنهضـة، وعصر العقلانية والتنوير ثم عصر العلم والتكنولوجيا.

(جـ) موقفنا من الواقع أو نظرية التفسير من أجل إعادة تفسير الوحي طبقا لقضايا العصر. ويتضمن ذلك ثلاثة أجزاء، الأول عن العهد القديم، والثاني عن العهـد الجديـد، والثالث عن القرآن الكريم، "المناهج" كتفسـير موضـوعي للقرآن ابتداء من الإنسان والمجتمع والتاريخ. لم يتم إنجـاز المشروع إلا في مقدمته الأولى "التراث والتجديـد" والجـزء الأول بناء علم أصول الدين. وكما تـرى المشـروع كبيـر والعمر قصير ولكن ما العمل؟

أنوال: وأنتم في المغرب منذ سنتين، وقبلها خـلال زيارات علمية ثقافية ما الذي أثـار ويثيـر انتبـاهكم فيـه ويستدعي ملاحظاتكم التثمينية أو النقدية وأيضا اقتراحـاتكم وتوجيهاتكم، كل ذلك طبعا على الصعيد الثقافي العام؟

حسن حنفي: المغرب بالنسبة لي وطني. لقد عشت منذ سنتين صراعا بين المال بلا علم في الخليج وبين العلـم

دون مال في المغرب، واخترت المغرب. زيارتي الأولى في إبريل ١٩٧٩ بدعوة من الجمعية الفلسـفية المغربيـة عـن "التقاليد والتحرر" وفي فاس خاصة أحسست بروح الطـلاب وعقولهم، ورأيت أن مكاني عندهم. ولكني كنت في مصـر في ذلك الوقت في خضم الصراع ضد الثورة المضادة. ولما انتهت وسنحت الظروف أتيت إلى المغرب طائعا وأتركـه مكرها. بصرف النظر عن سهولة الحياة، وجمال الطبيعـة، وصغر المدينة، وحرية الانتقال تظل النقطة المضيئة بالنسبة لي هو الطالب المغربي. لم أشهد طالبا مثله في العالم العربي أو الإسلامي أو الغربي. فهو شعلة من الحمـاس والـذكاء، واسع الاطلاع، شجاع، مناضل، يعرف روح الجماعة بالرغم من بعض التغريب في ثقافته والإعجاب بالألفاظ المسـتحدثة سعيا وراء آخر ما ينتجه الحي اللاتيني من مواهب وتيارات. يقدر الأستاذ الذي مثله ويسعى إليه ويستمع منـه ويحـاوره ويأخذ موقفا منه، معه أو عليه. وقد كان اختياري للمغـرب أساسا هو اختيار للطالب، ورفضت من أجله كل الإغراءات والعروض حتى يتأثر بي وأتأثر به وأنشـر رسـالتي بينـه وأحميه من العداء للتراث القديم ومن التغريب بـالرغم مـن

اعتراضاته المنهجية على التراث والتجديد التي أقدرها وأفهمها ولكن أرجو له مشروعا أفضل يقوم به الطالب فتتلاحق الأجيال وتتكامل. والطالب المغربي هو المثقف المغربي ومن ثم ستستمر النقطة المضيئة في جماهير المثقفين في الغرب في اتحاد الكتاب والروابط والأندية والجمعيات الثقافية. وبالرغم من عزلتهم أحيانا ودعوتهم إلى بعض الخصوصية التي قد تقترب من الشوفينية والقطيعة الابستمولوجية إلا أنهم منفتحون على المشرق ولا يكاد المشرق العربي ينتج شيئا إلا وهم قارئوه. الاعتزاز بالعربية وبالعروبة وبقضايا النضال المصيري مثل تحرير فلسطين، وقضايا التخلف والتقدم والتنمية، وتعارفهم وتكاتفهم يجعل المثقفين المغاربة في طليعة حركة التحرر العربي وموقعا متقدما فيها.

ومع ذلك فإن الطالب مظلوم، محاصر بين الفقر والقهر لا يرعاه أحد. لا يعي أمره أساتذته من مواطنيه الذين قد يناصب بعضهم العداء له وربما الحسد له والغيرة منه. ولا ترعاه الإدارة التي تناصبه العداء وتعتبره خصما عنيدا.

ولا ترعاه المؤسسة التعليمية والنظم العامة التي ترى أنها في غنى عنه وأن أجهزة الأمن له بالمرصاد.

هذا الحديث بمثابة وداع لشعب المغرب كنـت أود التعبير عنه بصيغة أخرى وأنا أغادره إلى مكان آخر كمـا كان الأفغانى من قبل لا يستقر له مقـام. لا يرضـى عنـه خديوي مصر ولا سلطان تركيا ولا قيصر روسيا ولا أميـر من أمراء العرب. ولكن إذا غاب بجسده فإن روحه ترى في كل مكان وعلى أكتافه قامت كل حركاتنا الوطنية وحصـلنا على استقلالنا. قد تعود الكرة وتنتشر أفكار التراث والتجديد حتى في غيابي ولكن سيظل عقلي باستمرار مرتبطا بالطالب المغربي وقلبي مع المثقف المغربـي وروحـي بـالمغرب. ولطالما كانت هذه صورة المغرب عنـد فلاسـفة المشـرق حكماء وصوفية. فقد كتب السهرودي "الغربة المغربيـة" أو الغربية وكتب ابن عربي "عنقاء مغرب" وهاأنذا أكتب وداعا لشعب المغرب.